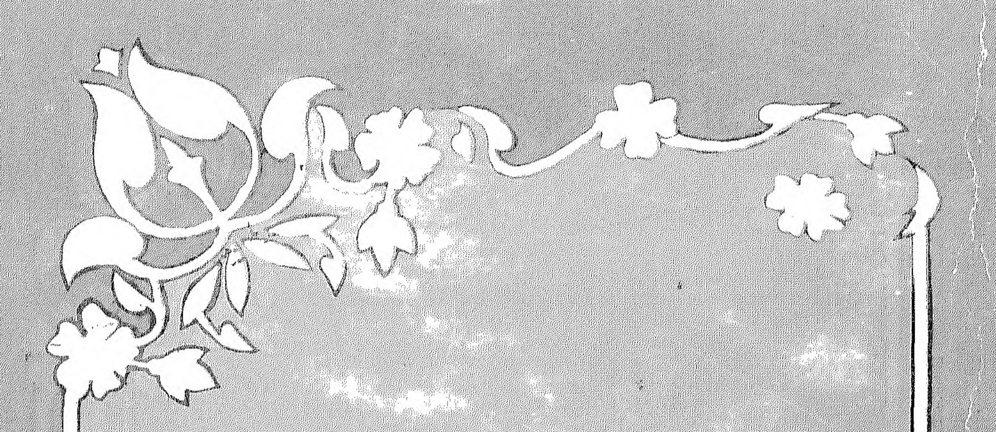

يارسول الله

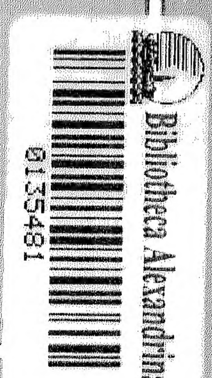

د. ابراهيم على أبو الخشب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يا رسول الله

تأليف: د. إبراهيم على أبو الخشب

الطبعة الثانية

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩١

البير جورجى	دريه محمد على
الاخراج الفنى	تصميم الغــلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم •

﴿ صدق الله العظيم ﴾

مقدمة

كانت الأمانى الحلوة التى تدور بذهنى ، فى كل مناسبة دينية تهز وجدانى ، وتثير مشاعرى ، أن يكون لى حديث تسجله الاذاعة ، أو تنشره الصحف والمجلات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصور فيه اعجابى به • وحبى له ، وأملى فيه ، ورجائى منه ، وطالما تحقق لى الكثير من هذا كله فكتبت وأذعت وتحدثت ، وجرى ذلك كله بكيانى جريان الدم فى العروق • الا أنى أيقنت أن هذه كلها قد لا يذكرها الناس الا فى حينها • وفى الوقت الذى ينتهى الى أسماعهم حديثها ، ثم يكون نصيبها منهم بعد ذلك التغافل والنسيان ، وذلك ما لا يليق بانسان أرسله ربه رحمة للناس • وجعله امام الصديقين والشهداء والصالحين ، وأنقذ به البشرية من الضلالة والحيرة ، والجهالة والشك ، والعمى والشرك ، فصارت تنعم بنور الهداية ، وتحيا بالعلم ، وتسعد بالخير ، وتأنس بالحب ، لا يستذلها أحد • ولا يستعبدها انسان ••• ولا يصح أن يكون جهدى من الاعتراف بفضله ، أو التسجيل لأياديه رهنا بهذا النطاق المحدود ، وانما يكون كتابا يحرص المؤمن على اقتنائه ، ويعمل على صونه ، ويضن به من أن يضيع فى زحمة الأفكار ، أو فى خضم الاهمال والنسيان ، والكتاب كان ــ ولا يزال ــ ذخر الأديب ، وتحفة العالم ، ورأس مال العاقل ونزهة المهموم ومفزع الحائر ، ودنيا أولئك الذين لا يحيون فى دنيا الناس •

الا أنني حينما ابتدأت هذا العزم المصمم على ابراز تلك الفكـــرة الى حيز الوجود لم يتيسر لى أن أرتبط بها حتى النهاية لتكون صورة واحدة لانفعال وجداني واحد ، تتناسب فيــه المشـــاعر ، وتتشابه الملامح · وتتعانق الألفاظ بالمعانى · فتجيء كما تجي الحسناء وخيالها فى المرآة ، عند من يحسنون الظن بى ، ولكنني ارتبطت بالكتابة وانقطعت لهـا فى فترتين مختلفتين تمام الاختلاف · قد قطعت ما بينهما شواغل ، وحـالت ملابســات ، جعلت الكتابة كأنهـا لرجلين اثنين كل منهمـا له خصائصه التي تميزه فى أدبه وذوقه ، ووعيــه وادراكه ، فمن أول الكتــاب حتى عنوان « فى المدينة » كانت الفترة الأولى ، ثم من بعــد ذلك الى نهــاية الكتاب كانت الفترة الثانية ··· وسيرى القارىء أن الطابع الذى تنفرد به الأولى القصة وخيال الشاعر ، وتصــوير الرسام ، وأسلوب الأديب ، وأما الثانية فانهــا جــاءت على نهج المؤرخ الذى يعنى بالأحداث ، ويهتم بالأعاصير ، ويجرى وراء عجلة الزمن ، متتبعا لآثارها وما تخلفه وراءها ، معلقا عليها أو غير معلق ··· وحينما انتهيت من الكتابة وعاودت النظـر اليها هممت أن أهمل شــأن الكتــاب لأبتدئه من جديد على نسق واحــد لا تختلف أشــكاله ومرائيه ، غــير أنى خفت — فى زحمــة المشــاغل — ألا يساعدنى الوقت على الكتــابة على اللون الذى أريده فيترتب على ذلك الوقوف الجــامد · والاغضــاء التام — وشيء خــير من لا شيء — فقلت ماذا يضير القارىء أن يجد هذين اللونين · ويمتع خاطره بهاتين الصورتين · وكلتاهما ممــا يطلبه الوجدان ، وينشده العقل · وأدع للناقد بعد ذلك كله حكمه الذى يصدره · والله أرجو أن يجعل هذا الجهد خالصا لوجهه مقبولا عنده ، مشكورا لديه · انه هو حسبى وكفى ·

المؤلف

مقدمة الطبعة الثانية

رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ مع اجلالنا له · واعتزازنا به ـ لا يفيه حقه من الحديث · ولا نصيبه اللائق به من التنويه ، ولا حظه من الاعلان عن مواهبه التى كانت له فى بيانه ولسانه ، وحكمته وحنكته ، ولباقته وذوقه ، وكياسته وسياسته · وحذقه وبعد نظره ، وحسن تدبيره ، وحلمه وعلمه ، وعفوه وتسامحه ، وصفحه واغضائه ، وذكائه وفطنته ، وطهارة قلبه ، ونقاء ضميره ، وسلامة سلوكه ، وسمو روحه · وعلو مكانته ، وحدبه على الضعفاء ، واحسانه الى البائسين ، وصلته لرحمه وذويه ، وعطفه على قومه وحرصه على أن تستقيم أمته على الجادة ، وتسلك السبيل السوى ، وزهده فى الدنيا ، وترفعه عن حطامها الفانى ، وعرضها الزائل ، وزهرتها الذابلة ، ودفعه السيئة بالتى هى أحسن ، وعدم تعاليه على أصحابه الذين كانوا من حوله · أو الجوانب الخصبة التى كانت فيه من البر والمعروف ، والتواضع والأدب ، والحياء والعفة ، والرأى والعقل ، والوعى والفكر ، والعبقرية التى خصه الله بها دون غيره من الأنبياء والرسل ، مجلدات ضخمة ، ولابيان رائع ، وفصاحة نادرة ، وبلاغة جبارة ، وذلك لأن الذى اختاره رسولا على رأس هؤلاء الذين سبقوه بالهداية من الأنبياء والرسل · لم يشأ الا أن يجعله خلاصة الخلاصات ، ورحيق العصارات ، وسيد أهل الأرض والسماوات ، والبقية الباقية من الطيبات الصالحات·· واذا كان القرآن الكريم وهو معجزته القائمة الى يوم

الدين سيظل هكذا منارة للطريق ، وانقاذا للغريق ، وارشادا للضال ، وهاديا للحائر ، ومقوما للمعوج ، فان محمدا صلى الله عليه وسلم هو هذا الكتاب الثاني ، بعد ذلك الكتاب الأول الذى تتدارسه الأجيال بعد الأجيال ، وتنتفع به الشعوب ، وتستفيد منه البشرية ، على مدى الحيـــاة دون أن ينضب له معين ، أو يجف له ماء ، أو ينتهى له عطاء ، وذلك لأن خالقه قد أراد أن يجعله المعجزة الأخرى وقد كان فيما بين العرب المثال الكامل للانسانية ، وما أنكر عليه هذا عدو ولا حاقد • وقد كتب عنه آلاف العلماء ، وأساطين الأدباء ، وسيكتب عنه ان شاء الله الأبناء والأحفاد • وسيظل هو مع هذا كله القمة الشامخة التى لا يستطيع الصعود اليها أحد ، والغريب فى حياته التى صنعها الله على عينه • تلك الشدائد التى كان يلاقيها ، والمحن التى كانت تتوالى عليه ، والخطوب التى كانت ملازمة له ، ومع ذلك لم ترده عن غايته ، أو تعوق سيره ، أو تصده بحال من الأحـــوال عن قصـــده ، ونحن نعــلم أنه ارتضع أفاويقها منــذ فتح عينيه على هذا الوجود ، اذ رأى نفسه يتيما فقيرا ، قد فقد العائل الذى يرعاه ، والمال الذى ينفق منه ، ثم ظل تحت رحمة من يكفله من أهله وذوى قرابته ، حتى اذا بلغ سن الشبـــاب كان يبحث عمن يستأجره فى رعى الغنم أو التجارة رجاء أن يحصل على لقمة العيش التى لابد منها لتقيم صلبه ، وتدفع عنه غائلة الجوع • ويلقى عليه جل جلاله عبء الرسالة وهو مجرد عن الأعوان والأصدقاء أو الأهل الذين يقفون بجانبه ، ويدافعون عنه ، أو يساعدونه على تحمل المشاق ، ودفع تلك الشدائد ، وهنالك يطمع فيه كل طامع ، ويتطاول عليه كل متطاول ، ويكذبه كل جاهل ، ولا يجـــد ما يسرى عنه ذلك كله الا أن يتجه الى الله ليقول له « اللهم ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى •• ويقاوم كفار مكة والمنافقين من حوله ، وهو لا يتجاوز مرحلة الا أخذ يواجه أختها أو عمتها وخالتها ، وهكذا دواليك ، ونحن لا ننكر أن حياة المصلحين وأرباب المبادىء كذلك كانت ، ولكنها حينمـا تكون ممن يتوسمون فيهم الحدب ، ويرجون منهم النصر ، أو ينتظرون منهم المساعـــدة ، ثم يخيب الظن فيهم ، تكون الطـامة الكبرى ، والألم الشديد ، وتحطيم القوى ، ولقد كان أول من ابتدأه بذلك كله عمه أبو لهب وهو يقول له تبت يدك ألهذا جمعتنا ، فماذا كان يخبئه له القدر بعد هذا الخذلان الا أن يقول عنه القائلون ساحر أو شاعر وأساطير الأولين اكتتبها أو مجنون ، بعض آلهتنا اعتراه ولا تزال تلك المشادة والصد والاعراض يواجهها فى الصباح وفى المساء ممن يعرف ومن لا يعرف حتى حملوه رغم أنفه على أن يترك بلده وأهله وبيته فرارا بحياته التى لم تكن له ، ولما علموا أنه قد قر قراره فى منفاه لاحقوه بالكيد ، ودبروا له عوامل الايذاء ، وجهزوا له الجيوش التى تحاربه ، عسى أن يسكتوا صوته ، أو يضمنوا

موته ، وكان المأمول أن يجد في بيته الاستقرار الا أنه كان مليئا بالمتاعب في داخله وفي خارجه ، وحسبك ما كان لحديث الافك ، وقصة « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك » ولم يكن له من مصادر الرزق ، وأسباب الثروة ، ما يجعله في بذخ الملوك ، ولا سعة أرباب السلطان ، لكن نساءه أبين الا أن يجعلهن في مستوى نساء قيصر وكسرى ، ولم يكن كل هذا هينا عليه ، ولا خفيفا لديه ، وقد رزقه الله من جاريته مارية القبطية بولده ابراهيم ففرح به فرحا شديدا ، وكان لهذا يمر كل يوم ببيت مارية — البعيد عنهن — ليرى ولده وقرة عينه ، لكن ذلك لم يكن على هواهن ، فاهتاجت حفائظهن ، وكان يقول لعائشة وهي أقربهن الى قلبه ألا ترين ما بينه وبيني من شبه ، فتقول له ليس فيه منك شيء يا رسول الله ، وكذلك كان هذا الطفل الذي ابتهج النبي بمقدمة مثار حقدهن ، وايجاد المشاكل منهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى درجة أن حصلت منه صلى الله عليه وسلم جفوة لهن ، وانقطع عنهن شهرا كاملا ، وظن الناس أنه طلقهن ، وكان ذلك يشبه المأتم عند المسلمين ، لولا عمر رضي الله عنه وقد جاءه ليعرف جلية الأمر ، فأخبره صلى الله عليه وسلم أن ذلك لم يكن فخرج عمر الى الناس وأخبرهم بذلك ففرحوا فرحا شديدا ، ونزل حينئذ قوله تعالى « ترجي من تشاء منهن وتؤوي اليك من تشاء الآية » ٠٠ وعلى كل حال فان نساءه صلى الله عليه وسلم لم يكن من الملائكة المقربين ، وانما هن بشر يجوز عليهن ما يجوز على الناس من الحقد أو الغضب والغيرة ، وما من واحدة منهن الا كانت تود أن يكون رسول الله لها وحدها دون أن يشاركها فيه أحد ، تملأ هي قلبه ، وتشغل باله ، وتستأثر بحبه ٠ وقد كانت عائشة مع علمها بمكانتها عنده لا تود أن يجري على لسانه ذكر خديجة التي فارقت الدنيا ، وصارت من غير شك لا تزاحمها عليه ، ولا تشاركها فيه ، وخلاصة القول أن حياته كلها كانت سلسلة متصلة الحلقات من المتاعب والمعاناة ، ولابد للدارس لسيرته صلى الله عليه وسلم من أن يقف أمام ذلك موقف المتأمل ليرى ان كان مثل ذلك قد تحمله الأبطال في تاريخ هذه الانسانية أم ان ذلك كان له وحده ليكون أهلا للسيادة والريادة ، وسيدا لأنبياء الله ورسله ، وصاحب هذا الصوت المدوي في ضمائر الناس وأفئدتهم ، واذا كان الشاعر يقول « وبحسن السبك قد ينفي الدغل » فان تلك المحن ، وهذه الشدائد ، قد صهرته صلى الله عليه وسلم ، وجعلته أقوى احتمالا ، وأكثر جلدا ، وأشد ثباتا ، وأبعد عن الفضول ، وأبغض للتوافه من الأمور ، والرخيص من الخلال أو الأعمال ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يقول فيه قائل ليته كان ، أو ليته لم يكن ، وقد كان الأجدر به كذا ، أو لم يكن من الجدير به كذا ، وهو الذي سواه ربه من الكمال ، وجمله بحسن الخصال ، وصوره من

الابداع ، وآزره بالالهام ، ووهبه السداد فى الرأى ، والقوة فى العقل ، والحنكة في التدبير · والسلامة فى الخطا ، ليكون هو هذا الضياء الذى يكشف لنا المعالم ، ويضىء لنا السبل ، حتى لا ينحدر الناس ، أو تغيب عنهم حكومة القسطاس ، وكان بذلك صلى الله عليه وسلم أستاذ الأساتذة ، وفيلسوف الدنيا ، والقرآن الثانى لهذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل ، ولا يجحده العاقل ، وهذا هو الذى يحملنا على القول بأن مجال الكتابة فيه سيظل متسعا لمن يريد أن يحظى بهذا الشرف ، وكلنا لا يأبى أن يكون هو هذا الرجل ·

المؤلف

يا رسول الله

ما تفقدت الانسانية خلقا كريما ، ولا دينا عظيما ، ولا سلوكا نبيلا ، ولا خلة من خلال البر ، أو خصلة من خصال الخير ، ولا شيئا وراء ذلك كله من مكارم العادات ، وجميل الصفات ، الا كان نفحة من أدبك ، ولمحة من خيمك ، وومضة من هديك ، واشعاعا من نورك ، وخطوة من سننك ، وسطرا من تاريخك ، أو قبسا كنت ترسله في الليالي الحالكة ، والمعالم المشتبهة ، والسبل الملتوية ، والساعات الكالحة ، والأوقات الحرجة ، والمحن الصارخة ، والظروف البغيضة ، والشدائد الملحه .. وسيظل تاريخك خالدا خلود الابد ، باقيا بقاء الدهر ، مضيئا أكثر من الصبح ، مدويا دوى الأذان ، يتحدى الفناء ، ويصارع الأحداث ، ويغالب الزمن ، ويحارب الطغيان • ويخضع صعر الملوك ، ويسخر من الجبابرة ، ويهز بنيان الظالمين ، ويقضى على الفساد ، ويعلن المساواة ، وينادي بالعدالة ، ويشيع المحبة • ويأمر بالمعروف ، ويقلم أظافر الاستبداد ، ويشرع الاشتراكية ، ويقصم ظهور المتكبرين في الأرض بغير الحق ، لا لأنك رسول رب الأرباب ، وملك الملوك ، وقيوم السماوات والأرض ، وأنت تحتمى ببطشه ، وتعتز بسلطانه ، وتنتصر ببأسه ، وتقاتل بسيفه ، وتنطق بلسانه ، وتدعو الى سبيله ، وهو ـ لا محالة ـ يصونك من بغى المسلطين ، وعدوان الظالمين ، وعبث المفسدين ، وسفه الحمقى ، والله جل جلاله لا يتخلى عن أوليائه ، ولا يترك جنوده ، ولا يخذل أعوانه ، ولا يتغافل عن الملحوظين بعنايته ، المشمولين برعايته ، المحفوفين برحمته ، المغمورين برضوانه ، ولكن لأنك ـ مع هذا كله ـ كنت المثل الأعلى الذى ترتقى اليه البشرية عند نموها ، وتتطلع اليه حين تقدمها ، وتحاول أن تحتذى سلوكه كلما ثاب اليها الرشد ، أو عاودها الصواب • وتيقظ فيها

العقل ، وتحركت لديهـا أسبـاب الفقه والمعرفة ، وألهمها الله السداد والتوفيق ..

والحديث فيك ــ يا رسول الله ــ حبيب الى النفس ، خفيف على القلب ، لذيذ رجعه على السمع كأنه موسيقى أطيار الجنة ، أو نغم من بلابل الخلود ، ترتاح له الأفئدة المكدودة ، والجوانح الملتاعة ، والأكباد الملتهبة ، والأرواح المتشوفة ، وتجد لصداه من الحنين والشوق ، والميل والاصغاء والطرب والنشوة ، والاذعان والقبول ، ما لا تجده لغيره من أحاديث ، ولا لسواه من أقوال ، ولو كانت تحكى صبابة العشاق ، ولوعة المحبين ، لأن جرسه شدو ، وألفاظه نغم ، وحروفه ايقاع ، ومعانيه آمال صادقة ، وأحلام لذيذة . وخيال يحلق بالمؤمن في سماء الخلود .. ينشده الأديب فيجد فيه الحكمة البالغة . والفصاحة النادرة ، والبلاغة الرائعة ، والأسلوب القوى . والتصوير الدقيق . والألفاظ الحلوة . والمنطق السليم . والبيان العذب ، والوجدان الصادق ، والشعور الصحيح . والنمط الذى لا يصل اليه الا الأفذاذ من أساطين الكلام ، ودهاقين القول ، وجهابذة الحديث ، وأساتذة الأدب ، ويتصفحه المصلح الاجتماعى فلا يعثر فيه الا على دستور قويم ، وتهذيب واضح ، وتقويم سليم ، وتوجيه سديد ، وقانون لا غبار عليه .. وهكذا كل جوانبك ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا يجد فيها أحد ثغرة ينفذ منها ، ولا خللا يعيبك به . ولا نقصا يحسبه عليك ، وانما هى شامخة كالجبل ، طاهرة كماء السماء ، آهلة بالخصوبة ، عامرة باليقين ، غنية كل الغنى بالبر واليمن ، والصدق والحق ، والخير والمعروف ، والصواب والعدل ، والاصلاح والمنفعة . والسلامة والأمن ، والرضا والاطمئنان .. وأنا أجد فى حديثى عنك وذكرى لك ، وصلاتى عليك ، وأدبى معك ، واجلالى اياك ، وأملى فيك . غذاء لروحى ، وضياء لقلبى ، وشفاء لغليلى ، وارواء لظمئى ، وارضاء لضميرى ، واقسم بالله الذى اصطفاك . والخالق الذى اجتباك ، وبالكبير العظيم الذى أرسلك ما أحسست أن هذا خيال شاعر . ولا أوهام فيلسوف ولا أحلام نائم ، فان الخليقة لم تعرف رجلا لفت جيد الزمن ، وشغل أذهان الناس ، وحير ألباب المفكرين ، وتطلعت الدنيا الى ما فيه من خلال نبيلة ، وسجايا حلوة ، وأخلاق عالية ، ووجدان طاهر ، وشعور سام ، وأدب جم ، وسلوك حميد ، قبل أن تعرفك أنت ، وتعرف أنك طبها وعلاجها ، وشفاءها ودواءها ومثلها العليا ، وأهدافها البعيدة . وغايتها التى تحمد عندها السرى ... وكأنما الدراسة التى تناولتك ، والآداب التى تؤخذ عنك . والسلوك الذى ترسمه ، والمنهج الذى بينت خطوطه ، والأخلاق التى ناديت بها ، ودعوت اليها ، كانت هى الدستور الذى كانت البشرية تبحث عنه ، والانسانية ترجو أن تصل اليه ، لينتقل بها الى حالة أفضل .

ومستقبل أكمل ، وغاية أكرم ، وسعادة أعظم ، ومجد أشمل ، وأمن أقرب ، واصلاح أعمق ، وسبيل أوضح ، وعيش أرغد ، ونفع أحسن ، وهناءة أوفر ، وبلهنية أضمن ، حتى لا تظـــل غارقة في الجهالة ممعنة في الطيش ، واغلة في الضلال ، دائبة على الانحراف ، مبالغه في الاقتراف ، ولا سيما فيما يتصل بالعقائد التي كانوا فيها كالبحر المائج ، أو البركان الهائج ، لا هدف لهم يصح الاتجاه اليه ، ولا غاية يمكن أن ينتهوا عندها ، وهم يعبدون الكواكب ، ويؤلهون القوة ، ويعظمون الجماد ، ويخضعون للباطل ، ويعكفون على الأصـــنام • ويسجدون للـوثن • ويتهافتون على النار ، ولا يدينون للحق ، أو يميلون للهداية ، أو يفتحون عيونهم على النور ، أو يوجهون أفئدتهم للصواب ، ولكنهم يحبون الخرافة ، ويعظمـون البهتان ، ويهتمون الاهتمـــام كله بأخـذ الثأر ، ومعاقرة الخمر ، ووأد البنات ، واشباع الشهوات النازلة ، والميول الساقطة ، والطباع المريضة ، والأهواء الحقيرة • وليس لهم ــ حينئذ ــ من المعارف ما يساعدهم على أن تكون لهم حضارة تجعلهم في صفوف الدول الناهضة ، أو الأمم المتوثبة ، أو الشعوب المتطلعة ، أو الجماعات التي تدفعهـــا شهواتهـا الى العمران والرقي ، والتقدم والاصلاح ، أو الجرى وراء الغايات المحمودة ••

وفي الحق لقد كان أجدر بالدهر أن يطأطيء رأسه لك ــ يا رسول الله ــ اجلالا لمـا احتواه تاريخك ، واعجابا بما تضمنته سيرتك ، واكبارا لمـا كان من خلالك ، وتعظيما لمـا كنت عليه من خلق عظيم تجاوز حدود التقدير والاحترام ، والثنـــاء والمديح ، ونحن لا نشك في أن أصحـــاب الدعاوى ، وأرباب المبادىء ، وحملة المشاعل ، وقادة الأمم ، وزعمـــاء الاصـلاح ، في كل زمـان ومكان ، لا يصلون الى أهدافهم ، ولا يبلغون غايتهم ، بذرابة لسانهم ، وقـوة حجتهم ، وسداد رأيهم ، واستقـــامة مناهجهم ، وروعة بيانهم بمقدار ما كان يساعدهم على ذلك كله سلطانهم المرهوب ، وبأسهم المسلط • وقوتهم الرادعة ، ونصرة القرابة والأولياء ، أو المال الذى يغرى بالاقبال والرغبة ، ويساعد على تمكين النفوذ والجاه ••• وأنت لم تنصرك عصبية كانت الى جانبك ، ولم يساعدك مال كان في يدك ولا نفوذ أتيح لك • سوى أن سيرتك كانت قرآنا ، وحياتك كانت برهانا ، ويقينك بالله كان ايمانا ، وثقتك بربك تجاوزت الحدود والسدود ، وقـد استقبلت الانسانية حديثك الطيب ، وأدبك العالى ، وخلالك الكريمة ، وسلوكك العظيم ، استقبالها للأحداث الهامة • والأمور الغريبة ، والمنن العظمى ، والأماني المحبوبة ، والأحـلام السـارة ، والمعجزات الكبرى • وآمنت ــ بسبب ما وجدته فيك من بر ويمن ــ أن لله أسرارا تخفى على الفطن ، وتدق على الأفهـام ، وتتسامى على المنطق ، وتتجـــاوز حـدود

العادات ، وتأبى أن تخضع للمألوف • وهنالك لا يسع الناس الا أن يردوها الى خالق السمـــاوات والأرض • ومدبر هـــذا الكون الواسـع ، والملك الفسيح ••

وفيك ــ يا رسول الله ــ تحكم الفقر ، وتمكن اليتم ، واستبد الجوع والحرمان ، وقد جرت العادة مع الأطفـــال ، الذين تلاحقهم مثـــل تلك الظروف ، وتصادفهم مثل هذه الأحوال ، أو تلعب بهم تلك الاحداث وتهز في كيانهم هذه الأعاصـير ، أن يموت فيهـم النزوع الى المجـد ، والرغبة في الكمال ، والتطلع الى الأهـــداف البعيدة ، والاعراض النبيلة ، والغايات السامية ، الا أنه لم يقل قائل ان همتك كانت واهنة ، ولا ان عزيمتك كانت هزيلة ، ولا ان طموحك كان ميتـــا ، أو ان قناتك لانت لغامز ، أو ان نفسك ذلت لجبار ، أو ان عودك انحنى لمسلط ، أو ان جهادك لاصلاح هذه البشرية قد وقف في منتصف الطريق ، وحولته عن القصد غايات ، أو منعته عن نهايته موانع ••• وفي سلوكك منذ كنت ناعم الاظفار ، غض الاهاب ، جديد الثيـــاب ، صـغير السن • السمت الطيب ، والخلق القويم ، والعقـــل الواعى ، والبصر النافذ ، والـرأى السديد ، والدوق الناضج ، والرجولة المبكرة • والعظمـة التي لا يحيط بها زيف ، ولا يكذبها تمويه ، ولا يشوبهـا رياء ، ولا تغلب عليها صناعة • وكأنما كان ذلك كله ينادى أن مستقبلا ملحوظا ينتظرك ، وأملا باسمـا يترقبك ، ومجدا عظيما سيواتيك ، وجاها عريضا معك على ميعاد ، وأن الارهاص الذى يسبق المعجزة يخطـــو اليك ايذانا بالنهـــاية الكريمة ، والمصير الحميد ، والتاريخ الذى يرويه الآباء للأبناء ••• فلما بلغت مبلغ الرجـــال ، وكنت تقرى الضيف ، وتحمل الكل ، وتنصر الحق ، وتنطق بالصـــدق ، وتعين على المعـــروف ، وتنصف المظلـوم ، وتخفف ويلات المكروبين ، وتمتلىء نفسك الكبيرة بالمعانى النبيلة ، والعواطف السامية ، والأمانى الحلوة ، والنوايا الطيبة • والغرائز المهذبة ، والخلال الكريمة ، والسجايا المحببة • هالهم شأنك ، وبهرهم أمرك ، وعناهم حالك ، وظنوا أن الأيام سوف تتمخض بك ــ لا محالة ــ عن قيصر الروم ، أو كسرى فارس ، أو فرعون مصر ، أو حاكم مستبد من هؤلاء الذين كانوا يسمعون عنهم من الأساطير والكتب ، الا أنك حين جهرت بدينك القويم ، وصراطك المستقيم ، وبيقينك السليم • وايمانك القـــوى • وعقيدتك الصحيحة ، وكشفت بذلك كله عن الحق الواضح ، والسلوك السوى ، والعدل الصراح ، والمنهج الذى لا التواء فيه • ولا غبار عليه ، تضاءل كبرياؤهم • وتهاوى سلطانهم ، وسقطت تيجانهم المكذوبة ، وآمنـــوا أن دنياهم الرخيصـــة لا تساوى قلامة ظفر • ولا تزن عند الله سبحـانه وتعـــالى ــ الى جانب

ما منحك ـ جناح بعوضة ، وكأنما هى غبار يتطاير ، أو سراب يذهب ، أو وهم يخدع ، أو معنى لا ينطلى الا على الأغرار ..

والعجيب الغريب أن تكون ـ أنت ـ مع هذه المكانة التى كنت عليها ، والعظمة التى بوأك الله اياها . والمجد الذى حصلت عليه ، والجاه الذى انتهيت اليه ، متواضعا غاية التواضع ، حليما الى أقصى نهايات الحلم ، حائزا للفضائل ، جامعا للمكارم ، تبذل وتعطى ، وتسخو وتجود ، وتنقذ المتورط فى الشدائد ، أو المشرف على المهالك ، وربما نسيت اساءة المسيء ، وهفوة المخطيء ، وجناية الضال ، وبادرة الأحمق فقابلت الشر بالخير ، والأذى بالصفح ، والذنب بالعفو واللؤم بالكرم ، والتطاول بالاغضاء ، والطيش بالحلم . وكم ناديت فى كل مناسبة ، وأعلنت فى كل صقع . انك بشر تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق ، وأنك من طينة هذا الخلق ، ومن جنس أولئك الآدميين . وقلت « انكم لا تسعون الناس بأرزاقكم وأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » لتعطيهم الأمثال منك ، والقدوة بك ، وحاشا لخلقك ألا يكون الا كذلك ، وما عاب أحد لك صنيعا ، أو ازدرى لك سلوكا ، أو انتقد منك خلة ، وأنت المثال الطيب ، والنموذج الكريم ، والقدوة الصالحة ، والأستاذ المربى والرسول العظيم ، لم تكن جبارا فى الأرض ، ولا عونا على الباطل ، ولا داعيا الى الزور ، ولا قاسيا على الخلق ، وانما كانت دعوتك بالحسنى ، وهدايتك بالرفق ، واصلاحك بالحزم ، وعلاجك بالحكمة ، ونصحك باللين ، وتوجيهك بالمنطق ، وسياستك بالحلم ، ومعاملتك بالأدب ، وحكومتك بالقسطاس ، وغضبك لله ، وغيرتك للحق ، وانحيازك الى جانب الفضيلة ، وجهادك للاصلاح ، وحياتك للخير ، وهدفك أن تعلو كلمة الله .

وهكذا تكون العظمة التى لم يفرضها أصحابها بالباطل ، أو يغتصبها أهلوها بسلطان السيف ، ورهبة الملك ، وحكم القانون . وسيادة القوة وسيطرة التسلط ، وعنف النفوذ ، صلى الله عليك وسلم كلما جرى ذكرك على اللسان ، أو خطر طيفك على الخاطر ، أو مر خيالك على الذهن ، أو ترسم انسان خطاك ، وتلمس مسلم هدايتك . وتتبع نهجك ، فانك سيد ولد آدم ، وخير خلق الله على الاطلاق ، ولا ينكر عليك ذلك كله جاحد ولا يشك فيه عاقل ، ولا يتردد فى الايمان به حصيف ، ولا يمارى فيه مكابر . وهذه الدنيا تردد الثناء عليك ، والاعتراف بك . والتعظيم لقدرك . والتنويه بشأنك ، مرددة قوله جل جلاله « وانك لعلى خلق عظيم » .

محمد

الذى يتتبع القرآن الكريم ، ويتقصى آياته العظمى ، وينعم النظر فيه ينتهى منه الى رصيد ضخم ، وثروة لاحد لها . من الثناء الحلو ، والمديح الطيب ، والتنويه الذى ليس قبله ولا بعده برسول هـذه الانسانية ، وسيد هذا الكون ، حتى لكأنه بلغ قمة الثناء ، وغاية المديح ، ولا مجـال وراء ذلك لزيادة فى الثناء والمديح ، وصارت هذه الكلمة وحدها مجردة عما يقترن بها ، أو يذكر معها ، أو يجىء فى اثرها من الأوصاف والنعوت تشيع فى الجو الذى تحلق فوقه . وتطير فى سمائه ، أو تسبح فى فضائه معنى من السحر . وفيضا من الجلال ، وشيئا من الاكبـار والاحتـرام . لا يمكن لكائن من الناس أن يحدده التحديد الذى يكشف عن حقيقته . فى تلك الموسيقى التى يرسلها ، والأنغام الحلوة التى يبعثها . والبلاغـة الأخاذة التى يطلقها . والجاه العريض الذى يسيطر على الأنحاء والجوانب هنالك فى مكان الحديث . كأنما هو عنوان الجـاه والعظمة ، والكبرياء والتعالى . والسمو والرفعة ، والأبهة والجلال ، لا يزاحمه فيه مسلط ، ولا ينازعه جبار ، ولا يشاركه صاحب نفوذ أو سلطان ، ذلك لأن الذى خلق المتكبرين ، وبرأ الجبارين ، أضفى عليه من جلاله ووقاره ما تذوب معه هذه الأوصاف . وتتهاوى عنده تلك النعوت . وتتطامن لديه هـذه الكبرياء ، ثم تقصر عن الاحاطة بكماله الكلمات ، وتقف موقف العجـز عن التنويه به الألفاظ ، مهما آزرتها البلاغة ، وأيدها المنطق ، أو أسعفها البيان ... ويكفى أن تمر بخاطر الواجم ، أو تجرى على لسان الواهم ، أو تملأ قلب الواعى ، أو ضمير المتحدث ، أو يقع عليها نظر قـارىء فى ثنايا سطور ، أو فى صفحة من كتاب ، حتى يجد أنه تأخذه المهـابة من جميع جهاته . وتصيب جسمه القشعريرة التى تصيبه فى حضرة عظيم

من العظماء الذين تفيض من حولهم الخشية ، وتغمر أمكنتهم العظمة ، وتملأ ساحتهم المهابة ، وترفرف عليهم أجنحة الوقار والاحترام ، من غير تكلف ولا رياء ، وانما هي صنع الله ، الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ومن حبته عناية الله ، وأدركته رحمته ، وحفه لطفه ، وشمله رضاه ، كان حظه موفورا ٠٠٠ وفى تاريخه صلى الله عليه وسلم ما يدل على أن تيجان الملوك ٠ وعروش الجبابرة ، وكبرياء من كانت الدنيا بأيديهم ، والسيوف بأيمانهم ، والسلطان فى حوزتهم ، تتساقط بين يديه ، فلا يجرؤ قوى أن يهدده ، ولا يتطاول عظيم أن ينازله ، ولا يمكن لشرير مهما كانت شراسته أن يهز كيانه ، أو يزلزل بنيانه ، أو يشوب يقينه الذى كان عامرا بربه ، مملوءا بخالقه ، والذى أرسله بالبينات ، وأيده بالمعجزات ، جعله هو فى نفسه خير عنوان لهذه الانسانية فى أخلاقه الكريمة ، وأدبه الجم ٠ وسلوكه القويم ، وخلاله الطيبة ، وذكائه اللماح ، وعبقريته الفذة ٠ وعقله الكبير ، وقلبه الرحيم ، وعطفه الشامل ٠ وحبه الخالص ، ورغبته فى البر ، وحدبه على الناس ، وتفانيه فى الاصلاح ٠ وارتباطه بربه ، وتطلعه الى السماء ٠

وهكذا لم تبلغ لفظة من ألفاظ الأعلام ٠ ولا اسم دل على معنى ، ولا كلمة من الكلمات فى ضخامة جرسها ، ودوى صوتها ، وحلاوة لحنها ، ونباهة شأنها ، وشهرة ذيوعها ، وايمان الخليقة بها بعد لفظ الجلالة ، ما بلغته تلك الكلمة التى يتيمن بها المسلم ، ويعتز بها الموحد ، ويفاخر بها الانسان ، ويشرف بالانتساب اليها كل من تكامل له عقله ، ونضج فيه وعيه ٠ وصح عنده دينه ، وارتقى به ادراكه ، وسما لديه شعوره ، وسلم له بصره وذوقه ٠٠٠ ترددها ألسنة الملايين فى بقاع الأرض ، أو أنحاء هذا الكون ، وأرجاء هذه الدنيا ، تلذذا بذكرها ، وتيمنا بلفظها ، وارتياحا لنغمتها ، وسرورا بخطورها على البال ٠ ومرورها بالذهن ٠٠٠ ولقد عاصرت أحداث التاريخ ٠ وصيحات الدعاة ٠ ونداء المصلحين ٠ وأصوات الزهاد ٠ فكان منها الشعاع الكاشف ، والضياء الهادى ، والنور المبين ، والنهار الذى عرفت فيه البشرية مواضع أقدامها فى سبيل الخير ، وطريق الحق ، ودروب السداد والصواب ، والسلامة والنجاة ، والرشاد والفلاح ، واليمن والبركة ، والحضارة والعلم ٠ والتقدم والعرفان ٠

وربما كان أعجب ما يحيط بهذه الكلمة من معانى الاجلال والتقدير ، والعظمة والاحترام ٠ والسمو ٠ الى ما لا يصل اليه خيال الشعراء ، أن تحاربها الأحداث فلا تنال منها ، وتنازلها الخطوب فلا تنزل بها ، وتطاردها الأهواء فلا تزداد الا صلابة فى الأرض ، وتمكينا فى الحياة ٠ وتطاولا على

الأيام • وتعاليا في الوجود ، وخلودا في التاريخ • ودويا في الآذان • وبقاء في فم الدهر ، ودورانا على ألسنة الناس ••• ولا يعنينا من عنوان هذه الكلمة أن نسترسل بك مع الحوادث ، أو نرجع معك الى ما عساك أن تكون قد حفظته من بطون الكتب ، أو سمعته من أفواه المتحدثين والقصاص ، ولا أن ننتهي الى تاريخ أنت تعرفه حق المعرفة ، وانما يعنينا أن نستشف معا ما تعطيه تلك النفس التي لا يتسع لها هذا الفضاء المحدود ، ولا تلك الأرض المبسوطة • ولا هذه السماء المرفوعة • ولا ذلك الكون الفسيح • وقد حام الفلاسفة حولها بحثا ودرسا ، وتحليلا وتعليلا ، فما وصلوا الى شيء وراء كونها خلاصة هذا الخلق ، وسر هذا الوجود ، ومعنى الانسانية في هذا الانسان الذي أرسلها الله لتقويمه وتهذيبه ، وهدايته وارشاده ، وتكريمه واجلاله ، وتحريره من ذل الأسر ، ورق العبودية وضراوة الاقطاع ، وكابوس الظلم ، وفوضى النظم والدساتير ، لتكون له السيادة في الأرض ، والقيادة للدنيا « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » •

ولعل هذه الجوانب التي كانت فيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ خارقة للعادة • غير جارية على سنن الناس • هي الباعث على دهش كثير من المؤلفين الذين كانوا يخلعون عليه ما يتجاوز حدود البشرية • وهو الذي كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق • معلنا أن له ما لبني آدم من مزايا وخصائص ، وليس من الانصاف له أن يخرج عن طوره ، أو يتجاوز حقيقته « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا » وخير للذين يكتبون عنه أن يؤرخوا له من الحوادث ، وأن يجعلوا معينهم في ذلك سيرته مع أصحابه ، وتواضعه لقومه ، وحبه لأهله ، وحدبه على الضعفاء • وايثاره لغيره ، وقضاءه على الفساد في الأرض ، فان هذه كلها يمكن أن تكون صدى لهمته الكبيرة ، وشخصيته الضخمة ، وسيرته العظمى وضميره النقي ، ودخيلته الطاهرة ، ونحيزته النبيلة ، ورغبته الخالصة من شوائب الفضول والزيف ، والتمويه والكذب • والرياء والنفاق ••• ومثل هذا اللون لا غبار عليه في الدراسة والبحث لأنه يجري على أسلوب علم النفس الانساني في تحليل السجايا والطباع • والميول والغرائز • وستظل الأجيال والعصور تدرس جوانب العظمة في رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ لتأخذ منها نماذج من الخير ، وشواهد من البر • وملامح من مكارم الأخلاق ، لا تجدها الأفكار الواعية ، والعقول الناضجة ، الا في الصفحات الناصعة من تاريخه العظيم •

ولعل الكلمة الجامعة المانعة في تحديد حقيقة هذه الكلمة بين حقائق

الكلمات ، وتمييزها عن غيرهـــا تمييزا تنفرد به عن سواها • ما تحكيه السيدة عائشة رضى الله عنها • وقد سئلت عن أخلاقه ـ صلى الله عليـــه وسلم ـ • فقالت كان خلقه القرآن ، ولا يشك المسلم فى أن القـــرآن احتوى الكمال الانسانى • والأدب الالهى • والخلال الحميدة • ورسم الله سبحانه وتعالى به للبشرية الطريق الواضح • والمنهج الصحيح • والسلوك القويم• للسعادة الحقة التى يمكن أن تصل اليها الانسانية في هذه الدنيا اذا أخذت به ، وعملت بما فيه • وجعلته دستورها في صحوها ونومها ، وظعنها واقامتها ، وصحتها ومرضها ، وكل حال تعتريها • وهكذا كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ المذكرة التفسيرية للقرآن • يطبق دســـتوره ، ويحقق فى نفسه قانونه • فلا يخرج عن هديه • ولا ينحرف عن خطوطه ، ولا يتجاوز دروبه التى جعلهـــا المولى جل جلاله معـالم للخير والشر • والفضيلة والرذيلة • وحسب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن اسمـــه مأخوذ من الحمد الذى هو غاية الإنسان من سعيه ، وخاتمة مطافه فى عمله ، وقصارى جهده اذا أراد أن يعلن شكره لربه ، الذى ترادفت عليه نعمه • وتوالت اليه آلاؤه ، وأحاطت به وســـائل رحمته ورضوانه ، اذ لا يجد سبيلا للاعتراف بهذا الفضل وراء قوله سبحانه « الحمد لله الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » وليس بعد هذا الشرف الذى وصل اليه من ربه ، والفضل الذى حصل عليه من خالقه ، الذى رفعه فى المنزلة ، وأيده بالمعجزة ، واختاره دون سائر عباده • وجعله سيدا على النـــاس ، وأرسله رحمة للعالمين ، واصطفاه من ولد آدم عليه السلام • ليكون لسانه الصادق ، وحجته البالغة ••

نسبه الشريف

كان للأسباب عند العرب تقديرها واحترامها ، اذ كانوا لا يجعلون زمامهم فى يد لصيق ، ولا يتركون قيادهم لدعى • ولا يعولون فى أمورهم على متهم ، ولا يطمئنون الى حكم انسان يجهلون نسبه فيهم ، أو مكانته لديهم • وكان هذا النسب عند الرجل منهم بمثابة الرصيد الذى يستعين به على الوصول الى الغاية التى يطمح اليها • أو المنزلة التى يريد الحصول عليها ، ولا يكفى لنباهة الشأن ، أو تبوء المراكز أو المناصب توقد الذهن • وسرعة الخاطر ، وذلاقة اللسان ، وخصوبة البيان ، وسعة العقل • وبعد النظر ، وما يشبه ذلك مما يضفى على الأشخاص سمات العبقرية ، وأوصاف النبوغ ، ما لم يكن ذلك كله مصحوبا بنسب لا ينكره أحد ، ولا يغطى له انسان ، وهذا هو السر فى أن المؤرخين لسيد الخلق يحرصون الحرص كله أن يتتبعوا نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم بالتقصى والسرد رجلا رجلا حتى لا يتطاول عليه سفيه • أو يجوز حده أحمق • فيلحق بالنبى ذاما • أو يدس عليه عيبا ، أو يشوه فى تاريخه سطرا ، ولا يكتفى المرحوم الشيخ الخضرى أن يذكر آباءه — صلى الله عليه وسلم — دون أن يذكر الأمهات اللائى قد انحدر منهن هذا النسب فيقول « هو محمد ابن عبد الله » من زوجه آمنة بنت وهب الزهرية القرشية بن «عبد المطلب» من زوجه فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية وكان عبد المطلب شيخا معظما فى قريش يصدرون عن رأيه فى مشكلاتهم ، ويقدمونه فى مهماتهم ابن « هاشم » من زوجه سلمى بنت عمرو النجارية المخزومية بن « عبد مناف » من زوجه عاتكه بنت مرة السلمية بن « قصى » من زوجه حبى بنت حليل الخزاعية ، وكان الى قصى فى الجاهلية حجابة البيت ،

وسقاية الحاج ، واطعامه المسمى بالرفادة ، والندوة وهي الشورى لا يتم أمر الا في بيته ، واللواء لا تعقد راية لحرب الا بيده ، ولما أشرف على الموت جعلها في يد أحد أولاده - عبد الدار - ولكن بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على ألا يتركوا بني عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر وكاد الأمر يفضي الى القتال ، لولا أن تدارك الأمر عقلاء الفريقين فأعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة فدامتا فيهم الى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب ثم لبنيه من بعده ، أما الحجابة فبقيت لبني عبد الدار وأقرها لهم الشرع فهي فيهم الى الآن ، وهم بنو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة ابن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار . وأما اللواء فقد دام فيهم حتى أبطله الاسلام وجعله حقا للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحا ، وكذلك الندوة ، وقصي هذا ابن « كلاب » زوجه فاطمة بنت سعد وهي يمانية من أزد شنوءة بن « مرة » من زوجه هند بنت سرير من بني فهد ابن مالك بن « كعب » من زوجه محشية بنت شيبان من بني فهر أيضا بن « لؤي » من زوجه أم كعب مارية بنت كعب من قضاعة بن « غالب » من زوجة أم لؤي عاتكة بنت يخلد من بني النضر بن كنانة بن « فهر » من زوجه أم غالب ليلى بنت الحارث من هذيل . وفهر هو من قريش في قول الأكثرين . وكانت قريش اثنتي عشرة قبيلة - بنو عبد مناف ، وبنو عبد الدار بن قصي ، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي ، وبنو زهرة ابن كلاب ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو تيم بن مرة ، وبنو عدي ابن كعب وبنو سهم بن هصيص بن عمرو بن كعب ، وبنو جمح بن هصيص ابن عمرو بن كعب ، وبنو عامر بن لؤي وبنو تيم بن غالب ، وبنو الحارث بن فهر ، وبنو محارب بن فهر . والمقيمون منهم . بمكة يسمون قريش البطاح . والذين بضواحيها قريش الظواهر - بن مالك من زوجه جندلة بنت عامر من جرهم بن « النضر » من زوجه عاتكة بنت عدوان ابن قيس عيلان بن « كنانة » من زوجه برة بنت مر من بني تميم بن « خزيمة » من زوجه عوانة بنت سعد بن قيس عيلان بن « مدركة » من زوجه سلمى بنت أسلم من قضاعة بن « الياس » من زوجه خندف المضروب بها المثل في الشرف والمنعة بن « مضر » من زوجه الرباب بنت جندة بن معد بن « نزار » من زوجه سودة بنت عك بن « معد » من زوجه معانة بنت جوشم من جرهم بن « عدنان » وبعد أن انتهى الى عدنان هذا ذكر أن ذلك هو النسب المتفق عليه ، وأما ما زاد عليه فلم يصح فيه طريق وان كانوا يجمعون على أنه ينتهي الى اسماعيل عليه السلام . وهو نسب - كما ترى - كله شرف .. آباء طاهرون وأمهات طاهرات . لم يزل عليه الصلاة والسلام ينتقل من أصلاب هؤلاء الآباء وأرحام أولئك الأمهات حتى اختاره الله هاديا ومبشرا ونذيرا . من بيوت سيادة ، وبطون

قيادة ، من جهة الرجال والنساء ٠٠٠ وقد كان ــ صلى الله عليه وسلم ــ يدرك تمام الادراك عناية الله به ٠ وفضله عليه ٠ ورفعته له ٠ فيقول « أن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريش ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » وفي بعض الروايات يجيء منه التعقيب على ذلك بقوله « فأنا خيار من خيار » ٠٠٠ وربما كان في بعض المناسبات يصرح بأنه لم يكن في سلسلة نسبه سفـــاح قط من لدن آدم الى أن ولدته أمه ٠ وهذا معنى من معاني الطهر الذي كان الناس يفاخرون به ، لأن الأنساب على هذا النمط ، والتناسل على هذا النحو ، لم تتوفر لكل انسان ، وانما كان هنـــالك اتصالات جنسية أخـرى ينكرها الذوق ، وتأباها الأخلاق ، وينفر منها الطبع ، وصيانة نسبه عن هذا الدنس ، وخلوه عن تلك المخازي ، كان بمثابة الارهاص الذي يسبق المعجزة ، وان كان اختيار الله جل جلاله للأشخاص ليس بلازم أن تكون له مبرراته « وهو القاهر فوق عباده » الا أن ذلك كان أشبه بالتأييد لرسوله ، حتى لا يكون هنالك اعتراض من متعنت ، ولا انكار من جاحد ، ولا شك من متردد ، مادامت هـــذه من المقاييس التي يعتبرونها ٠ أو الموازين التي يزنون أمورهم بها ٠٠ وعلى الرغم من أن المرأة مجرد وعاء فقط لا أكثر ولا أقل ، وأن كثيرا منهم كان مجدهم مقرونا بالآباء لا الأمهات الا أنهم كانوا في هجاء بعضهم لبعض يتناولون الأمهات ، ويعيرون بها ، لذلك كان طهارة نسبه ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الجهتين معا ، قاطعـــا لألسنتهم أن تتناوله ، ومانعـــا لهم أن يلمزوه ٠٠٠٠ واشتدت خصومتهم له ، ومنازلتهم اياه ، وظلت الحرب الضروس بينهم وبينه زمنا طويلا ٠ كادوا له فيها بكل ألوان الكيد ، وطافوا للبحث عما يؤلمه أو يؤذيه في كل ناحية ، دون أن يتورعوا عن باطل ، أو يكفوا عن فحش ، ولكنهـــم لم يستطيعوا أن يخوضوا في نسبه لأنهم يعلمون علم اليقين أنهم سيرمون بالافتراء ، ويجابهون بالانكار ٠ ويواجهون بالتكذيب ، ولا يجدون من يقرهم على هذا الادعاء ، أو يؤيدهم في ذلك التطاول ٠

واذا كان أقرب الأشخاص الى المـرء في سلسلة نسبـه أباه الذي يقترن به مجده ، وينتهي اليه فخره ، ويناط به حسبه ، فان عبد الله كان في سلسلة هذا كواسطة العقد ، التي يزدان بها ، ويتكامل له شكله ٠ وحسن مظهره ، وتنعته كتب التاريخ بأحسن ما تنعت به الرجل الذي تشرئب اليه الأعناق ٠ ولا تمل من النظر اليه العيون ، ولا تنفر منـــه الطباع ٠ حسن السمت ، مهيب الطلعة ، جم الحياء ، وقور المنظر ، كثير الأدب ، واضـــح الميل والاتجـــاه لا غموض فيه ٠ ولا غبـــار عليه ٠ يحبه من يعرفه ومن لا يعرفه ، ألقى الله عليه معنى من الاجلال والاحترام ٠ لم

يكن للسادة ، ولا للوجوه ، وكان أبوه قد نذر اذا تكامل له من الذكور عشرة أن يذبح أحدهم قربانا للأصنام فلما بلغ عدد أولاده هذا النصاب أجرى القرعة ليخرج له الذبيح منهم وكانت القرعة — فى كل مرة — تصيب عبد الله فلما أخذه ليذبحه للأصنام قامت قيامة قريش ولم يرض أحد أن يكون عبد الله « كبش الفداء » وقاوموا عبد المطلب مقاومة شديدة وأبدوا استعدادهم لأن يذبحوا للآلهة مائة بعير ابقاء على حياته ، وكان هذا تقديرا كريما لعبد الله الذى يحبونه غاية الحب ، ولا يرضون له الا أن يكون زهرة تضوع بينهم بالعطر ، وتخطر بينهم بالحسن ، وقد كان لجمال منظره ، وسحر طلعته ، ترضى كل امرأة أن تكون زوجته ، ومع ذلك لم تستطع أنثى أن تخدعه ، أو أن تملك قلبه ، لعفته وأدبه ، وورعه وحيائه ، ويقولون ان امرأة نصبت له الحبال لتوقعه بها فأبى كل الاباء ، وأنشدها أبياتا من الشعر يسجل فيها حزمه وعزمه ، وكفه وامتناعه ، وأنه لا يمكن أن يكون أسير شهوته ، ثم أنهى هذه الأبيات بقوله ... « أما الحرام فالممات دونه » وهكذا كان كل رجل فى سلسلة نسبه — صلى الله عليه وسلم — يملأ قلوب الناس بمهابته وطهارته ، ونظافة صحيفته ، ونقاء سريرته ، وكمال رجولته ، ليس فيهم شيء من الاسفاف ، ولا معنى من الدنس ، ولا بعض من الريبة . ولا لون من الفضول ، وانما هم الى جانب كونهم يملأون الأماكن التى يتحيزونها ، تلهج الألسنة بالثناء عليهم والحديث عنهم كأنما جعلهم الله منارات للسارين بالليل ، يلتمسون منهم الهداية ، وينشدون عندهم الأمثلة ويرون أن فيهم القدوة الطيبة لنظافة الضمير ، وطهارة العرض . وسلامة القلب ، وعزة النفس ، وحب الخير ، واباء الضيم ، وسمو الروح ، وعدم الاسفاف فى قول أو فعل .

الاعداد الالهى

مهما قيل فى المعجزة الالهية التى يؤيد الله سبحانه وتعالى بهـا أنبياءه وأولياءه فان الرسول الذى أرسله ربه الى خلقه فى حاجة ماسة الى التعامل مع هؤلاء الناس الذين كانت رسالته فيهم ، ودعوته اليهم ، ولابد من أن يكون على بصيرة من سياستهم أو السلوك معهم حتى لا يقع فى العنت ، أو يصطدم بما لم يكن فى حسبانه ، أو يجر بخاطره ، وهنالك لا تسير الأمور على سنن الحيـــاة المألوفة ، أو تخرج عن طوق الداعى واحتماله ، ويتحدث النبى — صلى الله عليه وسلم — الى بعض أصحابه • أنه كان يرعى غنيمات لبعض أهل مكة على أجر يأخذه منه ، ويرد صاحبه عليه كأنما ينكر عليه ذلك ورعيت الغنم يا رسول الله فيقول له نعم ، وما من نبى قبلى الا رعى الغنم ، ويقول الذين فسروا هذا الحديث ان فى رعى الغنم كثيرا من الكياسة فى السلوك ، والسياسة فى الأخلاق ، والاعداد الالهى على الجلد والاحتمال ، والاغضـاء والصـفح ، والحلم والتسامح • واليقظة والانتباه ، وهى معان يحتاج اليها الراعى ، وتكمل بها قيـادة القائد ودعوة الداعى ، وزعامة الزعيم • ويحكى — كذلك — عن حلف الفضول فيقول « لقد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله ابن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت اليـه فى الاســـلام لأجبت » وهو حلف تعاهدت فيه قريش وغيرها من أهل مكة على أن يجندوا أنفسهم للحق والعدل والانصاف وكف الأذى عن الناس وألا يشهد أهل مكة وغيرهم منهم الا البر والمعروف ومنع الظلم والوقوف الى جانب المغلوب •• وكان ذلك فى اثر ثورة طائشة فى داخل مكة بين قريش وقيس كادت تطيح بالأخضر واليابس ، ولما أن تدارك الله الطرفين برحمته وكف كل منهما يده عن ايذاء أخيه وتصالحا رأيا أن يردفا هذا الحلف — بحلف آخر يكون بمثابة ضمان دائم بكف الأذى ، ورفع الظلم ، وانصاف

المغلوب ، وتوفير الأمن والسـلام لمن تقله أرض مكة من أهلها أو غير أهلها • ومما لا شك فيه أن حضوره ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الأحلاف وشبهها من التدريب العملي على الفصـل في القضـايا ، والحكم في الخصومات • والادلاء بالرأى • والاصـلاح بين الناس • وليست مهمة القواد والرواد والمصلحين شيئا وراء ذلك ••• ولعل هذا الاعداد الذى تلقاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبكرا كان من عوامل الارتياح الى حكومته فيما كان يجد من نزاع بين العرب يتولى هو فضه أو الفصل فيه ، كما حدث في الاختلاف الذى كادت ناره تندلع على حمل الحجر الأسود ليوضع في مكانه وكل جماعة كانت تريد أن يكون لها شرف حمله ووضعه ، ثم وضع هو الثوب تحته وقال لهم لتأخذ كل جماعة بطرف من الرداء وبهذا تشنى للكل أن ينال شرف الحمل وأن تهدأ في نفسه حدة غضبه • كل هذا والعرب أنفسهم قد ملوا الصراع الداخلي الذى كان قائما بينهم • والذى كانت ضحاياه تتجدد في كل يوم من سـفك للدماء • وتفريق للكلمة ، وتشتيت للشمل ، وطمع للدول التى تتاخم حدودهم ، أن تتملك زمامهم ، وتستولى عليهم ، وتتحكم في مصيرهم • الروم في الشمال ، والفرس في الشرق • والأحباش في الجنوب • وحين تيقظ فيهم هذا الوعى ، وتنبه فيهم ذلك الشعور • وأدركوا في قرارة نفوسهم أنهم بحاجة شديدة الى قائد روحى يملك ضمائرهم ، ويسوس أفئدتهم • ويحمل بيده المشاعل التى تنير لهم مواضع أقدامهم ليسيروا على محجة واضحة المعالم ، بينة المسالك ، ظاهرة الهداية ، ليطلبوا الخير ، وينشدوا البر • ويعملوا على أن تكون حياتهم محفوفـة بالأمان والاطمئنـان • والسعادة واليمن • هنالك كانت أعناقهم تتطلع الى هذا المنقذ الذى يتولى زمام السفينة وسط هذه الأمواج • وتلك العواصف • عسى أن تنجو من الغرق ، وأن يكتب الله لهم النجاة من هذه المحن التى أحدقت بهم • وتمكنت منهم ، وتغلغلت في صفوفهم ، فأصابتها بالفرقة والكراهيـة ، ويقول الدكتور أحمد ابراهيم الشريف « في هذه البيئة العربية الخالصة ، وفى هذه الظروف المواتية ، ومن بين رجال تلك القبيلة التى تعظمها العرب ، ظهر ذلك المصلح الذى كانت تتطلع اليه النفوس ، ففى مكة ومن قريش ظهـر محمد بن عبد المطلب بن هاشم نبيا يدعو الى رسالة جديدة جوهرها الاقرار بالالوهية لاله واحد ، هو الله الخالق المبدع الذى تنزه عن الشريك والصاحبة والولد « ولم يكن له كفوا أحد » وأن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، والآدميون جميعا أمام الله سواء مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم ومراكزهم الاجتماعية ، وهم لذلك يجب أن يتساووا في الحقوق والمعاملات •

ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذ بعث نبيا كانت له صفاته

الشخصية التى هيأته للاطلاع بدوز الزعيم والنبى - فى آن واحد - واذا قرأنا كتب السيرة القديمة وجدنا هذه المصادر تقدم لهذا الدور بنوع من التفسير لعبقرية الأشخاص ، فهم يوردون أخبارا تدل على اكتسابه أنواعا من الخبرة التى يستفيدها كل انسان من تجاربه ، ثم يوردون أخبارا تدل على أن النبى - صلى الله عليه وسلم - نال من العناية الآلهية ، والفضل الربانى ، والعلم اللدنى ، الذى يلقيه الله فى نفس العبد بدون واسطة كثيرا ، وأن هذه النفحات الالهية أتمت للنبى شخصيته ، وأكملت تجاربه ، ويذكر المؤرخون أنه - صلى الله عليه وسلم - شارك فى الحياة العامة فى مكة منذ طفولته مشاركة كان لها أثر كبير فى حياته ، فقد اشترك فى الحياة السياسية فى حلف الفضول ، وكان هدف هذا الحلف سياسيا لم تألفه القبائل المعتزة بعصبيتها ، هذا الهدف هو نصرة المظلوم ، بصرف النظر عن قرابته وقبيلته ومن قبل ذلك كان قد اشترك الى جانب أعمامه من بنى هاشم وقريش فى حرب الفجار فاكتسب الى جانب خبرته السياسية خبرة حربية ، ثم انه اشترك فى تنظيم القوافل التى كانت تسوقها قريش للتجارة فى الشام ، فسافر مع عمه وهو صبى ، وسافر فى تجارة لخديجة وهو شاب ، كما مارس التجارة فى مالها بعد أن تزوجها ، واستفاد من ذلك كله خبرة فى المعاملات التجارية ، والعلم بطبيعة الانسان علما يساعده على تقدير قيمة الرجال ، كما اكتسب خبرة بالبلاد وأحوال الناس ... ثم انه كان قد اشتغل برعى الغنم حينما كان صبيا ، فأفاده ذلك التواضع ، وتمجيد العمل أيا كان نوعه ، واشتهر بالأمانة حتى سمى بين الناس - قبل البعث - بالأمين ، فكانت له الى جانب تجاربه أخلاقه المرضية التى تحببه الى الناس قبل أن يعارض آراءهم ، وثمة معنى آخر اشتهر به ، ذلك هو القدرة على الحكم ، وسرعة البديهة فى حسم الأمور ، يشهد بهذا حكمه بين أهل مكة حين جددت قريش بناء الكعبة ، واختلفت بطونها على من ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه من البناء ، فأظهر من سرعة الخاطر ، وقوة البديهة ، ما حسم به الموقف ، وأرضى المتنازعين ، كما كشف هذا الموقف عن قيمته فى الحياة الاجتماعية فى مكة ، اذ ارتضاه أهلها حكما ، ونزلوا على ما قضى به ، وقد كان الى جانب تلك الأمور يتيما فقيرا ذا طبيعة دينية على ما يمكن أن يدل عليه اعتزاله للناس واعتكافه بغار حراء مستغرقا فى التفكير والتأمل ، فهو رجل اكتسب صفات على نحو ما يكتسبه الناس جميعا ، وتلقى من الله - جل وعلا - توفيقات يحدث مثلها للناس جميعا ، فالنبى - صلى الله عليه وسلم - بشر ارتفع على ما يرتفع اليه كبار الفلاسفة عن مستوى الناس ، الا أنه كان يرتفع بعقله وقلبه فى آن واحد ، على حين كان يرتفع الفلاسفة بعقولهم لا غير » ويجدر بنا أن نضيف الى ما يقوله الدكتور الشريف شيئا آخر يشبه أن يكون من قبيل

المعجزة وان كانت المعجزة لابد أن تقترن بالتحدى ـ كما يقولون ـ وليس هنالك تحد ، ذلك ما يرويه هو عن نفسه فى بعض الأحاديث فيقول انه وهو يرعى الغنم مع أخيه من الرضاع ـ ابن حليمة السعدية ـ استأذنه فى أن ينفرد برعى الغنم • والاهتمام بها ، والقيام عليها ، الى أن يذهب هو الى بيت قريب كان فيه عرس ليشارك أهله غبطتهم وأفراحهم ، وليمتع خاطره هوناما ، من الوقت بما عســـاه أن يكون هنـــاك من الغناء أو المزمار ، وما هو الا أن وصل الى مكان العرس حتى أخذته سنة من النوم جعلته فى عالم آخر فلم ينتبه الا فى الصباح وقد تفرقت الجموع ، وانفض العرس ، وصار ذلك كله خبرا من الأخبار •• كذلك يقول انه كان يلهو مع جماعة من الأطفال فى سنه ـ حينئذ ـ وكانوا يجمعون فى حجورهم الطوب والحجارة ويقتضيهم ذلك أن يكشفوا عن سيقانهم فلما أراد أن يجاريهم فى ذلك سمع صوتا ينهاه بالكف عن ذلك ويصرخ فى أذنيه ألا يعود الى ذلك أبدا فأشاع ذلك الزجر ـ بهذا الصوت ـ فى نفسه الهلع والفزع ـ وكان منه أن لم يعد الى مثل ذلك ولم تحدثه نفسه أن يعود ، وفى هذين الحادثين ـ على الرغم من حداثة السن ـ ما يدل على أن الاعداد الالهى كان معه خطوة خطوة منذ ولدته أمه ـ وقبل أن تلده أمه ـ واذا نحن أنعمنا النظر فى حياته كلها قلنا انها استمرار على هذا الخط ، وسير على هذا الدرب ، فشق صدره الشريف وهو فى كنف حليمة ثم تكرار ذلك ليلة الاسراء والمعراج ، وموت أبيه ، وموت أمه بعد ذلك ، وكل هذه الشدائد التى كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلاقيها ، ليست كلها الا اعدادا ولقد كانت الحادثة الواحدة من سفاهة السفهاء ، وكيد الأعداء وتطاول الحمقى جديرة وحدها أن تحول وجهه ، وتعوق سيره ، وتصده عن المضى الى الغاية ، لو أنه استسلم وألقى سلاحه لكنه كان يعلم أنه الابتـــلاء الذى تجتازه الأبطـــال ، ويمر به المصـــلحون ، ولا يصادف الا أولى العزم من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ••

يتيم رعاه الله

هل رأيت ذلك اليتيم وقد كست وجهه سحابة من الحزن ، أو غمامة دكناء من الشعور بالذل أو الانكسار ، كأنما قد تقطعت به أسباب الحياة . وتخلت عنه العناية الالهية والعياذ بالله ، فظل جامدا مكانه يود لو أن الكون فغر فاه فابتلعه ، أو نفخ في الفضاء فأطارته أعاصيره • وذهبت به الى حيث لا يعـرف أحـد موضعه ، ليطمئن على أن الدنيا التي يعيش فيها قد انتهت ، وأن الأرض التي تقله قد اختفت ، ولا أمل بعد ذلك كله في نعيم أو نعمة ، ان مرح زملاؤه كما يمرح الأطفال سرورا بالحال ، وابتهاجا بالعيش ، واحساسا بالسعادة ، أو نشـوة بما يتاح لهم من اللذة ، أو جرى في وجوههم دم الطفولة البريئة ، أو ماء الصبا الرقراق ، كان هو — مع ذلك كله — كأنه العود الصغير في البستان الذي جف عنه الماء ، وغاب عنه الغذاء ، وتخلت عنه عناية البستاني ، فسارع اليه الذبول ، وتجاهلته الحياة ، على الرغم من أنه باق في مكانه يحسبه الناس متمكنـا في الأرض يمتص ماءها وغذاءها وهي تلفظـه في الخفـاء ، وتنفصل عنه في صمت ، وتدير ظهرها له في غير ضوضاء ولا جلبة • لتتركه هشيما تذروه الرياح •

ان كنت قد رأيت ذلك اليتيم ففاضت عيناك بالدموع ، وثار قلبك من الحزن والتهب الدم في عروقك أسفا وأسى ، وملأت الحسرة نفسك • وبكيت لتلك الروح الانسانية المعذبة ، يتجهم لها الوجود ، ويقسو عليها المجتمع ، فلا يمسح عبراتها • ويدفع عثراتها ، أو يخفف ويلاتها ، أو يأخذ بيدهـا الى سبيل النجاة من المهـالك • والبعد عن مصادر الأذى والضرر ، والبغض للدنيا ، والنفور من الحياة ، والكراهية للعيش ، فذاك هو اليتيم الذي ينظر اليه العالم من حوله نظرة الازدراء والاحتقار ، ويود

لو أنه لم يكن ، لأنه عالة على الأرض ، وزائدة دودية في جسم البشرية التى هو فرد منها ..

واذا كان لنجاح الانسان فى هذا الميدان الصاخب ، والمعترك المائج ، والفضاء الذى يتصارع فيه على البقاء كل كائن حى ، من الوسائل والاسباب ما يساعده على الوصول الى ما يريد ، والانتهاء الى ما تصبو اليه نفسه ــ مشروعة كانت هذه الأسباب وتلك الوسائل أو غير مشروعة ــ فان انكسار القلب باليتم . وهوان صاحبه على الناس . وانزواءهم عنه ، ونفورهم منه ، لا يجعل هذا النجاح ذا شان ، ولا يضفى عليه بهجة الانتصار ، ولا يلهم صاحبه الارتياح له ، أو السرور به ، أو استقباله باللذة والاغتباط ، والاطمئنان الى أنه نجاح وكفى ، ذلك لأن الجو القاتم الذى يملأ ضمير صاحبه غطى على كل معنى يحس به الا معنى الذل والحزن والألم والانقباض والمنظار الأسود الذى يرى به الكون والناس .... وقد رأينا كثيرا من أولئك الذين فقدوا العائل ، وعدموا الراعى . وفارقهم من كانوا يرأمونهم ، ويحدبون عليهم ، أو يمسحون على رؤوسهم ، كان اليتم حجر عثرة فى طريقهم ، والعقبة الكأداء فى سبيلهم ، فكيف وقد كان محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع اليتم الذى ابتلاه الله به فقيرا من المال الذي هو عصب الحياة ، وشريان هذا الوجود . ومع فقره من المال هكذا ، والشظف الذى كان يقاسيه من الحاجة والحرمان الى حد المضاضة والألم ، لم يكن المجتمع من حوله مهذبا ، ولا البيئة التى هو فيها رحيمة ، والشأن فى المجتمعات أو البيئات أن تكون ملاذا للأفراد ، وظلا ظليلا على الأشخاص الذين يعيشون فى حماها .. ولو أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وجد ممن حوله حنو الرحيم ، وحدب الانسان ، ورقة الآدمى . لكان له من ذلك كله الدواء والعزاء ..

وقد حدث التاريخ أن أباه فارق هذه الحياة بعد حمل أمه به بشهرين اثنين ، وأن أمه قد لحقت به بعد خمس أو ست سنوات من وضعه ، وأن أمه لما أرادت أن تجرى به على سنة العرب الذين كانوا يدفعون بأبنائهم الى المراضع لينشأ الناشىء منهم على الخشونة التى تقتضيها الرجولة ، والاباء الذى يقتضيه النبل . والنجابة التى توصى بها حياة الاغتراب عن الأهل ، لم تجد من ترضى بضمه اليها ، وولت كل امرأة عنه بوجهها » بعد أن عرفن أنه لا أب له من أهل الثراء ، ولا أم له من أرباب الغنى ، وأن المرأة التى تقبل على نفسها أن تأخذه تتقرب به الى الأوثان ، أو ترمى بجهدها الذى تبذله فى وجه الشيطان ، ولقمة العيش لا تشترى بالمعروف ، والحياة لا تستقيم الا لمن يدفع لها الثمن غاليا من المال .. ولولا أن حليمة صادفها الجد العاثر ، والفأل الغادر ، ما قبلت على نفسها أن تأخذه ، لتعود الى رحلها بصفقة المغبون .. اللهم الا أن تكون قد أرادت أن تعود

بشيء وكفي ، لتدفع عنها تهمة الخيبة . وشبهة شؤم الطالع .. ويروى ابن اسحق أنها قالت « قدمت مكة فى نسوة من بنى سعد بن بكر نلتمس الرضعاء فى سنة شهباء ، على أتان لى ، ومعى صبى لنا ، فقدمنا ، فو الله ما علمت منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتأباه اذا قيل انه يتيم من الأب ، وذلك أنا كنا انما نرجو المعروف من أب الصبى .. فكنا نقول يتيم ، ما عسى أن تصنع أمه وجده ، فكنا نكرهه لذلك ، فوالله ما بقى من صواحبى امرأة الا أخذت رضيعا غيرى - فانى لم آخذ - فلما لم أجد سواه قلت لزوجى « الحارث بن عبد العزى » والله انى لأكره أن ارجع من بين صواحبى ليس معى رضيع .. لأنطلقن الى ذلك اليتيم فلآخذنه ، قال لا عليك أن تفعلى عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة فذهبت ثم أخذته بما هو عليه الى أن جئت رحلى ، فأقبل عليه ثدياى بما شاء الله من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب أخوه حتى روى . فودع النساء بعضهن بعضا . وودعت أنا أم النبى ، ثم ركبت أتانى وأخذت محمدا بين يدى . ثم مشت أتانى حتى سبقت دواب الذين كانوا معى . وصاروا يتعجبون منى ، وقدمنا منازل بنى سعد ولا أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها . فكانت غنمى تروح على حين قدمنابه شباعا فنحلب ونشرب » وتروى كتب السير أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - ظل عند حليمة حتى فطمته عن ثديها بعد حولين كاملين . وكان قد مشى وحده ، وأكل وحده ، ونام وحده ، ولبس ثيابه وحده ، وكان المفروض فى أمثاله من الأطفال أن يلحقوا بذويهم من الرجال والنساء ليجدوا هنالك من رعاية الوالد ، وحنان الأم ، ما لا يمكن بحال من الأحوال أن يجدوه الا منهما ، وفى جوارهما ، وتلفت الطفل ليجد رعاية الوالد . وحنان الأم فلم يجد ، وبقى عند حليمة التى كانت بدورها قد طلبت من آمنة بنت وهب أن يبقى محمد عندها لأن خيرها قد اقترن به ، وخصب مرعاها قد جاء معه ، ولبن غنمها قد در على مقدمه ، وما لبثت أن استجابت أمه حتى دعى داع آخر أن تفكر حليمة فى أن يكون محمد فى جوار أمه لأنه مهدد اذا بقى عندها بالاغتيال والقتل وهى لا تحتمل أن ترعى طفلا يطارده أعداؤه ، ويتربص به خصومه . وهى المسئولة عن دمه أمام أهله وذوى قرابته ، وكانت حادثة شق صدره - صلى الله عليه وسلم - قد حدثت وأثارت رعبه ورعب ابن حليمة الذى ذهب الى أمه ليقص عليها خبر أخيه القرشى ، ولم يدر بذهنها - ولا ذهن أحد - أن ذلك هو جبريل ، ولم تقرأ فى قواميس علمها شيئا اسمه جبريل ، وانما امتلأت يقينا أن محمدا يتهدده الخطر ولابد أن تبرأ ذمتها منه ، لذلك لم تجد مخلصا وراء رده الى أمه - ثانيا - والتحلل من تلك الأمانة الثقيلة التى تتحملها ، ولم يمض الطفل بعد رجوعه لأمه فى هذا الوقت أكثر من عامين حتى وجد أن أمه قد اختارت جوارا آخر غير جواره

وجوار الناس أجمعين • ولم يكن هنالك بد من أن يترامى الى أحضان الشيخ « عبد المطلب » وكان هذا الطفل عند جده أحب الناس اليه ، يرأمه ويعطف عليه ، ويوفر له أسباب الراحة ، وألوان السعادة ، ويملأ قلبه دائما بالرضا والارتياح ، ومع ذلك كله كان اليتيم الفقير يشعر بشيء من الفراغ الواسع الذى تخلف عن فقد أبيه وأمه ••• وعلى الرغم من الانكسار الذى كان يلازمه ، والهوان الذى كان يلاحقه ، ما ذلت نفسه ، ولا انخفضت رأسه ، بل كان دائما أبدا يشعر أنه يعيش فى غير دنيا الناس • ويحيا فى عالم غير هذا العالم الذى لا ترتفع درجات الناس فيه الا بالمادة الحقيرة • والحطام الفانى ، والعرض الزائل ، وما رآه راه من زملائه وأقرانه الا حمله ترفعه عن السفاسف ، وبعده عن الدنايا أن يحترمه احتراما يليق بأمثاله الذين يتعشقون المجد ، ويطلبون السؤدد •• وسبب ذلك يرجع الى أنه لم يتدنس بدنس الجاهلية ، أو ينزل الى مستوى السوقة والدهماء • وكأنما كان ينظر من عالم الغيب الى الموقف الذى سيقفه من مقاومة الخرافات ، وتلك الحرب الشعواء التى سيعلنها صارخة على هذه الخزعبلات ، فكان سلوكه القويم الذى يسلكه ، ومعاملته الحسنى التى يعامل بها من كان حوله على طراز من الأدب ، ومثال من الكمال ، ونمط من الذوق ، يعتبرونه فيما بينهم عنوانا صحيحا للرقى الأخلاقى ، والنضوج الانسانى ••• وفى هذا كله دليل على حفظ الله له ، واهتمامه به ، ورعايته اياه ، وكونه كان يجعل منه المثال الذى يقاس عليه • والنموذج الذى تنشده الحياة ••• أما تلك العظمة التى كانت تسيطر عليه • وتملأ جوانحه ، وتزحم قلبه ، وتفيض بها وجداناته وعواطفه فانها تظهر فى كثير من طباعه التى كانت تحكمه والتى كانت لا تزده موارد الصغار ولا تنزل به الى حدود الاسفاف ، أو تنحدر به الى مستوى الدهماء ، ولقد كان لجده عبد المطلب بساط لا يجلس عليه غيره ، ولا يقتعده أحد سواه ، وهو تقليد متوارث عند العرب أخذوه عن الآباء والأجداد ، فان تعدى انسان على ذلك التقليد اعتبروه متمردا على الأوضاع ، خارجا على الحدود ، وقد حكوا أن محمدا فى طفولته تعدى على هذا التقليد • وتمرد على هذه السنة ، وتجاوز تلك العادة ، وسارع الى مكان جده ليسبقه اليه • فلماهم بعض الحاضرين من أعمامه وذوى قرابته أن يرده عنه ، أو يوبخه على صنيعه • قال له عبد المطلب دعه فان دم السيادة يجرى فى عروقه ، وروح المجد تملأ نفسه ، والنزوع للرفعة ، والطموح للسؤدد ، هو الذى يشغل باله • ويضنى فؤاده • وكان الذى جعل عبد المطلب يؤمن بذلك • ويعتقده اعتقادا جارفا أنه رأى فى منامه رؤيا فسرها له العارفون بتأويل الأحلام أن رجلا من صلبه تدين له العرب بالطاعة • وتعترف له بالفضل • وتذعن له بالسيادة ، وتؤمن له بالسلطان ، وتتداوى دعوته لهم فى أرجاء الدنيا ••• وكذلك كان يفعل

الطفل مع عمه أبي طالب بعد أن انتقلت اليه كفالته اياه ، ورعايته له ٠ وهي روح ان دلت على شيء فهي انما تدل على أن تلك الروح العالية كانت تسبق الزمن ٠ وتستعد للمستقبل ، وترعاها عناية خفية عن أنظار البيئة التي يعيش فيها ٠٠ وربما خطر بذهن سائل أن يسأل لماذا اختارت الارادة الالهية هـذا المخلوق الذي طحنته الحوادث وعركته الخطوب ، ولوعته صروف الزمن ، ونشأ تلك النشأة المليئة بالأهوال ٠ الممتزجة بالشدائد ، وهو سؤال يعرف الجواب عليـــه من يدرك أن الله سبحانه وتعالى لم يشـأ الا أن يكون رسوله الذي يرسل به الى الناس كافة قد شرب من الكأس المترعة لتنطبع نفسه على الرحمة ، وتمتزج جوارحـه بالعطف ، وتألف طباعه الحدب على الضعفاء والمساكين ، ويتسع صدره لما عسى أن يصادفه بعد ذلك من محن ، أو يلاقيه من عنت ، أو يواجهه من مصاعب ومتاعب ، وهكذا ينشأ الأبطال والعظماء ، ويحيا حياة القسوة من يريد أن تنقاد له الحوادث ، وتخضع له الظروف ، وتذل له الأيام والليالي ٠٠ وتدلنا تلك الأساليب الربانية على أن الأب والأم جميعا لم تكن الا أسبابا ظاهرية للعناية والاهتمام ، والرعاية والتربية ، والتهذيب والتقويم ، والصيانة والحفظ ، والارشاد والنصح ٠ ولو شاء لجعل أسبابا غيرها تؤدي عملها ، وتقوم بدورها ، وتنهض بوظائفها ، تباركت آلاؤه ، وجلت نعمه ، وعظمت قدرته ، لا نحصي ثناءنا عليه ، ولا نعلم أسراره في خلقه ، ولا نفقه سياسته في ملكه ، ولا نعقل من قضائه وقدره الا ما يكشفه لنا النظر الكليل ، والتفكير الواهي ، وننتهي بعد هذا المطاف الى الايمان العميق ٠ والتسليم المطلق ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، ونقف أمام عناية الله بأنبيائه وأوليائه موقف الذي يسبح بحمده ، ويؤمن به ، ولا يستعظم على قدرته التي تخرق العادات ، وتتجاوز السدود والحدود ، أن تفعل ما يذهل الناس ، ويخرج عن طوقهم ، ويتأبى على استطاعتهم ٠ لتكون له وحده الألوهية التي لا شك فيها ، والربوبية التي ينفرد بها ٠ والجلالة التي لا يزاحمه شريك عليها « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » وهكذا تكون عقيدة المسلم في ربه الذي خلقه من طين ، وجعل له السيادة في الأرض ٠

عصاميته

كان من أدبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى كان يؤدب به أمته ٠ وهديه الذى كان يهدى به الناس ٠ ألا يكون الرجل عالة على غيره ، يعيش على حسابه ، أو يرتبط مصيره به ، أو يقعد ليعمل له سواه ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وكان مما يتحدث به عن الأنبياء ، والمرسلين الذين تقدموه فى الدعوة ، وسبقوه بالرسـالة ، أنهم كانوا يحصلون أرزاقهم بأنفسهم ، ويأكلون من عمل أيديهم ٠ حتى لا يطوقهم أحـد بفضل ، أو يدينهم بمعروف ، أو يقتضيهم ما أسدى اليهم من بر وخير ٠ ولهذا لم يعرف عنه منذ كان طفلا ولا شابا ولا رجلا أنه استراح لصدقة تدفع اليه ، أو معونة يبذلها له باذل ، وروى أنه كان يأخذ الهدية دون الصدقة ٠٠ وظل حياته كلها قبل البعثة يعمل بالأجر فى رعى الغنم تارة ، وفى التجارة تارة أخرى ، ليأكل من كـده ، ويرزق من جده ، فلا يكون عنوانا سيئا للمتواكلين الذين يشيعون الكسل والقعـود عن طلب الرزق ، واصابة المجتمعات بأمراض الاسترخاء ٠٠ ويقول الشيخ الخضرى « ولما بلغ مبلغـا يمكنه معه أن يعمل عملا كان يرعى الغنم مع اخوته من الرضاع فى البادية ، وكذلك لما رجع الى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريط ـ كما ذكر البخارى فى صحيحه ـ ووجود الأنبياء فى حال التجرد عن الدنيا ومشاغلها أمر لابد منه لأنهم لو وجدوا أغنياء لألهتهم الدنيا وشغلوا بها عن السعادة الأبدية ـ التى نصبهم الله جل جلاله لها ـ ولذلك نـرى جميع الشرائع الالهيـة متفقة على استحسان الزهد فيها ، والتباعد عنها ، وحال الأنبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك ، فقد كان عيسى عليه السلام أزهد الناس فى الدنيا ، وكذلك كان موسى وابراهيم ، وكانت حالهم فى صغرهم ليست ذات سعة بل كلهم سواء

وتلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ليكونوا نموذجا فى الامتناع عن التكالب على الدنيا والتهافت عليها .

ولما شب ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتاجر وكان شريكه السائب ابن أبى السائب ، وذهب بالتجارة لخديجة رضى الله عنها ـ الى الشام على جعل يأخذه ، ولما شرفت بزواجه وكانت ذات يسار عمل فى مالها وكان يأكل من نتيجة عمله » .. وكان وهو فى كفالة عمه أبى طالب بعد أن أحس من نفسه بالقدرة على مزاولة البيع والشراء ـ فى التاسعة من عمره ـ يتعلق به ، ويلح عليه ، ليأخذه معه الى الشام وهو ذاهب اليها للتجارة ، وكان عمه يستقبل منه تلك الرغبة بالارتيـاح ، ويقابلها بالقبول ، ويأخذها منه قضية مسلمة ، وبخاصة بعد أن أحس منه أنه انما يفعل ذلك فرارا من التواكل . وهربا من أن ينبت لحمه من احسان غيره اليه ، أو تفضله عليه وهو الأمر الذى يتنافى مع الاباء العربى . والكرامـة الانسانية .. وأول مرة تعلق به هذا التعلق كانت تلك التى استقبله فيهـا « بحيرا الراهب » وحذره من اليهود . وأفهمه أنهم يطلبون دمه ان ظفروا به ، لأن فى كتبهم نعته . وفى شريعتهم تحديد مصيرهم الذى يترقبهم على يديه . وهم لهذا يجدون فى قتله ليقطعوا عليه الرسالة ، ويخلصوا أنفسهم من شر يدبر لهم . وكأنما كانوا يكررون مأساة فرعون مع أطفـال مصر حتى لا تتحقق نبوءة الكهنة الذين أخبروه بزوال ملكه على يد غلام يولد فى هذا الوادى . وحينئذ أمر بقتل كل مولود ذكر ، وأن كان ذلك كله لم يحل دون قضاء الله وقدره . فقد زال ملكه على يد موسى الذى تربى فى ملكه بعنايتـه واهتمامه . ورعايته وصونه واجلاله واحترامه ، وحدبه وعطفه .

ولم يزل ـ صلى الله عليه وسلم ـ على هذا الخلق . يعمل لأصحاب رؤوس الأموال بين مكة والشام . وهو فى هذه الآونة الرجل العظيم ، والانسان الكريم ، يتسابقون الى طلبه ، ويتنافسون فى وده ، ويزاحم بعضهم بعضا على الدنو منه ، والارتباط به ، لأن الأمانة التى تحلى بها . والصـدق الذى غلب عليه . والخبرة التى اكتسبها ، والبصر الذى كان له . والخلال الطيبة التى برزت فيه . كانت العامل الأول فى اعجابهم به ، واكبارهم له ، وحديثهم عنه ، فجعلوا يعتبرون الظفر به مغنما عظيما .

والسيدة خديجة لم تكن من دهماء الناس . ولا عامة الشعب ، لأنها من أشراف قريش ، وأغنياء العرب . وكثير من وجوه مكة كان يتمنى أن يطلب يدها ، ويخطب ودها ، وكانت هى تقـابل ذلك بالاباء ، وتدفعه بالامتناع والصلف . والتعالى والكبرياء ، لأنها لا ترى أحدا من هؤلاء جميعا يكافىء فضلها ونبلها ومجدها وطهارة عرضها .. الا أنها لم تملك أمام ذلك الخلق العظيم والأدب الجم ، والرأى السديد ، والفكر

الواعى ، والعقل الكبير ، والقلب النقى ، والأمانة النادرة ، والرجولة التامة ، والكياسة الحازمة ، الا أن تعرض نفسها عليه لأنها — مع أعجابها به ، وحبها له — لم تجد له مثيلا بين ذويها وعشيرتها ، وليس هذا كله لما بينها وبينه من فارق السن — اذ كانت فى الأربعين وهو فى الخامسة والعشرين — ولكن لهذه المعانى من النبل ، والسجايا العظيمة من الأخلاق ٠٠ على أنه — صلى الله عليه وسلم — لم يعرف عنه أنه وقد أسلمت له خديجة زمامها ٠ وملكته قيادها ، وجعلت فى يده هذا المال ، أنه كان مستغلا لنفوذه ، أو مغتصبا لحق لا يملكه ، بل كانت يده دائما أبدا فى هذا المال يد الأمين ، ونفوذه نفوذ الوكيل ، وتصرفه تصرف العامل ، فلم يظهر عليه بذخ ولم يبد منه سرف ، ولم يخطر يوما ما فى شكل الأعيان والوجوه ، وقد أرسله الله رسولا الى هذه البشرية ، وفتحت له الدنيا ، فلم يخدعه منها زخرف ، ولم يفتنه جاه ، ولم يطغه سلطان ، وهذه عائشة رضى الله عنها تحكى لنا هذا الخلق ، وتسجل هذا الطبع ، وتصف لنا فيه ذات الزهد ، اذ تقول « ما شبع آل محمد — صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعا حتى قبض » ٠٠

ولعلك بعد هذا السرد الذى عرضناه عليك من ألوان حياته قبل أن يبعث الله به رسولا الى الناس تدرك أنه كان يأبى كل الإباء أن يكون كلا على أحد ، أو عالة على انسان ، وتلك هى التى يسميها علماء الأخلاق « العصامية » ويصفون بها أولئك الأفذاذ ممن كانوا لا يطأطئون رؤوسهم ، ولا يذلون نفوسهم ، لأنهم لا يمدون أيديهم ، ولا يعيشون تحت رحمة غيرهم ، يأكلون من فضلات طعامهم ٠ أو فتات موائدهم ٠٠٠ وكأنما كانت ارادته سبحانه أن ينشأ يتيما فقيرا لتكون هذه العصامية أبرز خلاله ، وأوضح صفاته ٠ وأميز خصائصه ، وليكون ذلك امتحانا لرجولته ، وتربية له ٠ واعدادا لهذا المستقبل الحافل الذى كان ينتظره ٠ والمهمة العظمى التى كانت تترقبه ٠٠٠ والذى يقرأ تاريخه الرائع ، ومواقفه الخالدة ، وثباته العجيب ، وبطولته الفذة ، وجهاده الذى دوخ الكفر ، وهزم الشرك ، ونكس راية الباطل ، وجعل خصومه يرمون بسلاحهم فى الأرض ، يؤمن أن ذلك كله لم يكن الا لانسان علمته التجارب ، وربته الحوادث ، وامتحنته الخطوب ، وعركته الشدائد ، وتعاهدته الأيام ، والليالى ، وهكذا كان العصاميون الذين تحدث عنهم التاريخ ٠ ومجدتهم الأجيال ، وأحنت الرؤوس لهم الأوطان والشعوب ٠٠٠

وفى جزيرة العرب كانت موارد الرزق جافة ، وأبواب الكسب جامدة ، وسبل العيش محدودة ، وطرق السعى لتحصيل الأقوات لا تتجاوز رعى الغنم أو الابل ، وشيئا قليلا من الزراعة فى بعض الجهات ، وكان ذلك من البواعث للمتعطلين هنالك أن يحترفوا قطع الطرق ، والسطو على

القبائل ، واغتصاب الأموال ، ونهب المتاع • ولهذا ظهر الشطار ، وكثرت اللصوصية • وانتهاب الأقوياء ما بأيدى الضعفاء ، وكان آخر الروايات التمثيلية على خشبة المسرح هنالك ما كان يعرف عنهم باسم الصعلكة وهى حياة تقوم على البطالة من العمل والخلو من الحرفة ، والقعود عن السعى على المعاش ، والاكتفاء من ذلك كله ، أو الاستعاضة منه ، والاستغناء عنه ، بقطع الطريق على المارة ، وأخذ ما كان فى أيدى الناس • اعتمادا على قوة العضلات • وحمل السلاح ، واشاعة الذعر والخوف ، وكان على هذه الشاكلة الشنفرى صاحب « لامية العرب » وعروة بن الورد والسليك بن السلكة وغيرهم ممن كانوا يحملون فى قومهم وذويهم هذا اللقب « الصعاليك » •• ولم يكن ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبغض أحدا مثل بغضه لهم لأنهم عنوان الخمول ، وصورة مزرية للبطالة ، ولون كريه من ألوان القعود عن طلب الرزق ، وعلى الرغم من كون دينه يحث على الصدقة ، ويأمر بالبذل ، ويطلب الاحسان الى الفقراء والمساكين ، كان يرى أن هذه أوساخ يجب أن يتعفف عنها المسلم ، ويترفع عن أخذها المؤمن • ويفر منها كل ذى همة عالية ، ونفس حرة كريمة ، وخير للرجل أن يأخذ حبله الى الجبل ليحتطب فيبيع حتى لا يسأل الناس أعطوه أم منعوه ويناديه ألا يكون طلبه الا من الله • ولا افتقاره الا الى الله ، ولا اعتماده الا على الله • وألا يكون ركوعه وسجوده وقيامه وعبادته موجهة الا لخالق السماوات والأرض ، وهذه كلها تحتم على المسلم أن يكون كريما على نفسه وعلى الناس • فلا يمتهن آدميته بسؤال ، ولا يستذلها بحاجة ، ولا يهينها بطلب ، ولا ينزل بها بضراعة ، ولا يبتذلها بشره أو حرص ، ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ليرسم للناس الحياة الكريمة التى لا تكون حاجة البطن فيها عنوانا على الخضوع والذل ، والصغار والهوان ، لأن ذلك يتنافى مع الآدمية العزيزة ••

اعتكافه

في كتب السيرة شبه اجماع على أنه صلى الله عليه وسلم ـ كان قبل أن ينزل عليه جبريل بالوحي من عند الله ، ميالا الى الخلوة ، محبا للعزلة ، عيوفا لتلك المجتمعات الصاخبة ، والمجالس العامة ، والأندية التي ينتابها القول والفعل في شئون الناس ، وسياسة الأفراد ، يميل بطبعه الى العزلة ، والانقطاع عن مزدحم الحيـــاة ، لا يحب الصخب ، ولا يألف الضوضاء ، ولا يستريح الى الأمكنة التي تصطك فيها الأقدام ، وتتلاقى فيها المناكب ، ويشتبه فيها الحابل بالنابل ، ويعلو الضجيج والعجيج ، أو يكثر الهذر واللغو ، فلما تكامل وعيه ، وتناهى تفكيره ، ونضج عقله ، وقوى شعوره بالكون وخالقه ، والحياة ونظامها ، والعالم وما فيه من حيوان وانسان ، وكان قد عرف شيئا عن ملة أبيه ابراهيم عليه السلام فصارت العبادة همه ، والانقطاع الى الله جل جلاله شغله ، والنقمة على الأوضاع الفاسدة ، والخلال النازلة ، والطبـــاع المسفة ، والعادات المرذولة ، والروابط المفككة ، والقلوب المريضـــة ، والعقـــائد المدخولة ، والخرافات المتحكمة ، والعبادات الموضوعة ، والعقول الضالة ، والحقوق المضيعة ، والحريات الموءودة ، والدماء المراقة ، وغطيط البشرية في نومها دون أن يثور أحد على تلك التقاليد البالية ، والوثنية الضاربة ، والكرامة المهدرة ، والانسانيـــة المعذبة ، والآدمية التي تفتقد الحق ، وتنشد الانصاف ، هي كل ما يقلق باله ، ويتعب خاطره ، ويحمله على التفرغ للعبادة ، والاعتزال للناس ، والاعتكاف في غار حراء الليـــالي ذوات العدد ، بعيدا عن البشرية ، نائيا عن العمران ، غائبا عن وجوه الخلق ، منقطعا عن صراع العيش ، وزحام المطامع ، وتلاقي الأهواء ، وشره الحياة ، ونفاق القلوب ، وحقد النفوس ، وكأنما كان هذا الاعتكاف عن الناس ، والفرار من العالم ، والاتصال بالخالق ، والخلوة في الغار ،

والهرب من الكون • والسخط على هذه الأوضاع ، لا للانسلاخ منها ، والبعد عنها والانقطاع كل الانقطاع عن أسبابها ، وعدم الوقوف ببابها ، وانما كان للاندماج فيها والاقتراب منها • والاحساس بها ، والألم لها • والرجاء الحار أن يهيىء الله لها من أمرها رشدا • وينقذها من تلك الضلالة التى كانت ممعنة فيها ، جارية عليها ، مرتبطة بها ، لا تفارقها أو تتخلى عنهـا •••

أما حقيقة هذه الشريعة التى كان يتعبد بها ، أو يعبد الله سبحانه وتعـالى على نسقهـا • فمما يدخل فى باب الحدس والتخمين ، والظن والاجتهاد ، لأننا لم نعرف عنها أكثر من كونها شريعـة ــ ككل شرائع السماء ــ تضمنت هديا واعيا • ونصحا ساميا ، وارشادا قويما ، وأن القرآن الكريم وصفها بكونها « دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا » •• واليهود كانوا يزعمون أنها صورة مكرورة للتوراة ، والنصارى ــ كذلك ــ كانوا يزعمون مثل هذا الزعم ولقد بالغ هؤلاء ، وهؤلاء فى أن ابراهيم عليه السلام ــ كان على تلك الملة التى كانوا عليها ، ترويجا لدينهم الذى مسخوه بالعبث ، وغيروه بالهوى • وبدلوه بالبهتان ، وحرفوه بالباطل ، وألحقوا به ما ليس منه ، وأدخلوا فيه ما هو أجنبى عنه ، وفضح كتاب الله سبحانه وتعـالى دعاواهم المزورة وافتراءاتهم الكاذبة ، حيث يقول « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » وشريعة السـماء على كل حال تهـذيب وتأديب ، وهداية وتقويم • ونور وضياء ، وارشاد واصلاح • ولا يمكن الا أن تكون علاجا للبشرية ، ونهوضا بهذه الانسانية ، وفى هذا الظلام الدامس الذى كان يخيم على الأفئدة ويطمس معالم الحق • كان ــ صلى الله عليه وسلم ــ ميالا الى البعد عن الناس • واعتزال مجالسهم • محبا للوحدة والانفراد ، رجاء أن يكون ذلك الصفاء • وتلك الروحانية ، وسيلته الى ربه الذى امتلأ قلبه به ، ويقينه منه • وأمله فيه • وحبه له ، وتطلعه اليه • وهنالك تحول هربه من الناس ، وفراره من صخب الحياة ، وبعده عن ضوضاء الدهماء ، واعتزاله لأمكنة اللهو • ومجالس الزور والبهتان ، الى تفكير عميق فى انقاذ الانسانية الحيرى ، والبشرية الضالة ، والآدمية المعذبة • فتطلع ببصره الى السماء أملا فى قبس ترسله ، أو نور تبعث به أو ضياء يكشف له معالم الطريق • وساقته قدماه الى مكان عال يجعله مع الكواكب فى ارتفاعها • والنجوم فى أبراجها • فكان فى غار حراء يغذى فكره بالعزلة ، وينمى حسه بالخلوة ويرقق شعوره بالاعتكاف ، وطابت له هذه الاقامة • ولذت له تلك العبادة ، ورأى أن هذا العالم الروحى الذى تفتح له قلبه • وانشرح به صدره • وطاف فيه خياله • وحلق فيـه شعوره ، لم تكن لتعدله لذة ، أو تساويه حياة •• ولذلك صار كلما فرغ

زاده ذهب الى أهله ليتزود مرة أخرى وأخرى ، ليواصل المسيرة . ويداوم العبادة ، وكانت هذه الفترة من عمر محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى جانب كونها رصيدا ضخما امتلأ به يقينه . وأقبلت به نفسه وجوارحه على الله جل وعلا . مما ساعده على أن يهزأ بالحوادث ، ويستهين بالأيام والليالي ، وينفض يديه من الدنيا ، ويرتبط بالملأ الأعلى كل الارتباط في هواجسه وأحلامه . ونومه وصحوه ، وحركته وسكونه ، وصحته ومرضه ، ثم كانت له بعد ذلك كله متعة لا تعد لها متعة ، ولذلك يقول في بعض أحاديثه « وجعلت قرة عيني في الصلاة » لأنها صلة بينه وبينه ــ سبحانه ــ حيث يناجيه ويناغيه . ويبثه لواعجه وأشواقه ، ويطلب منه الرضوان ، ويعلن اليه الطاعة . ولم تكن تلك الصلاة وحدها هي تلك الفرصة التي يرضي المولى فيها خواطره . ويطمئن فؤاده ، ويحقق أمانيه . من ذلك الارتباط الذي ينشده . والتعلق الذي يبغيه ، بل شرع له الصوم الذي هو امساك عن الأكل والشرب والجماع واللذة ، وفيه يتجلى كبح النفس بالطاعة ، وكفها بالحرمان ، وتهذيبها بالرياضة . وتأديبها بالجوع ، وهو ــ كما ترى ــ سمو بالروح ، وترفع عن المادة . وبعد عن الخلق ، واتصال بالخالق ، لا يقل عن ذلك الذي يجيء من طريق الخلوة . وينشأ عن الانقطاع عن الناس ، والتجرد من الدنيا ، والزهد فيها ، والفرار منها .. وكانت الشريعة في جملتها عناية بالروح . وتطهيرا للقلب ، وتزكية للنفس . وتربية ، للجوارح ، وكانت النية في العبادات وهي معنى وجداني بحت شرطا في صحتها . وعاملا مهما في قبولها ، ويحاسب الله الناس عليها يوم القيامة كما يحاسب على الأعمال سواء بسواء . فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه .. بل ان في هذه الشريعة كثيرا من المعاني التي ترضي نزوعه ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى الخلوة ، وميله الى التأمل في صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه ، وحثا صــــارخا على النظر في النجوم والكواكب ، والصــحاري والبحار ، والليل والنهار ، والاعتبار باختلاف الألوان والألسنة ، والحظوظ والأرزاق . والصحة والمرض . والشقاوة والسعادة ، وهي سياحة طويلة في ملكوته ، وسفر مترام في كونه ، ونظر دقيق في مدى قدرته ليكون وراء ذلك كله التسليم له . والايمان به ، والاتجاه اليه ، والخوف منه . وقصر العبادة عليه وحده لا شريك له « له الملك وله الحمد » .

ومن شعائر هذا الدين الاعتكاف في المساجد ، وفي السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة حيث لا ظل الا ظله ــ كما جاء في حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ رجل تعلق قلبه بالمساجد لا يغادرها الا على نية العودة اليها . وكان صلى الله عليه وسلم اذا دخل في العشر

الأواخر من رمضان شمر عن ساقيه ، واعتزل أهله ، واعتكف فى المساجد ٠ والاعتكاف وحده انقطاع الى الله وتفرغ له ، وارتباط به ، وتفكير فيه ٠ وهجرة اليه ، وذلك من غير شك لا يختص بمكان دون آخر لكنه قد صح عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أن المساجد بيوت الله ٠ وقد جرت العادة أن الضيف اذا حل بمنزل الانسان ٠ وقصده فى بيته ، وجبت له الكرامة ، وكان موضعا للحفاوة ، وأهلا للاجلال والاحترام ٠

ومن غريب المصادفات أن يكون المعتكف الأول للرسول — صلى عليه وسلم — ، الذى كان يتردد عليه ، أو يفزع اليه ، كلما حزبه أمر ٠ أو نزل به هم — غار حراء — هو المنطلق الذى ابتدأت منه الرسالة ، وجاء اليه فيه الملك ٠ وكانت منه الخطوة الأولى الى الزحف المقدس الذى أراد الله به خلاص هذه البشرية من الفوضى ٠ وانقاذها من الضلال ٠ والأخذ بيدها الى حيث تخطو بخطى وئيدة الى حياة أحسن ٠ وعيش أفضل ، وسلوك أحزم وأكمل ٠ ولقد جاءه جبريل الأمين يبلغه اختيار ربه له ٠ ليتحمل الرسالة ٠ ويؤدى الأمانة ٠ ويكون همزة الوصل بين الله جل جلاله وبين عباده ٠ وكان ذلك تشريفا لا يتسامى اليه مخلوق ٠ ولا يصل اليه أحد ، ولا يبلغه أرباب التيجان ، ولا أصحاب السلطان ، وقد تناولته أحقاد الحاقدين ، وحسد الحاسدين ، وظلوا يكيدون له جهد ما يستطيعون ٠ رجاء أن ينزلوا بقدره ، أو يشوهوا حقيقته ، أو يثيروا فى وجهه الغبار ، ولكن الله الذى رفعه على الناس ٠ وفضله على العالمين ٠ لم يشأ أن يكون لهم النصر عليه ، أو الغلبة دونه ، وانما رد اليهم كيدهم فى نحورهم ، وخذلهم أعظم خذلان ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وكذلك كانت سنة الله « وان جندنا لهم الغالبون » وصدق الله رسوله الرؤيا بالحق ٠

قصة القراءة

جاء في البخاري وغيره من الكتب الصحاح عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت « أول ما بدىء به ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوحى الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك ، فقال اقرأ .. قال ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى . فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم الخ السورة .. فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد .. فقال زملونى زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة ، كلا والله لا يخزيك الله أبدا ... انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل . وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرءا قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى . فيكتب من الانجيل ما شاء الله له أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى .. فقالت خديجة يابن عم .. اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة يابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خبر ما رأى ، فقال له ورقة هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ، ياليتنى كنت فيها جذعا ، ليتنى كنت حيا اذ يخرجك قومك .. فقال

رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو مخرجي هم ؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما أتيت به الا عودى ، وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى ٠٠٠ ونحن أمام هذه القصة التى ترويها عائشة رضى الله عنها نقف موقف المتأمل أمام تلك الأمور ٠

أولا : اقرأ لانسان لا يقرأ ولا يكتب تكليف بما لا يطاق ــ كما يقول علماء الأصول ــ وهو محال ٠ فكيف يأمره جبريل بشيء لا يتأتى تحصيله ــ أو حصوله ــ فان كان المراد بالقراءة متابعة المتكلم فيما يتلفظ به ٠ فهو لم يتلفظ بعد ٠ فكيف يكون الأمر أو يتأتى ٠٠ اللهم الا أن يكون معنى اقرأ تهيأ للقراءة ــ بمعنى المتابعة ــ ليكون قلبه خاليا من كل الشواغل التي تحول بينه وبين القراءة ٠ وهي أشبه بأداة الاستفتاح أو التنبيه التى تسبق الحديث وتتقدمه ٠٠ ولا يصح أن يفهم هذا الأمر الا على هذا الوجه ٠٠

ثانيا : تكرار الأمر بالقراءة ــ مع ابهامه عليه ــ وهو لا يدرى أهى قراءة بمعنى نطق بألفاظ وحروف مكتوبة « وما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان » أم هى قراءة بمعنى متابعة فى النطق وفيه نظر ٠

ثالثا : تلك المشقة التى كان يعانيها ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يغطه ــ أى يضمه الى صدره ــ حتى بلغ منه الجهد ، وهى أمور تحتاج الى تامل وبصر ، وتحليل وتعليل ٠٠

وفى هذه القصة ــ على كل حال ــ دليل قاطع على أن الطابع الذى تتميز به تلك الشريعة عن سواها من الشرائع أنها شريعة العلم بالأحكام ، والفقه فى الدين ، والدراية الواسعة بما فى هذا الكون من أسرار خفية ، وقوى كامنة ، وخيرات سخرها الله للانسان ، وذللها للناس ٠ ولذلك كان أول ناقوس قرع سمعه ــ صلى الله عليه وسلم ــ « اقرأ » ومتى أزال المرء عن عينيه غشاوة الجهل ، وظلمات الأمية ، وقبس من نور العلم ، وزاد المعرفة ٠ كان من السهل عليه الى حد بعيد ، أن يتجه الى الخير ، وأن يسلك سبيل الصواب ، وأن يكون فى كل تصرفاته وأعماله ، محكوما بسلطان الحق ، وقانون الواجب ، ودستور العدالة والانصاف ، وميزان العقل والرأى ، والذوق والفكر ، والايثار والحب ٠ وكانما العلم فى هذا الوجود هو الشعاع الهادي ٠ والمصباح المضيء ، والرائد الذى لا يكذب أهله ٠

وهنا لفتة جميلة تدل عليها الاضافة فى قوله « باسم ربك » والذى جرى عليه القرآن الكريم هو بسم الله يستفتح بها السورة ٠ وما من سورة ــ باستثناء سورة التوبة ــ الا كان العنوان البارز فى أولها بسم

الله الرحمن الرحيم • وكأنما يذكره جبريل عليه السلام بهذا الابتداء وفيه هذه الاضافة « ربك » بتربية الله له • واهتمامه به ، وحفظه اياه ، مع فقد العائل ، وموت الوالد • وتخلى القرابة • وعدم الثروة • وضيق ذات اليد • وهو سبحانه وتعالى جدير بذلك كله لأنه الذى خلق ، خلق الانسان من علق •• على أن لفتة أخرى لا يمر بها الذهن المرور العابر ، أو تخطر به الخطور الخاطف ، وانما يتأملها التأمل الذى يليق بها ، ويتروى فى أخذ العبرة منها ، وتلك هى تكرار الأمر بالقراءة المرة تلو المرة • ليفهمه — صلى الله عليه وسلم — ويفهم أمته معه ، أن الذى يطلب الأمر العظيم لابد أن يحتال له •• ويجد فيه ، ويتحمل من أجله المشقات ، ويقاسى الأهوال ، من غير ملالة ولا سأم •• أو ضجر وقلق • ولا يصح بحال من الأحوال أن يكون الاخفاق فيه • وعدم الحصول عليه للمرة الأولى أو الثانية ، سبيلا الى الانصراف عنه ، والزهد فيه ، واليأس منه ، أو قطع الرجاء ، فمن جد وجد ، ومن زرع حصد ، وكل انسان يدعو الى مكرمة ، أو يحاول تقويم معوج ، أو ينـادى بمبدأ من المبادىء ، أو يوجه جماعة من الجماعات الى خطة مثلى ، أو عمل نافع من شأنه أن تصادفه العقبات ، وتواجهه المصاعب ، وتقف فى سبيله العراقيل ، فليوطن نفسه على اقتحام ذلك كله ، والتغلب عليه بالجلد والاستهانة ، ومعاودة العمل ، واستمرار العلاج والمزاولة ، والاستخفاف بالجهد المبذول • والتعب الحاصل • والشدائد الطارئة • التى يكون من أهونها المطاردة من الوطن ، والمفارقة للأهل والأصـدقاء ، فان ذلك من الضرورى أن يحصـل ، ومما جرى به الالف والعادة •• ولقد كان من حديث ورقة للنبى — صـلى الله عليه وسلم — ليتنى كنت حيا اذ يخرجك قومك •• لم يأت رجل بمثل ما أتيت به الا عودى » بمثابة التأويل لهذا الضم الشديد الذى حصل من جبريل عليه السلام له — صلى الله عليه وسلم • فان التاريخ الذى مر به ، والأهوال التى لاقاها ، والعنف الذى واجهوه به • والخصومات التى أيقظوها • والحروب التى خاض غمارها • كانت تطبيقا لتلك الصورة التى مثلها أمين الوحى • وتصديقا — كذلك — لقول ورقة بن نوفل لم يأت رجل بمثل ما أتيت به الا عودى • وقـد دأب الناس على مقاومة الحق • والمطاردة لأصحابه ، والعداوة لأهله ، وقديما قال القائل ان قول الحق لم يدع لى صديقا ••• ولكن محمدا — صلى الله عليه وسلم — عـلى الرغم من الجهد الذى لاقاه من جبريل ، والخوف الذى اعتراه ، والهلع الذى أصابه • وتنبىء ورقة باخـراج قومه له ، وعداوتهم اياه ، لم يثن ذلك من عزمه ،أو يقلل من طموحه ، أو يطفىء نار شوقه لبلوغ الغاية التى كان مترقبا لها ، متلهفا عليها ، وظل بعد هذا العنف والعناء ، والجهد والتعب • يترقب بفارغ الصبر أن تتكرر تلك الحادثة ، وكان بصره دائما أبدا متطلعا الى السماء التى بزغ منها النور ، ولمع فيها النجم•

وطلعت منها الشمس ... وكان قلبه مرتبطا بغار حراء الذى كان يمنا عليه ، والذى كان ميدانا لهذا التجلى . وموطنا لتلك الرحمة . فلما فتر عنه الوحى ظلت جوانحه تغلى ، وعروقه تفور بالدم ، وفؤاده يضطرب ، وأخذ اليأس من الخير يعاوده ، والكراهية للدنيا تعتريه ، الا أن كلمات خديجة « والله لا يخزيك الله أبدا الخ » كان لها صدى طيب . ووقع حبيب ، ورجع موسيقى حلو . يرددها بينه وبين نفسه فيعاوده الرجاء بعد اليأس . والأمل بعد الاخفاق ، والاطمئنان بعد القلق ، والاقبال بعد الادبار ، ويحس كأنما تلامسه يد العناية الالهية فتملأ قلبه – من جديد – ايمانا به . وثقة فيه . واقبالا عليه ، وتراميا على أعتابه . ومعاودة للصلة به أقوى مما كانت وبخاصة اذا شعر أن هذا الفراغ الذى يملؤه باليقين منه لا يزال عامرا به . متجها اليه . لا يزاحمه فيه شريك ، ولا يطارده عنه مسلط ، أو يغلبه عليه جبار ..

وهذه البطولة التى تبدت من السيدة خديجة رضى الله عنها – مع أن الزوجة أسبق الى الجزع والفزع من الرجل ولا سيما اذا كان زوجها – تدل على العزيمة القوية ، والايمان الصادق ، والعقل الراجح . والرأى السديد ، وهى بطولة تجعلنا لا نشك فى أن المرأة الكاملة للرجم بلسم لجراحه ، وراحة لنفسه ، وظل له اذا اشتدت حرارة الشمس ، أو تضاعف عليه لفح الأيام والليالى ، وصدق الله العظيم اذ يقول .. « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فان الرجل قد تصيبه المتاعب . وتعتريه الهموم والآلام . وتضيق الدنيا فى وجهه . وتلتوى المسالك أمامه . فلا يجد بصيص النور الا فى وجهها ، ولا تمسح عنه الدموع الا يدها ، ولا يداوى جراحه غيرها . وهى التى تحمل همه . وتزيل غمه . وتخفف مصابه ، وأوصابه بما تضمره له من اخلاص ، وتختزنه من ود . وترجوه من خير . وكذلك كانت سنة الله فى خلقه لا ليكمل أحدهما الآخر وكفى . ولكن لتكون سعادته منه ، وهكذا جرى نظام الحياة ولن تجد لسنة الله تبديلا ..

ما ودعك ربك

وعلى الرغم من الخوف الذى اعتراه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حينما رأى الوحى للمرة الأولى وجاء الى خديجة رضى الله عنها يرجف فؤاده قائلا زملونى زملونى وقولها له والله لا يخزيك الله أبدا • فان الحنين اليه كان يملأ قلبه • والتفكير فيه كان يستنفد فراغه ، والخوف من انقطاعه عنه كان لا يفارقه ، ولقد كان شعوره بالشوق الحار الى معاودة الوحى اياه ، وملاقاة جبريل له • يقض مضجعه ، ويملك عليه تفكيره ، ولهذا كان دائم الرغبة فى تكرار ما حدث ، ورجوع ما كان • وبلغ من حنينه الى الملك ، وظمئه الى مشاهدته ، أن كان يذرع الأرض بقدميه صاعدا الى حراء ، أو هابطا منه • متلفتا تارة ، أو ذاهلا فى نفسه تارة أخرى ، كأنما هو قد افتقد شيئا فهو يبحث عنه ، أو يفكر فيه ، وربما أرهف سمعه لصوت يطرقه ، أو نداء يدوى فى أذنه ، ولكنه لا يعود من ذلك كله الا بالحرمان • ولا يؤوب الا بالحسرة ، و لاتزال سحابة هذا الحزن فوق رأسه ، لا تفارقه ولا تخيم بعيدة عنه ، ثم يزيد من ذلك كله ، ويضاعف منه • قالة السوء من المرجفين الذين كانوا يتربصون له الآلام والأحزان • والذين كانوا يملأون مكة أن محمدا قد قلاه ربه وتركه ، فلم يعد بينه وبينه من الاتصال ما كان يزعمه ، ولا من الوحى ما كان ينقل اليه أوامره • ولقد انقطع عنه خبر السماء ، وأصبح لا يروى خبرا • ولا ينقل حديثا ، ولا يؤلم المرء ، أو يحز فى قلبه ، أو يكدر صفوه • أو يسىء الى نفسه • كالشدة بعد الرخاء ، والاحجام بعد الاقدام ، والنقمة بعد النعمة • والضيق بعد الفرج ، والشر يجىء بعد الخير •• ولقد ظل هذا الحرمان مدة تتراوح الى أربعين يوما أو أكثر كانت أشد ما لاقى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عنت الأيام • وصروف الليالى • الى حد أنه كان من كثرة ضيق احتماله • وقلق خاطره • وحيرة نفسه ،

وألم قلبه ، وخوفه أن تنقطع صلته بربه التى كانت متمثلة فى هذا الملك الذى يربطه به ، والوحى الذى كان يدنيه منه · أن هم أكثر من مرة أن يلقي بنفسه من قمة الجبل ارضاء لخالقه الذى غضب عليه · فكف عن الاتصال به ، وقطع همزة الوصل التى كانت قائمة بينه وبينه ، ولا يحوله عن تلك الخطة الانتحارية الا صوت ذلك الهاتف الذى يقول له لا تفعل يا محمد فأنت رسول الله حقا ··· ونحن من جانبنا نتصور هذه الفترة أسلوبا من أساليب التشويق الذى يقول عنه علماء التربية انه أحسن الوسائل للتعلق بالمطلوب والبحث عنه ، والتطلع اليه ، والرغبة فيه · والحرص عليه ، والتلقى له · ووعيه وعيا لا يخامره شك ، ولا يدانيه ريب ، ولا يداخله تردد ··· وقد كانت كل خطوات جبريل معه — صلى الله عليه وسلم — تهذيبا وتأديبا ، وثقافة وتربية ، وارشادا وتعليما ، ليكون بعد ذلك أحسن الأمثلة والنماذج للانسانية كلها فى طموحها وتطلعها · ورقيها وتقدمها · وتقويمها واصلاحها « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » ·

على أن الوحى بعد هذه الفترة قد أروى ظمأه · وشفى غيظه ، وأذهب غليله · وأرضى خاطره ، وبدد همومه وأحزانه ، مما أسبغه عليه من بر · وما منحه اياه من احتفال واحتفاء ، وأعطاه اياه من خير · وقدمه له من عون ، وأضفاه عليه من معروف ، وأشاعه فيه من أمل ورجاء ، وجعله له من تقدير واحترام ، وقد ظلت قريش بعده تكاد تميز من الغيظ على أن ينال هذا الفضل ، ويصل الى تلك المرتبة ، وأنه ينزل عليه القرآن الذى يواسى أحزانه · ويطارد همومه ، وينوه به ، ويعلنه أن ربه لن يتخلى عنه · ولن يتركه وحده لعصابة الشر تكيد له · أو تنال منه « والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلا · وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ·· ألم يجدك يتيما فآوى · ووجدك ضالا فهدى · ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » ·

ومحمد — صلى الله عليه وسلم — باجماع المنصفين من فحول البلاغة وأساتذة البيان ، لا يدانيه أديب ، ولا يدرك شأوه فصيح · ولا يجرى فى حلبته عبقرى ، وقد وجد فى هذا الخطاب الذى وجه اليه ، والأسلوب الذى تحدث به الوحى · نمطا من القول ، ولونا من ألوان التعبير ، لا عهد له به من قبل · سحره بيانه ، وامتلأت به نفسه ، واهتز له وجدانه ، وطرب له فؤاده ، وقوى به يقينه ، وتيقظ به أمله ، وارتفع الى سماء عالية من اعتزازه بالله ، وارتباطه به ارتباطا أنساه ما كان يعانيه من مرارة الحرمان ، ومضاضة الفراق · ولوعة القطيعة ·· ورأى

صلى الله عليه وسلم فى تلك الآيات من سورة الضحى خطابا يلامس شغافه . ويثير أحاسيسه ، ويزيل ما كان يشكو منه ، فهو يقسم له بالضحى والليل . وبهما يذكر ليل همومه . وظلام غمومه . وضيق صدره . وحرج نفسه ، وتراكم هواجسه وأحزانه ، وكأنما كان يتخيل باقترانهما ، ومجىء الضحى آخذا بتلابيب الليل ، أن مع العسر يسرا ، ومع الضيق فرجا ، فيطامن شامسه ، ويهدأ تأثره . ويسكن بلباله . ويسكت عنه الغضب الذى كان يتحكم فيه .. وفى ذلك العرض الاجمالى لتاريخه يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى » تأخذه الدهشة ، لأن ذلك تصوير ناطق ، وتعبير صادق ، لم ينحرف عن الواقع وكأنما كان حاضرا معه . يلامس أحاسيسه . ويسجل آماله وآلامه . ويحصى عليه نبضات قلبه . وهواتف نفسه ، وينتقل من تلك الدهشة التى تبعث فيه الرهبة والخشية ، والمهابة والفزع ، الى قول المولى جل جلاله ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث » فيجد الحنان الذى يملأ جوانحه لهؤلاء الضعاف . ويستريح الراحة كلها لتلك الوصية النبيلة التى يؤكد الله طلبها منه ، وحثه عليها ، لأنه ذاق اليتم . وعانى مرارة الحرمان وذل الفقر ، وكأنما كان يناجيه فؤاده بأن شيئا من ذلك كله لا يكون منه أبدا ، ثم يعود الى ذلك الصوت الذى يهز ضميره . ويحرك عواطفه « وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » فيحمده سبحانه وتعالى على هذه المنن ، وتلك النعم . وذلك الفضل وهذا الوعد الحلو . والبشارة الصادقة ، التى تصدر عن الكبير المتعالى ..

وهكذا جو من البهجة والرضا ، والسرور والفرح ، والغبطة والسعادة . والأمل والارتياح ، والحب والود ، والإقبال والقبول ، لينسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شدائده التى كانت . وكروبه التى مضت ، وهو ما بين الاحتفال بشأنه ، والعناية بأمره . والإهتمام بشخصه . والوعود التى تضحك فى وجهه ، والرعاية التى تحيط به من كل جانب ، فى جنة عرضها كعرض السماء والأرض ... لكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى هذه اللحظة كأنما كان يقف وحده فى الميدان ، لا أحد يبادله الشعور بهذا الصراع الذى يعانيه ، أو الشدائد التى يقاسيها ، فاذا جامله انسان بكلمة طيبة يهدىء بها نفسه ، أو يسكن بها قلبه ، أو يخفف بها مصابه . فهى لا تعدو أن تكون عزاء تقليديا لا يتجاوز طرف اللسان . وهو اذا تذكر تلك الفجوة التى تفصله عن الناس . والمسافة التى تجعل قلوبهم فى ناحية وقلبه هو وحده فى ناحية عز عليه ذلك وآلمه ، لأن المشاركة بالوجدان غير المشاركة باللسان . فلما آمنت زوجته خديجة ، وشاركته فى وجدانه وشعوره . وعقيدته

وايمانه ، وصارت تصلى معه الصلاة التى علمه اياها جبريل ، وتسبقتها بالوضوء والطهارة ، وتقرأ ما يقرأ ــ صلى الله عليه وسلم ــ من القرآن ، وانحصر تفكيرها كله فى الوقوف الى جانبه بمالها وأهلها وذوى قرابتها ، وانقلبت عاطفتهـا له من زوجة تنظر اليه كزوج ، الى مؤمنة مخلصـة صادقة تود أن تملأ قلبه بمعان أخرى أكثر من معانى الزوجية ، تترضاه وترجو أن يشملها بما أفاض الله عليه من الهدى والارشاد ، والايمان واليقين ، والثقة والاعتزاز • وكان احسـاسه منها بذلك كله ، يشـد أزره ، ويقوى ساعده ، ويملأ نفسه سخرية من هذا الذى يلاقيه من العنت والكيد والايذاء والصد • والاعراض والانصراف • والوقوف فى وجهه ، وتكذيب الناس له ، واتهامهم اياه بالسحر أو الشعر • وأن هذا الذى يدعو به أساطير الأولين اكتتبها ، صار مع كل خطوة يخطوها ، أو حركة يتحركها لا يشك قليلا من الشك فى أنه منتصر لا محالة طال الأمد أو قصر ••• وقد آمن به بعد ذلك من الغلمان على بن أبى طالب الذى كان يعيش فى بيته ، ويتربى فى كنفه ، ويترعرع فى جواره ، والذى أراد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ، بهذا الصنيع معه أن يرد لعمه أبى طالب احسـانه اليه ، ومعروفه له • ونعمته عليه ، اذ كفله صغيرا بعد موت جده ، وكان يرأمه ، ويحدب عليه • ويهتم به ، ويبالغ فى اكرامه ورعايته • وعلى على صغر سنه كان صورة طيبة لاستقامة الشبان • وحسن خلالهم ، وطهارة أعراضـهم ، وكمال أدبهم ، وقوة ارادتهم ، وحدة ذكائهم • وبعدهم عن سفاسف الأمور ، ومرذول العادات ، ولم يتدنس بدنس الجاهلية ، كما آمن فى هـذا الوقت مولى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ زيد بن حارثة ، وحبيبه أبو بكر رضى الله عنه ، وكان وجيها فى قريش يهابونه ويحبونه • ويكبرون رأيه وتفكيره ، وكان لايمانه هـذا أثر بارز ، وفائدة عظمى • حيث قفى على أثره عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص • وغيرهم من الصناديد الذين كانوا أشبه بطلائع الجيوش الذين يتوقف عليهم نجاح الجولة الأولى ، والانتصار فى المعارك ، ولقد كان لهم الى جانب فضل السبق الفضل فى كثرة سواد المسلمين لأن اسلام كل واحد منهم كان باعثـا لأهله وعشـيرته وأصحابه أن يكونوا على دينه ، وفى الجانب الذى يختاره وينحاز اليه •••

تبت يدا أبى لهب

مما لا شك فيه أن ظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من ظلم غيرهم كما يقول القائل وذلك لأن الانسان فى موقفه معهم بين أمرين. أحلاهما مر . اما أن ينتقم لنفسه منهم وهو بهذا يهدم بناء القرابة . ويقطع حبل الرحم . ويفقد بعداوته لهم درعا كان من حقها أن تدفع عنه الأذى ، وترد الكيد ، أو يسكت على الأذى الذى يصيبه ، فيشتد وجعه . وتزيد آلامه . لأن احساسه بأن ما يصيبه من الأهل أو القرابة سيجعل الوخز شديدا . والألم مضاعفا ، والوجع عميق المدى .. ولقد كان أبو لهب اللعين عما للنبى صلى الله عليه وسلم يجتمع مع أبيه فى عبد المطلب جده ، تربطه به آصرة القرابة ، ووشيجة الرحم ، وصلة اللحم والدم . والعرب بطبيعتهم كانوا أشد الناس غيرة على أرحامهم ، وأكثر حمية لما ينال أهليهم وذوى قرباهم . لا يسكتون على ضيم يصيبهم . أو ضرر يلحق بهم . أو مكروه ينزل بساحتهم ، ومعظم تلك الحروب التى كانت تراق فيها الدماء ، وتزهق فيها النفوس ، يرجع سببها الأصيل الى الحمية للقرابة ، والدفاع عن العرض ، والانحياز الى جانب النسب ... والعقل البشرى لا يستطيع أن يتصور كيف كانت سخيمة نفس هذا الرجل ، على ما بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم من صلة القربى التى كان من حقها عليه ألا يتناوله بالأذى ، أو يتطاول عليه بالعدوان ، أو يلحق به الضرر . ولا أن يحقد عليه هذا الحقد ، ويبغضه ذلك البغض ، أو يشتغل بعدوانه عليه ، والصد عنه ، والتنفير منه ، واقامة الأشواك فى طريقه ..

وحين يقارن العقل البشرى بين أبى لهب هذا وأخيه حمزة . وكلاهما أبوه عبد المطلب بن هاشم جد الرسول صلى الله عليه وسلم . وكلاهما عمه كذلك ، وقرابته منهما واحدة ، وصلته بهما على حد سواء ،

يأخذه العجب ، ويزداد غرابة ودهشا ، اذ أن أحدهما خصم لدود ، وعدو كاشح . والآخر صديق حميم تأخذه بالنبي صلى الله عليه وسلم الشفقة ، وتعطفه عليه القرابة ، ويبالغ في الوقوف الى جانبه ، والدفاع عنه ، والغضب للغبار الذي ينال وجهه ، أو يلوث ثيابه ، ولقد دفعت الحمية « الحمزة بن عبد المطلب » ان يعلن ايمـانه بابن أخيـه ، والتصديق لدعوته ، والانضواء تحت رايته ، والدخول في دينه ، ردا على ما بلغه عن أبي جهل من تطاوله على محمد صلى الله عليه وسلم وسخريته به ، يقول الدكتور هيكل ، لقد مر أبو جهل بمحمد يوما فاذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فأعرض محمد عنه . وانصرف ولم يكلمه ، وكان حمزة عمه وأخوه من الرضاع ، ما يزال على دين قريش ، وكان رجلا قويا مخوفا ، وكان ذا ولع بالصيد ، فاذا رجع منه طاف بالكعبة قبل أن يعود الى بيته ، فلما جاء في ذلك اليوم وعلم بما أصاب ابن أخيه من أبي جهل ملأه الغضب ، وذهب الى الكعبة ، ولم يقف مسلما على أحد ممن كان عندها كعادته ، ودخل المسجد فألفى أبا جهل فقصد اليه حتى اذا بلغه رفع القوس فضربه فشجه شجة منكرة وأراد رجال من بني مخزوم أن ينصروا أبا جهل فمنعهم حسما للشر ، وخوفا من استفحاله ، معترفا أنه سب محمدا سبا قبيحا . ثم أعلن اسلامه . وعاهد محمدا على نصرته والوقوف الى جانبه والتضحية في سبيله حتى النهاية وهذا هو فرق ما بين حمزة وأبي لهب التي نزلت فيه السورة .. فهل يدور بخلدنا أن القرابة غير القرابة ، والوشيجة غـير الوشيجة ، والدم غـير الدم ، أم ان الجهل هو الذي يطمس على البصائر . ويحول بينها وبين الحق . ويكفى أن التاريخ الذي لا يظلم أحدا ، أنزل كل انســان المنزلة التي تليق به ، وبوأه المكانة التي تناسبه . وهذا هو أبو لهب يكوى بميسم من النار التي يصلاها . الى جانب ذلك الذل الذي أصابه ، والعار الذي لحق به ، وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد وهو ازدراء لم يكن محمد ليقدر عليه . ولا يستطيع أن يلحقه بأبي لهب ، ولو أن أحدا صنع ذلك بأبي لهب لزمجر وغضب ، وأقام الدنيا وأقعدها . وجعل الأرض ترتوى بدماء القتلى ، وبخاصة لهذا الذي نال زوجته من المهانة التي لا تحتمل والازدراء الذي لا يطاق ، وللمرأة عند زوجها تقدير واحترام يجعلانه يجود بنفسه من أجلها ويضحي بحياته في سبيلها . وهي بعد لم تكن امرأة من دهماء الناس ، ولا من سوقة العرب ، وانما هي من السادة « العوراء أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب » ولم تكن تحمل حطبا ولا تمتهن عملا من الأعمال التي تزرى بها . أو تنال من شرفها . ولكن هكذا جرت عادة العرب أن يقولوا فلان يحطب لفلان اذا كان ينم عليه ويغرى به . وقد ساهمت في خصومتها للنبي صلى الله عليه وسلم لتكون في جانب

أخيها وزوجها ٠٠ ولقد ذهل أبو لهب ودهش لما نال منه محمد هـذا المنال الذى جعل القرآن يفضحه ، ويهتك عرضه ، ولم يكن هو يملك الا الحقد الدفين ، والعداوة الكاشحة ، أما زوجته فقـد صنعت ما تصنعه المرأة ، وذهبت من غيظها بسلى جزور ، ورمت به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد لربه فى احدى صلواته ٠

وسبب هذه القصة الطريفة أنه صلى الله عليه وسلم بعد أن فتر عنه الوحى تلك المـدة الطويلة التى كانت مجـالا لتقولات الأعـداء ٠ والاشاعات المغرضة التى أرسلها خصوم الدعوة ، وأعداء الرسالة ٠ وكان قد آمن به أبو بكر وعثمان وسـعد بن أبى وقاص وغيرهم من صناديد الرجال وأبطـال الحروب ، وذوى المكانة المرموقة فى العرب ، وكانت الدعوة ، الى هـذه اللحظة ــ فى الخفاء لا يجرؤ أحد على اعلانهـا ٠ ولا يستطيع انسان أن يرفع رايتهـا ، وقد اتخذ المسلمون دار الأرقم بن أبى الأرقم مخبأهم الذى يجتمعون فيـه ، ويتدارسـون أمورهم ٠ ويرسمون خطوطهـم لئلا يتعرضوا للأذى ، أو يستهدفوا للضرر ، وظلوا على ذلك ثلاث سنوات فلما نزل عليه قوله جل جلاله « وأنذر عشيرتك الأقربين » امتثل أمر مولاه وصعد الصفا والمروة ونادى « يا صباحاه » وهى الكلمة التى كانوا يقولونها عند الدعوة الى الحرب ، والنفير للقتال . وكانوا يرون تلبيتها ، والاجتماع لها ، من أوجب الواجبات ، وأقدس الأمور ، فلما سالت عليه شعاب الحى من كل ناحية ، وغص بهم المكان ، قال لهم « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ٠٠ قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا ٠٠ فقال صلى الله عليه وسلم انى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، انكم لتموتن كما تنامون ٠ ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالاحسان احسانا ، وبالسوء سوء ٠ وانها لجنة أبدا أو لنار أبدا » والى هنا كان المنطق الفطرى يقضى بصحة الموقف ، وسلامة العاقبة ، وقبول الدعوى ٠ لأنها صميم الحكمة ، ومحض العقل ، وعين الصواب ، اذ أتى صـلى الله عليه وسلم ــ البيوت من أبوابها ــ كما يقولون ــ وخاطبهم بالعاطفة والعقل فى آن واحد ، وقد أخذ منهم صكا بصدقه ، واستقامة أسلوبه ، وسلامة أهدافه ، وكون دعواه خالية من الغرض والهوى ، ولم يكن اصرارهم على الباطل بعد ذلك كله الا مكابرة مكشـوفة ، وعنادا مفضـوحا ٠ وكان من اللائـق بهم ــ لو أنصفوا ــ أن يتحاشوهما ، ولذلك كان هـذا الرد من أبى لهب « تبا لك ألهذا جمعتنا » عنوانا على الطيش والحمق ، والهزال والضعف والعته والجهل ، لا يستحق الا هـذا الردع القاسى ، والزجر الأليم ، والتوبيخ البالغ « تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد »

ولم يكن في جيدها ذلك الحبل ، وانما هو التصوير المزرى الذى يحط من شأنها ويجعلها فى ابتذال حالها وانحطاط قدرها أشبه بالسوقة الذين يحترفون الخدمة ، أو يمتهنون أتفه الأعمال ، ويقول الشيخ مخلوف فى التعليق على قوله تعالى « فى جيدها حبل من مسد » الجيد العنق • والمسد ما مسد أى فتل فتلا شديدا من الحبال من ليف أو جلد ، أو من لحاء شجر باليمن يسمى المسد • أى فى عنقها حبل مما مسد من الحبال ، وهو تصوير لها بصورة الحطابة التى تحمل الحزمة وتربطها فى عنقها بحبل ، تحقيرا لها لتمتعض من ذلك هى وزوجها ، اذ كانا فى بيت العزة والشرف • ومنصب الثروة والجدة ، ويحتمل أن يكون المعنى أنهـا تكون فى جهنم على الصورة التى كانت عليها فى الدنيا ، حين كانت تحمل حزمة الشوك لتلقيها فى طريقه – صلى الله عليه وسلم – ايذاءا له ، فلا تزال على ظهرها فى النار حزمة من حطب شجرة الزقوم ، أو من الضريع ، وفى جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار ، كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله من جرمه ، وقد هلكت هى وزوجها كافرين » ••

وقد كان فى الشعر الجاهلى هجاء يتناول الأخلاق والأعراض • وينال من العلية والسفلة ، والكبار والرؤساء • والعظيم والحقير ، وكان العرب يثورون ثورة عارمة لهذا الهجاء • الا أنه كان فى الكثير الغالب من ذلك النوع المبتذل • أو الأدب المكشوف • يعيب المتكلم به أكثر مما يعيب المقول فيه ، وهذا الهجاء الذى أصاب أبا لهب كان من طراز جديد • وهو مع هذا كله لم يعد أن أظهره مع ماله وأهله فى هيئة الذليل الحقير ، أمام عقاب الله يوم القيامة « ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب ؟ » ••• وأمام هذا التهديد لرجل من صناديد العرب كانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم تبتدىء عهدا آخر ترفع فيه رأسهـا ، وتجأر فيه بصوتهـا ، وتسفه فيه معبودات المشركين ، حتى اذا ما بلغ عدد المسلمين نحو الثلاثين • أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجهر بالدعوة قائلا له •• « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين • وهنالك تجاوزت مرحلة الهمس الى مرحلة الاعلان والتصريح •••

رجلان

رجلان كانت الدعوة الاسلامية تترقب بفارغ الصبر لحظة انحيازهما اليها ، ووقوفهما الى جانبها يدافعان عنها ، ويشدان أزرها ، ويجعلان كفتها ترجح على سواها ، لتأخذ سبيلها الى الاستقرار ، وطريقها الى الظهور ، وكلا هذين الرجلين كان بألف رجل ، ثبات جنان ، وقوة حجة ، وشجاعة نفس • وصرامة رأى ، ومثل هذا اللون من الناس يكون له أثره البالغ فى الجبهة التى يعمل فيها ، والميدان الذى يكون مجالا لكره وفره ، ومحمد صلى الله عليه وسلم اذا ما كان فى معسكره هذان الرجلان يستطيع أن يطمئن الى أن خصومه يحسبون حساب ما عساه أن يحصل بينه وبينهم من خلاف • أو يحدث بينه وبينهم من عداوة ، وأحد هذين الرجلين الحمزة بن عبد المطلب عمه وأخوه من الرضاع وصديقه الحميم الذى كان يفتح له قلبه ، ويخلص له وده ، ويتمنى أن يطوى عليه جوانحه ، وثانيهما عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى كان من الأفذاذ فى ذكائه وعقله وشجاعته وأقدامه وانصافه وعدله ، ورجولته وحميته وغيرته للحق وحبه له ودفاعه عنه •

أما الحمزة فان سبب اسلامه ــ كما علمنا ــ غضبه لابن أخيه ، ودفاعه عنه ، ووقوفه الى جانبه ، حتى لا يتطاول عليه سفيه ، أو يسيء اليه أحمق ، أو ينال منه دعى ، أو يعتدى عليه سليط • وقد رووا أن أبا جهل قبحه الله وأخزاه تلاقى بالنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ عند الصفا فازدراه وسخر منه ، ولطمه على وجهه • وسرى ذلك الخبر فى شعاب مكة ، وقابله الناس بما يستحقه من الاستنكار والسخط ، والوجوم وعدم الارتياح • وكان الحمزة فى لهو عن ذلك كله لاشتغاله بالرياضة فى الصحراء • فلما آب من رحلته ، وانتهى اليه هذا الخبر •

لم يستطع الاغضاء عنه ، ولا السكوت عليه ، ولم يحتمل مع كفره ، وكونه جنديا من جنود المعارضة لابن أخيه أن يصبر على هذا الضيم الذى أصابه فى رجل من أهله ، فذهب الى المسجد ، وأخذ بتلابيب أبى جهل وضربه بالقوس على ناصيته • ولما أراد بعض أصحاب أبى جهل أن يثأروا له أمرهم أن يكفوا وقال لهم أنا الباغى وعلى الباغى تدور الدوائر ، وأفهمهم انه تطاول على محمد ظلما وعدوانا ، وفى هذا الوقت رأى الحمزة أن يواصل سعيه لشفاء الغليل الذى كان فى نفسه من أبى جهل ليريه أنه لن يتخلى عن ابن أخيه • فذهب الى محمد - صلى الله عليه وسلم - وأعلنه أنه قد دخل فى دينه ، وأنه منذ ذلك اليوم صار جنديا من جنود الله فى ميدان الدعوة الى دينه ، والدفاع عن شريعته ، ثم ظل الى جانبه - صلى الله عليه وسلم - وكان الرسول يحبه حبا لامزيد عليه ، وسيمر بنا فى الحديث عن مقتله كيف كان حزنه عليه شديدا •

وأما ثانى هذين الرجلين الذى هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد كان لاسلامه اتصال وثيق باسلام حمزة بن عبد المطلب ذلك أنه أخذته الحمية لما فعل حمزة بأبى جهل وهو خال عمر لكنه لم يشأ حينئذ أن يواجه حمزة لما يعلمه من شجاعته وغضب كثير من أبناء عبد المطلب ، فأخذ سبيله الى محمد ليقضى على أصل الداء ، ويقتل ميكروب هذه العلة • وبينما هو فى الطريق لقيه أحد أصحابه ، فقال الى أين يا عمر ، فأخبره الخبر •• فأنكر عليه قصده •• وقال له كان أولى بك أن تفعل ذلك مع أهلك وأقرب الناس اليك ، لقد صبئت أختك هى وابن عمك زوجها • وما كان عمر يدرى من ذلك قليلا ولا كثيرا •• فغلى دمه فى عروقه ، واحمر وجهه ، وبدا عليه الخجل والارتباك ، وتحول غضبه على محمد الى غضب على أخته وزوجها ، وهنالك حول وجهه اليهما ليرى ماذا أصابهما ، ودخل عليهما كالأسد الهصور • يريد الفتك بهما ، ولما أن أشبعهما ضربا نظر الى وجه أخته فوجد الدم يسيل منه ، فأخذته الرحمة بها ، والاشفاق عليها • وسكن ثائره ، وهدأت حدته ، وكانت قد أخفت عنه بعض صحائف من القرآن كان يقرئها منها هى وزوجها خباب بن الأرت الذى اختفى عن وجهه حتى لا يناله منه عنف أو قسوة •• فلما قال عمر لأخته ما هذا الذى واريته عنى ، قالت انه كلام رب العالمين • فطلب أن تمكنه منه • وتعطيه اياه ليقرأ فيه ، وكانت فاطمة فى هذه اللحظة قد فهمت من ملامح وجهه • ونبرات صوته ، أن الله قد فتح قلبه ، فأخذت تبادله عنفا بعنف ، وغلظة بمثلها ، فقالت أنت على الشرك والشرك نجس• وكتاب الله لايمسه الا المطهرون • فطلب منها أن تقرأ هى ، فظلت تقرأ فى سورة « طه » الى أن وصلت الى قوله جل جلاله » اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس

بما تسعى فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى » وهنالك سكن غليانه . وهدأت ثورته ، وذهبت حدته ، وتحولت غلظته الى رقة ، وكراهيته الى محبة ، وجحوده الى ايمان ، وأحس كأن الأرض تميد به ، وأن السماء تنطبق عليه ، وأن يوم الحساب قد حضر ، وأنه قد قذف به في جهنم ، فصاح بأعلى صوته أين الطريق الى محمد ، وهنالك ظهر خباب ابن الأرت ، وقال له يا عمر انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه صلى الله عليه وسلم . فانى سمعته أمس وهو يدعو ويقول « اللهم انصر الاسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى الحكم بن هشام » فالله الله ياعمر ، فقال عمر عند ذلك ، دلنى يا خباب على محمد حتى أعلن اليه اسلامى . وأخذ سيفه وجاء الى النبى صلى الله عليه وسلم ــ وكان هو وأصحابه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم « دار الندوة » فضرب عليهم الباب . فقام رجل منهم ينظر من خلل الباب فرأى عمر متوشحا سيفه . فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك . فقال حمزة ائذن لى يا رسول الله أن ألقاه ، فان كان قد جاء لخير بذلناه له ، وان كان لشر قتلناه ، وربما قال غير حمزة مثل قوله هذا الا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أنا أكفيكم شأنه . حتى اذا لقيه أخذ بتلابيب ثوبه ، ومجامع ردائه وهزه هزة انخلع لها جسمه ، وقال له ماجاء بك ، أما آن لك أن تنتهى حتى ينزل الله عليك قارعة ، فقال عمر يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله . فكبر النبى ــ صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف بها كل من كان فى داخل الدار أن عمر قد أسلم . ويقول بعض المؤرخين ان عمر مشى الى المسجد يعلن من فيه باسلامه ، فقام اليه نفر منهم يقاتلونه ويقاتلهم . فبينما هم كذلك اذ أقبل شيخ عليه حلة فقال ما هذا فقالوا له صبأ عمر . قال رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون منه . أترون بنى عدى يسلمونه لكم ، خلوا عن الرجل . وكان هذا المتكلم هو « العاص بن أبى وائل السهمى » قال عمر وجئت أبا جهل بعد ذلك فلما طرقت بابه فتح لى وقال مرحبا بابن أخى ، ما جاء بك ؟ قلت جئت لأخبرك أنى قد أسلمت ، وآمنت بمحمد . فضرب الباب فى وجهى وقال قبحك الله ، وقبح ما جئت به .. وأنت ترى كيف تغير موقف كل من الرجلين للآخر ، فلقد ابتدأت ثورة عمر ــ أولا ــ من أجل خاله أبى جهل ، ثم كانت ثورته ــ ثانيا ــ من أبى جهل وضد أبى جهل ، وهكذا « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ولم يستغرق التاريخ الذى مثلت فيه قصة عدوان أبى جهل على النبى صلى الله عليه وسلم وغضب حمزة من جراء العدوان على ابن أخيه واعلانه الاسلام ــ كرد فعل لذلك ــ واسلام عمر وطرقه لباب خاله الذى رده أسوء رد قائلا له قبحك الله . وقبح ما جئت به ، أكثر من أسبوع واحد .. وعلى كل حال فقد أشاع خبر انضمام عمر الى معسكر المسلمين

الهلع والفزع فى نفوس المشركين ، وأخذ المسلمون يطوفون به على مجالس قريش ومنتدياتها ليوقعوا فى قلوبهم الرعب ، ولم يرض منذ أعلن اسلامه أن تظل الدعوة خفية يتوارى بها أصحابها .. وقال للنبى صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل ، قال له نعم ياعمر . فقال له علام نرضى الدنية فى ديننا ، وهنالك نزل عليه قوله سبحانه « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » وابتدأ - صلى الله عليه وسلم - مرحلة جديدة هى مرحلة الجهر بالدعوة والاعلان الصريح لها ، وهكذا كان تاريخ عمر بن الخطاب حافلا بالأمجاد . مليئا بالمكارم . يعطى الصورة الرائعة عن المسلم القوى . والحاكم العادل ، والجندى المجهول فى مؤازرة الحق . ومعاونة الانصاف وأداء الواجب .. وفى الوقت الذى ورم أنف كثير من الناس على أبى بكر أن تكون له الخلافة من دونهم كان هو يسانده ويعاضده ويقف الى جانبه . وينصح له ويشير عليه ، وكان أبو بكر لا ينسى له ذلك ولا يغمط له حقه ، وكان كلما أشار عليه بالرأى أو أضاء له الطريق ، قال له لقد كنت أولى بها منى ياعمر - يعنى الخلافة - ولعمر فضل التحرر والانطلاق ، وعدم الجمود فى الشريعة الاسلامية ، لأنه كان - حتى والوحى ينزل على رسول الله - اذا لم ينقدح الحكم فى ذهنه ، ولم يطمئن اليه ، ولم تظهر فيه حكمة التشريع ، يسأل ويستوضح ويعترض ، ولا يرضى أبدا أن يتقبل الحكم قضية مسلمة . وكأنما كان هو نفسه مدرسة للمسلمين يتعلمون منها حرية الرأى ، والعلة تدور مع الحكم وجودا وعدما ، وأمثلة ذلك من القضايا والمسائل التى تدل دلالة واضحة صريحة على أن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان .. ولقد كان تاريخه كله رضى الله عنه ناصع البيان ، واضح السطور ، ليس فيه ثغرة ينفذ منها خصم ، أو يدخل منها عدو . والمسلمون يعتبرونه من الأفذاذ الذين يرجع اليهم الفضل فى تمكن دولتهم . ورفع رايتهم ، واعزاز مكانتهم وجعل المناوئين لهم ، أو الخارجين عليهم ، يحسبون لهم ألف حساب وحساب اذا أرادوا أن يعلنوهم العداوة أو الحرب .

والله ياعمى

كان لزاما على محمد صلى الله عليه وسلم وقد أمره ربه بالجهر بالدعوة • واعلان الرسالة ، وبخاصة بعد أن انضم الى معسكره كبار الرجال ، وصناديد العرب ، من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وحمزة بن عبد المطلب ، وهم قوم لهم منازلهم المعروفة ، ومكانتهم المحترمة ، وتقديرهم العظيم ، وبعد أن صار أبو جهل وأضرابه من المشركين المعاندين يشتغلون بالكيد له • والتنفير منه ، والتشويه لدعوته • والصد عنه • كان لزاما عليه أن يبرز فى المحافل • ويظهر فى الأسواق • ويعتلى كل منبر يمكن أن يكون وسيلة من وسائل ايصال صوته الى الآذان والقلوب • ليستجيب له من يقتنع بصدقه ، ويذعن لدينه • ويؤمن بدعوته • ويطمئن الى أنه رسول رب العالمين •• وكانت هذه الحال بينه وبين قريش أشبه بالحرب الباردة التى يتناول فيها كل فريق خصمه بما يستطيع من ألوان الكيد ، وصنوف الايذاء ، ومعانى الايلام • التى يقلم بها أظافره ، ويقص أجنحته ، ويضعف قوته ، ويقطع الطريق عليه الى الرقى والنمو والتقدم والازدهار ، لكنه لايرفع سيف الحرب عليه • ولايعلن التعبئة العامة ضده ، لأنها وجدت أن محمدا تنعطف الى دعوته أفراد ، وتلتف به رجال ، وتدخل فى دينه أفواج ، والى جانب ذلك لايخذله المنطق ولا تنقصه الحجة ، ولا يتجافى عنه العقل ، وهنالك أيقنوا بأن جاههم فى سبيله الى الزوال ، وسلطانهم فى سبيله الى التقلص • وجبروتهم ستحطمه الأيام المقبلة لامحالة ، لأن الدين الجديد الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم • وان لم يكن ملكا سيقوم على أنقاض ملكهم ، ولا سلطانا سينازعهم السيادة وهو يذيب الفوارق • ويمزج الطبقات ، ويكره التسلط ، ولا يحترم الذين يقوم مجدهم على النفوذ الكاذب ، والثروة المغتصبة ،

والغنى عن طريق غير مشروع ، ولا يمكن للأنانية · الجوفاء ، ولا الأثرة البغيضة · وقد كانت السدانة على البيت الحرام ، والرياسة على العرب ، وحق الفصل في الخصومة ، والحكم في الديات · والتقدم في المجتمعات ، سمات بارزة لهم على غيرهم ، واذا ما استرسل ذلك الداعى فى دعوته الجديدة · فسوف يكونون سوقة بين الناس ، لايمتازون بفضل ولا شرف · ولا يسبقون بجاه ولا نفوذ · ولا يشرفون بحسب ولا نسب ، لأن محمدا يقول الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ·· وأمام ذلك أجمعت قريش على الوقوف فى وجه محمد ، والكيد له ، والصد عن سبيله ، مهما كلفهم ذلك كله من ثمن ، وقد شرعوا ينظرون فى كل الأساليب · ويجربون مختلف الأنواع التى يمكن أن تكون حربا باردة · وأخيرا وجدوا أن أبا طالب يمكن أن يساعدهم على ذلك ، وبخاصة وهو لايزال على دين الأشياخ · يؤمن باللات والعزى ، ويسجد للأوثان والأصنام · وقد ظنوا أنه يحدب على محمد ويعطف عليه ارضاء لرغبة التبنى لا أكثر ولا أقل فعرضوا عليه غلاما وسيم الشكل ، جميل الطلعة ليجعله منه فى مكانة محمد الذى يتبناه ، على أن يسلم اليهم محمدا ليفعلوا به ما أرادوا فقال لهم أبو طالب بئس الرأى ما ترون ، فقالوا له يا أبا طالب ان كان محمد يريد ملكا ملكناه علينا ، وان كان يريد مالا أعطيناه المال ليصبح من سراة الناس · وعليه بعد ذلك أن يكف عن آلهتنا التى ازدراها · ومعبوداتنا التى حقرها ، والا كان لنا ولكما شأن آخر · وما كان أمام أبى طالب أمام هذا القول الا أن يظل واقفا موقف الحيرة ، فابن أخيه لايمكن أن يتركه لهم ينالون منه ، أو يكيدون له · وفي الوقت نفسه لم يكن من السهل عليه اغضاب العرب ، ولا الوقوف في وجههم ، وتحمل مسئولية عداوتهم ، وفى تيار هذه الوجدانات المتناقضة ، والعواطف المضطربة ، يذهب الى محمد صلى الله عليه وسلم ليأمره أن يكف عنهم ، فلا يبالغ فى ايلامه لهم · وعدوانه عليهم ، واحراجه اياهم · وقد عرض عليه ذلك العرض السخى الذى عرضوه ، والعدة الطيبة التى وعدوا بها · وفهم صلى الله عليه وسلم من حديث عمه له أنه يريد أن يتخلى عنه ، فلا يقف الى جانبه ، ولا يمد يده اليه ، ولا يغضب من أجله ، ولا يرد كيدهم الذى يدبرونه له فى الخفاء · فاغرورقت عيناه بالدموع ، وأفهمه أنه يحتمى بربه ، ويعول على خالقه ، ولا يستعين الا برب السماوات والأرض · ثم قال له فى لهجة المطمئن الواثق « والله ياعمى لو وضعوا الشمس فى يمينى · والقمر فى يسارى ، على أن أرجع عن هذا الأمر · مارجعت عنه أو أموت دونه » وحينئذ رق قلب أبى طالب وقال له يابن أخى قل ما شئت فوالله لا أتخلى عنك · ولا أخذلك · ولا أسلمك لعدوك ، ولا أجعلك تقف وحدك فى الميدان ·

ومن حق الأديب الماهر ، والفيلسوف الكبير ، واللوذعي العظيم . والناقد البصير ، أن يقف أمام هذا الرد الذى صدر عن محمد صلى الله عليه وسلم فى الوقت الذى تطيش فيه الأحلام ، وتزل العقول وتختل البصائر ، وتذهل الأفكار . وتضل الألباب ، ويحتاج المرء ازاء هذا التيار المتضارب الى التروى والامعان . والمقارنة والترجيح ، والنظر والتأمل ، على أنه مهما تروى وتأمل وقارن أو قدم رجلا وأخر أخرى — كما يقولون — فانه لا يصل الى هذا الرد الحاسم ، ولا الى هذه الحكمة « والله ياعمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى » ولا يمكن أن يكون هناك اباء نزيه ، ولا كبرياء عظيم ، ولا ترفع كريم ، ووراء هذا الرفض الذى جعله محمد صلى الله عليه وسلم عنوانا على الرجولة الكبيرة . والطهارة البريئة ، والنظافة الكاملة ، وهو رفض نبع من قلب امتلأ بجلال مولاه فلم يعد فيه فراغ لسفاسف الحياة . ولا لأكاذيب السلطان ، ولا لدنيا الناس . فهل كان يتروى فى نسجها . أو يتأنق فى صوغها . ويفكر قبل أن تصدر منه . لتنطلق انطلاق السهم ، وتدوى دوى المدفع . وتسير مسير الشمس . فلا فم الا وهو يرددها ، ولا رأس الا وهو واعيها . ولا عقل الا وهو مكبرها ، ومعجب بها أيما اعجاب . أم صدرت عن طبع . وانحدرت عن سجية ، وحدثت من غير تكلف ، وكان شأنها شأن الشهيق والزفير تستجيب له النفس من غير عناء ولا مشقة . وهى وحدها تطوى ذلك التاريخ طيا فى ماضيه وحاضره . وتبرز لهذه الأمة سيرة منقذها واضحة لا غبار عليها . ناصعة لا غموض فيها ، بسيطة ليس عليها طابع التكلف ، الذى يلتجىء اليه الضعفاء أو المزورون . وفى الحق أن اليقين الذى عمرت به نفسه ، والايمان الذى نارت به بصيرته ، والثقة بالله التى امتلأ بها قلبه ، واعتقاده الضخم فى بارىء النسم . ومصرف الكون ، جعلته يسخر من كل هذه المظاهر ، وما الشمس والقمر ، والنجوم والكواكب ، والأرض والسماء ، والجاه والسلطان ، والنفوذ والحكم ، والرياسة والملك ، وما سوى ذلك وذلك . أليست كلها صنعته جل جلاله ، ومن أثر قوله كن ، ونتيجة حتمية لأوامره ، وأثرا بارزا لقدرته ، ولو لم يشأها لم تكن . سبحانه خالق كل شىء ، وهو على كل شىء قدير ، بيده مقاليد السماوات والأرض .

على أن الذى امتلأت يداه به ، واطمأن قلبه اليه ، وظفر به من ربه كان أعظم قدرا ، وأعلى شأنا ، وأغلى ثمنا من الشمس والقمر ، وقد حظى برضاه سبحانه وتعالى عنه . واختياره له ، وأفعم قلبه الكبير بالارتباط به ، والتفكير فيه ، والتسبيح بحمده ، وهى ثروة — كما نرى — لا يكون الشمس والقمر بجانبها الا هباء .. وما المال والجاه

والسلطان والملك ومتاع الحياة الدنيا على اختلاف أنواعه الا كمالا نفسيا يطلبه المرء ليجبر به نقصا فيه ، أو يغطى عوارا لحقه ، أو خللا اصابه ، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ صنعه خالقه على عينه ، وجمله بقدرته . وكمله بعنايته ، ورفع منزلته ، وأعلى مكانته ، وجعله سيد المصطفين الأخيار ، لم ينله رجس الشيطان ، ولم يصبه سفساف النـــاس ، ولا دنس الخلق . ولا طمع الصغار ، فكان قلبه طاهرا . وفؤاده نظيفا ، وضميره نقيا ، وهمته عالية . ونظره بعيدا ، وعقله رشيدا ، وايمانه صحيحا ، ودينه قويما ، ونفسه كبيرة .. وكل هذه معـــان اذا أضفى الله رداءها على انسان صار بها من الأبرار الأخيار الذين لايسعون فى غاية ، ولاينزلون فى غرض ، ولا ينحرفون فى قصــد ، ولا يلتوون فى سنن ، ولا يقصرون فى واجب ، ولا ينامون عن مكرمة ، ولا تقف جهودهم عند غاية .. وهذه الكلمة التى قالهـا ـ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى جانب كونها سخرية بما كان لهم من أهداف ، واحتقارا لما كان لديهم من دنيا ، وازدراء لما كان عندهم من موازين ، ترسم للمصلح الاجتماعى التصميم الجازم الذى يتحتم عليه أن يلتزم به ، ويسير عليه ، والعزيمة القوية التى يجب عليه أن يأخذ نفسه بها ، والا كان جهــده ضائعـــا لا أثر له ، وهباء لا فائدة منه ، ورخيصا لا ثمن له ، وذلك هو المنطق الذى وصل به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى القمة . وانتهى به الى الغاية ، مع قلة عدده وعدته ، وكثرة خصومه . وقد علمتنا سيرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الحق لا تخذله ارادة الله . ولا تتخلى عنه عنايته ، ولا يتركه جل وعلا للمفسدين ينالون منه ، أو يكيدون له . أو يصدون عنه ، وفيه من معانى الفطرة ، وقوة المنطق ، ونبل الهدف ، ووسائل البر والخير ، والاصلاح والعمران ، ما يضمن له الغلبة ، ويؤكد له الفوز والانتصار ، ويجعل له التمكين والخلود من غير شك ولا ريب .

البشارة به فى الكتب السابقة

الرسالات السابقة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت كلها خطوات أولى لرسالته ، مهد الله سبحانه بها . وجعلها أشبه بالارهاص الذى يسبق المعجزة ، واذا كان التدرج فى التربية والانتقال من حالة الى أخرى تكون أشد أو أشمل أسلوبا لما تتطلبه الفطرة وتدعو اليـــه ضرورة الانتقال ، فان الجهود التى بذلها الأنبياء والرسل قبله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت من هذا القبيل . ولم يكن ذلك من قبيل الاتفاق أو المصادفة ، أو خبط عشواء ، وانما كان جاريا على سنة الحياة ، وطبيعة الكون فى هذا الوقت . لأن البدائية القائمة ، والهمجية الســـائدة ، وعيشة الأدغال والغابات التى ابتدأها الانسان ، وتنقل فيها من طور الى طور . ومن خطوة الى التى تليها . لم تكن معهـــا تكاليف والتزامات ، أو أوامر ونواهى . وانما المعقول أن يكون معها ارشاد وتوجيه ، وتهذيب وترغيب ، من غير تكليف أو ايجاب ، حتى اذا ما تجاوزت البشرية هذه المرحلة انتقل بها الرسول الى أخرى وهكذا ، وهذا النمط الذى ينتهجه الأستاذ فى درسه مع التلاميذ ، اذ كان ذهنهم خاليا من ألوان العلم . وضروب المعرفة . ومعانى الثقافة يلتزم هذا المبدأ . والأنبياء والرســل لم يخرجوا عن كونهم أساتذة للبشرية ، ومعلمين لهذه الانسانية ، يسيرون على طريقة التدرج والانتقال ، ولهذا كانت رسالة الرســـول فى بعض الأحايين اقليمية محدودة بالزمان والمكان . وفى سورة هود من القرآن الكريم ما يدل على هذا التحديد ، أو النطاق الضيق الذى كانت فيه هذه الرسالات ، ولقد أرسلنا نوحا الى قومه .. والى عاد أخاهم هودا .. والى ثمود أخاهم صالحا .. والى مدين أخاهم شعيبا .. ويصور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا المعنى فى حديث من أحاديثـــه الشريفة

مضمونه — على الجملة — أن مثل مابعثه الله به والأنبياء من قبله كمثل بيت تكامل بنيانه ، وارتفعت جدرانه ، ولم يكن ينقصه الا موضع لبنة واحدة • فجعل الناس يطوفون به ، وينظرون اليه ، وهم معجبون به ، مأخوذون بحسنه ، وكانوا يقولون كلما طافوا به ، ونظروا اليه ، ما أجمل شكله ، وأحسن منظره ، وأروع ابداعه ، لولا موضع هذه اللبنة ، فأنا هذه اللبنة التي يكمل بها البناء غير أنه لا نبي بعدى ، والمهمة التي من أجلها أرسل الله الأنبياء مبشرين ومنذرين تكاد تكون واحدة في الغرض والغاية ، والمغزى والمقصد ، وهي الايمان بوحدانيته وافراده بالخضوع والطاعة والاعتقاد في كماله الذى لاحد له ، ولهذا يقول سبحانه وتعالى مخاطبا نبيه — صلى الله عليه وسلم — « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك » ومما لا شك فيه أن عيسى عليه السلام كان يبشر برسولنا عليه الصلاة والسلام • ولقد سجل القرآن الكريم حكاية ذلك عنه اذ يقول « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » ولقد مر بنا ما جاءت به كتب السيرة جميعا — من غير استثناء — من تحذير بحيرا الراهب لأبى طالب وهو ذاهب معه الى الشام فى تجارة له ، اذ قطع عليه الطريق وقال له ان اليهود يعرفون نعته من كتبهم التى تخبرهم بأنه هو النبى الذى يقضى على لعودهم ، ويحطم سلطانهم ، ويذيل دولتهم ، وهم لذلك يطلبون دمه ، ويريدون قتله ، وفي سورة القصص قوله تعالى « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون ، واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » وهي تحكى قصة الذين آمنوا بمحمد — صلى الله عليه وسلم — وقد كان لهم علم سابق بمقدمه الى الدنيا ، ورسالته الى الناس « آمنا به انا كنا من قبله مسلمين » وربما كانت هذه الآية أيضا من سورة الفتح من قبيل ما نحن بصدده « محمد — رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنو وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » فانها تسجل على أهل التوراة والانجيل — اليهود والنصارى — أن أوصاف محمد وأصحابه مذكورة عندهم فى التوراة والانجيل وحكاية القرآن عنهم ذلك دليل قاطع لا يتطرق اليه الشك ؟ ويقول سلمان الفارسى صحبت قسيسا • فكان يقول يا سلمان ، ان الله سوف يبعث رسولا اسمه أحمد يخرج من جبال

تهامة ، علامته أن يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة » وكان حديث هذا القسيس من أسباب اسلام سلمان .. وكان عاصم بن عمرو بن قتادة ينقل عن رجال من قومه أنهم قالوا انما دعانا الى الاسلام ما كنا نسمع من أحبار اليهود ، وكانت بيننا وبينهم عداوة وكانوا يتهددوننا بنبى يبعث سيقتلوننا معه قتل عاد وارم . فلما بعث سارعنا اليه حينما دعانا الى الله فآمنا وكفروا .. وكان أمية ابن أبى الصلت ـ الشاعر ـ يقول انى لأجد فى الكتب صفة نبى يبعث فى بلادنا .. وقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن وصفه فى التوراة فقال « عبدى أحمد المختار ، مولده مكة ، ومهاجره بالمدينة ، وأمته الحمادون لله على كل حال .. وروى القاضى عياض فى كتابه الشفاء أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال « أجل والله انه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن « يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا » وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا اله الا الله . ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا » .

وقد دأب بعض اخواننا الذين يتناولون هذا الموضوع « البشارة به فى الكتب السابقة » أن ينقلوا الينا نصوصا من التوراة والانجيل لتكون بمثابة الشاهد أو الدليل على هذه الدعوى فى حين أن مصدر الشاهد نفسه غير موثوق به .. وقد كان كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بجانبى ، ولما فتحته على غير ترقب لما يسعفنى به من الآيات البينات ، واذا بنظرى يقع على هذه الآيات من سورة البقرة « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون .. مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .. ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ان الله على كل شىء قدير .. وقالت اليهود ليست النصارى على شىء . وقالت النصارى ليست اليهود على شىء . وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » وهى صريحة فى أنهم على علم سابق برسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنهم ـ كما تقول الآية الكريمة أيضا ـ « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » ويظهر أن هذا

الجحود كان لهم من ورائه مصلحة تتصل بنفوذهم وسلطانهم ، فان هؤلاء جميعا تحول بهم الوضع الدينى الذى كانوا يتبوؤنه من دعوة الى الله ، وتخويف من عقابه ، وترغيب فى ثوابه ، الى نفوذ دنيوى يأكلون به لقمة العيش ، وجعلوا أمر الحلال والحرام « قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا » ولقد أثبت التاريخ أنهم فعلوا ذلك ، واشتركوا مع رجال الحكم والسلطان فى امتصاص دماء الناس ، وظلم طبقـات الشعب ، وتسخير الرعية لخدمتهم ، باسم الدين وصوت الملأ الأعلى ، وهذا هو الذى يوحى به قوله تعالى « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم » وربما كان هذا أيضا من عوامل الصراع القائم بينهم ــ فيما بعد ــ « وقالت اليهود ليست النصـــارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء » . وقديما قالوا اذا اختلف النصـــان ظهـــر المسروق ٠٠ ونحن نترك ذلك كله للتاريخ يلعنهم ، ويسـفه آراءهم ، ويهزأ بهم ، ويزدرى تفكيرهم وعقولهم ، ونقول لهم بعـــد هذا وهذا ما الذى جعلكم تصكون أسماعكم ، وتغلقون قلوبـكم ، وتعرضون بوجوهكم ، وتجعلون بينكم وبين محمد ــ صـلى الله عليـه وسلم ــ هذه الحرب ، وقد كان شعاره الذى أعلنه ، ومبدأه الذى التزم به « تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شـيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا » وهى ميزان دقيق فى علاقة الانسان بربه وعلاقته ــ كذلك ــ بأبنـاء جنسه من الناس ، فلا يذل أحد لأحـد ، ولا يخضع له خضوع العبد لسيده ، والناس كلهم لآدم ٠ وآدم من تراب لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ٠٠ وبيننا وبين هؤلاء واحدة من اثنتين ٠٠ اما أن يدلونا على نقص شريعتنـــا فنتدارك هذا النقص ونكمله من شريعتهم ، أو ندلهم نحن ليأخذوا منا ما يكمل ما عنـــدهم ، وحينئذ يكونــون قد استجابوا لهذا النداء « تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم » والذى ينشد الحق يستهين بكل صعب يحتمله من أجله ويلقاه فى سبيله ٠٠ وقد كانت دعوة الرســل جميعا ٠ تهدف الى الحق ، وترمى الى الصـــواب ، واحتمالهم للأذى ، ولقاؤهم للعنت ٠ كان لونا من ألوان الجهاد لاقرار الحق ، وسيادة الصواب ، وتمكين ما يجب أن يكون ٠ ولم يكن واحد منهم ينكر دعوة صاحبه ، وما كان كل واحد منهم الا حجرا فى البناء « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكتـــه وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » ٠

صراعه مع المشركين

التجأت قريش مع النبى صلى الله عليه وسلم الى العنت والمكابرة بعد أن فشلت فى كل محاولة ، وخابت فى كل سعى • وأخفقت فى كل جهد • ظنا منها أن العنت والمكابرة ينطليـان على الأغـرار • فيتسرب اليأس الى نفوسهم ، ويسرى الوهن الى أفئدتهم ، ولا يكون هذا الرسول فى نظرهم الا صورة للرجل المغرور ، أو الانسان الأحمق ، الذى يقذف الدعاوى طويلة عريضة من غير دليـل • أو برهان يدعمهـا ، أو حجـة تصدقها • ولم يدر بخلدهم أن زيفهم هذا سينكشف ، وأن سـحابة الصيف لابد أن تنقشع • كما لم يدر بخلدهم ـ كذلك ـ أن الخصم الذى يلتجىء الى السلاح الهزيل يعلن من أول وهلة عن افلاسـه • وضيق عطنه ، وسفاهة رأيه ، وطيش عقله ، وأنه لا يزيد شـيئا ـ فى ميزان الحق ـ عن دموع المرأة التى تفزع اليها حينما يدركها الاعياء • وتلحق بها الهزيمة ، وهم أهل لدد ، وأرباب بيان ـ ودهاقين منطق ، وأساطين بلاغة ، وما كان يظن ظان أنهم سيلجأون الى هذا الانحدار ، أو يعتمدون على هذه المغالطة ، أو يفرون الى ساحة الاسفاف ، ويتهافتون الى ذلك الحد •• والذى يتتبع القـرآن الكريم ليقف على ما كان منهم من عنت أو مكابرة يجد الأعاجيب من هذه الأغاليط ، وتلك الأكاذيب ، وربما كان ذلك يبرز فى صورة واضحة اذ كانوا يتهمون ما ينزل به الوحى ، ويجىء اليه من ربه ، أنه كان من املاء رجل رومى يصـنع السيوف بمكة لمولاه « عامر بن الحضرمى » وقد قوى هذا الزعم عندهم أن ذلك الرومى من قوم لهم تشريع ، وثقافة ومعرفة ، وأن هذا الذى يردده ـ صـلى الله عليـه وسلم ـ فيه من المنطق • وله من سيما التهذيب والتربية ، وعليه من ملامح التذوق والأدب ، ما يروج لتلك الشبهة القائمة ، وتناسوا أن ذلك

الذى يقرؤه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من معين عربى بحت ، وبيان يعربى محض ، ليست عليه سحنة الترجمة ، ولا فيه طابع النقل ، وقد كان أولى بهم وهم نقدة الكلام ، وأصحاب الذوق الأدبى ، ودهاقين البلاغة، أن يلتفتوا الى البون الواسع بين الجنسين ، والفرق البعيد بين البيانين « لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » وكان الله سبحانه وتعالى قد أراد بذلك أن يفضح حالهم ، ويكشف للناس أمرهم « ليحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ... ولهذا كانت محاولاتهم واضحة التلفيق ، ظاهرة التزوير ، حتى بينهم وبين أنفسهم ، وليس أدل على ذلك من أن القرآن الكريم لسحر بيانه ، وعذوبة لفظه ، وقوة منطقه ، وشدة أسره ، ودقة تصويره ، وروعة تعبيره ، كان يستهويهم جماله ، ويبهرهم نسجه ، ويأخذهم حسنه ، فلا يملكون أن يتحولوا عنه ، أو يميلوا الى غير ناحيته . وكانوا لذلك يختلسون الخطى ، ويتنكرون فى أشكالهم حتى لا يعرفهم أحد . ويتحينون الفرصة السانحة ليستمعوا منه بعضا مما كان يقرؤه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أصحابه . حتى اذا ما فشا ذلك فيهم . وعرف عنهم . وخافوا أن تتمكن منهم الفرقة . وأن يتحولوا جميعا الى مفتونين بجرسه . مأخوذين بسحر ألفاظه . وجمال معانيه . تعاهدوا على الكف عنه . وعدم الاصغاء اليه . أو الاختلاف الى مجلسه ، وأكدوا بينهم المواثيق على ألا يفعلوا ، ثم كانت النتيجة أن كبارهم يتلبسون بالجريمة كل يوم . فان عاتب بعضهم بعضا فى ذلك ، أو لامه على أنه خاس بالعهد أو نقض الميثاق ، ادعى أنه كان يتجسس ليرى هل يذهب أحد ، وكأنما صاروا كلهم جواسيس .

ولما كان الكتاب الكريم قد تضمن قصصا جاء بها للاتعاظ . وهو نوع من التربية الحكيمة ، يأخذ به أرقى الأمم والشعوب فى تنشئة أبنائهم . كما قال سبحانه « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وظنوا هم أن محمدا يؤلف ذلك من خياله ، ويخترعه من وهمه ، قصدا الى التلهى ، وشغل الوقت . ليلتف حوله الفارغون من العمل . والمتعطلون عن الوظائف . بعثوا النضر بن الحارث ليطوف الممالك والأمصار . فذهب الى الروم والفرس ليجىء اليهم بما يشبه كتاب « ألف ليلة وليلة » ليعارض محمدا ـ صلى الله عليه وسلم . ـ ويحول وجوه الناس عنه « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين » وفاتهم أن الذى يقصه القرآن الكريم برهان قائم على أن محمدا لايختلق ولا يخترع ، ولا يدعى ما يجىء به ، ولا يزعم ما ينقله . « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين

... وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » وهو تاريخ ليس عندهم علمه ، ولا بأيديهم كتبه ، ولا بين ظهرانيهم رواته « ان هو الا وحى يوحى » .

وما كانوا يصدقون أن يكون الرسول من أبناء آدم ، وانما كانوا يتوهمون أنه من الملائكة « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » ونسوا أن الجنس أميل الى جنسه ، وأن الانسان انما يأنس الى الفه ، ويميل الى من كان على شاكلته ، « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » فلما تبين لهم تفاهة هذا الظن وضعف هذا الرأى . وسقوط تلك الدعوى . اتجهوا اتجاها آخر « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » يقصدون مكة والطائف وقد رد الله عليهم بما يقطع تعنتهم . ويقضى على اعتراضهم ، بأنه هو الذى يضع الأمور موضع الصواب ، ويصرف الأشياء التصريف اللائق « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

أما معارضتهم للقرآن ودعواهم الاتيان بمثله على الرغم من أن كبارهم نصحوا لهم بالسكوت عنه ، والتسليم له ، ووصفوه بالحلاوة والطلاوة والاغداق وكثرة الثمر ، فان حديثه يطول ، وحسبنا أن نقول ، انه تحداهم فعجزوا عن الاتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولم يبق بعد ذلك الا حديثه عن عالم الغيب من الجنة والنار ، والصراط والميزان . والجزاء على الأعمال يوم القيامة ، واعادة الأجسام بعد فنائها ، التى تعرض لها – صلى الله عليه وسلم – فى دعوته ، ليوقع الرهبة فى نفوسهم . والهلع فى قلوبهم . عسى أن يتخوفوا المصير ، ويحذروا سوء العاقبة . وقد كانت هذه – أيضا – محل تندر عندهم – ومجال تكذيب وشك فيما بينهم ، ولا سيما الشجرة التى تنبت فى أصل الجحيم ، ليأكل منها أهل النار ، فيشتد بهم الظمأ . ثم لا يجدون ماء يرتوون منه ، مبالغة فى العذاب والايلام « ان شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم .. والتى جاء ذكرها فى مكان آخر حيث يقول جل جلاله « انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين » ولم يعقلوا أن تنبت شجرة فى النار ، وتعيش فيها مع شدة اللهب ، وسبب ذلك أنهم قاسوا الدنيا على الآخرة ، وقدرة المخلوق على قدرة الخالق ، وما علموا أنه تعالى على كل شىء قدير .. وكان لخباب بن الأرت دين على واحد من هؤلاء الكفرة فلما طالبه به قال له

يا خباب سأدفعه لك يوم الحساب • يريد بذلك أن يتخلص منه •• مع أن عقلاءهم تحدثوا به كما جاء فى خطبة قس بن ساعدة الايادى • ولم ينكره الا هؤلاء الملاحدة الذين حكى عنهم القرآن بقوله « ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » ويقول المرحوم الشيخ الخضرى « ولما جهر عليه الصلاة والسلام بالدعوة سخروا منه ، واستهزؤا به ، فكان اذا مر عليهم يقولون هذا ابن أبى كبشة يكلم من السماء ، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء • لايزيدون على ذلك • فلما عاب آلهتهم ، وسفه عقولهم • وقال لهم والله ياقوم خالفتم دين أبيكم ابراهيم ثارت فى نفوسهم حمية الجاهلية غيرة على تلك الآلهة التى كان يعبدها آباؤهم • فذهبوا الى عمه أبى طالب سيد بنى هاشم الذى أخذ على نفسه حمايته من أيدى أعدائه • فطلبوا منه أن يخلى بينهم وبينه ، أو يكفه عما يقول • فردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه ، ومضى رسول الله لما يريده ، لايصده عن مراده شىء ، فتزايد الأمر ، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم — • وحث بعضهم بعضا على ذلك ، ثم مشوا الى أبى طالب مرة أخرى • وقالوا له ان لك سنا وشرفا ومنزلة منا ، وانا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا ، فانهم كانوا اذا احتجوا فى استمرارهم على عدم اتباع الحق ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له • ولما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جر ذلك الى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » فهاج ذلك أضغانهم وقالو لأبى طالب اما أن تكفه أو ننازلك واياه ، فعظم على أبى طالب فراق قومه ، فرجاه أن يكف ، فظن أنه خاذله • فقال له والله ياعمى الخ •• فقال أبو طالب قل يا بن أخى فو الله لا أخذلك ولا أسلمك •

أما الأستاذ الدكتور أحمد الشريف فانه يلخص هذه المواقف فيقول « لقد اتخذت قريش أساليب مختلفة فى مقاومة الدعوة الجديدة ••• بدأت المقاومة سلبية أول أمرها ، فقد أظهر رجال الملأ عدم الاكتراث بالدعوة الجديدة ، ونظروا اليها نظرة استخفاف ، فلم تعنهم كثيرا وظنوا صاحبها من أمثال ورقة بن نوفل وزيدا ابن عمرو بن نفيل من الساخطين على الأصنام الباحثين عن الحنيفية أو غيرها من الأديان الأخرى ، وان كان يختلف عنهم فى أنه يخبر أنه يتلقى من السماء الوحى ، وكان يحلو لهم أن يشيروا اليه كلما رأوه « هذا ابن عبد المطلب يكلم من السماء » ••• لكنهم ما لبثوا أن أدركوا أن الامر أخطر مما تصوروا ، فان محمدا يكتسب كل يوم أصحابا من رجالهم ومواليهم يتابعونه ويؤمنون به نبيا ورسولا ،

وأن هؤلاء الأصحاب ينشطون معه فى الدعوة لدينه ، ثم يرونه يجمع عشيرته من بني هاشم ، ويدعوهم الى الايمان بما يقول ، ويحاول أن يجعل منهم كتلة حوله ٠ ويرون عمه أبا طالب زعيم البيت الهاشمى ، وان كان لم يتابعه الى ما يدعو اليه ٠ فهو يشجعه ويقف الى جانبه ٠ ويرون محمدا يكثر الاجتماع بأصحابه الذين آمنوا به ٠ وهم رجال كل البطون القرشية ٠ وهو يتعرض للأصنام يسبها ٠ ولقريش يسفه أحلامها ٠ ويكفر آباءها ، واذن فهو أمر بقريش لا يصح السكوت عليه ٠ ولما كان رجال الملأ يدركون قيمة العصبية ، ويخشون خطرها لو تعرضوا لمحمد بالسوء فقد لجأوا الى أبى طالب يطلبون اليه أن يتدخل لمنع ابن أخيه من التعرض بالمهانة لمقدسات القبيلة وحرماتها ، فهم لايطيقون صبرا على شتم الآلهة ، وتسفيه الأحلام ، وتضليل الآباء ٠ ويلاين أبو طالب قومه ويردهم بالحسنى ، ولكنه لا يمنع محمدا ، ولا يتوقف محمد عما أخذ فيه ، ويعاود رجال الملأ الطلب ، ويشفعون طلبهم بالعرض ٠ فهم يعرضون أن يتركوا محمدا وما يدعو اليه على ألا يتعرض لسب الآلهة ، وشتم الآباء ، ثم يعرضون أن يقدموا رجلا من خير أبنائهم بديلا عن محمد يتبناه أبو طالب على أن يسلم اليهم محمدا ليقتلوه ان كان قد عجز عن رده ، فانه يدمر وحدة القبيلة ، ويهدد مكانتها ، ويستنكر أبو طالب هذا العرض ٠ ولقد فكر رجال قريش بحسب ما يفهمون من مثل الحياة عندهم ، وظنوها من محمد عملا للوصول الى غرض من أغراض الحياة وحسبوا من وقوف بنى هاشم الى جانبه نزعة الزعامة ، وغاية الى الرياسة ، فاستجابوا لاقتراح تقدم به عتبة بن ربيعة — أحد سادات قريش — حيث قال ألا أقوم الى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ٠ فقالوا بلى يا أبا الوليد قم اليه فكلمه ٠ فقال عتبة حتى جلس الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ٠ فقال يا ابن أخى ٠٠ انك منا حيث قد علمت ٠٠ من السلطة فى العشيرة ، والمكان فى النسب ٠ وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ٠ فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل بعضها ٠ فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قل يا أبا الوليد ٠٠ قال يابن أخى ان كنت انما تريد بما جئت من هذا الأمر ، مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ٠ فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، وحين أتم عتبة كلامه ، لم يزد النبى — صلى الله عليه وسلم — على أن تلا عليه شيئا من القرآن بهره فرجع الى

قومه فقال لهم ، انى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .. وقد يئست قريش من اغراء محمد فاتخذت طريق الجدال والانكار والاستهزاء والتعجيز بالأسئلة . والالحاح فى طلب المستحيل من الأعمال مع التصميم على الانكار ، لكن ايمان محمد برسالته وبما يوحى اليه كان أعظم من أن ينال منه انكار المنكرين ، واستهزاء المستهزئين ، عند ذلك لجأت الى طريقة الاضطهاد والتعذيب للمسلمين حتى تخيفهم فتردهم عن دينهم .

المعذبون

لما لم تفلح قريش في رد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن طريقه الذى سلكه • ولا عن دعوته التى آلى على نفســه الاســتمرار فيها حتى النهاية • لا تحوله عنها قوة ، ولا يصده طغيان • وقد خـاب ظنها فى أبى طالب الذى لم يرض أن يتخلى عن ابن أخيــه أو يخذله أو يسلمه ، وانما يقف بجانبه ويدافع عنه • مهما كلفه ذلك كله من ثمن • وقد كانت ترجـو وهو لايزال على دينهــا أن ينتصر لها ويضرب بسيفها ، الا أن شيئا من ذلك لم يتحقق • وكان من الضرورى ـ والحرب لا أخلاق لها ـ أن تستعمل معه ـ صــلى الله عليه وســلم ـ أحقر الأساليب • وأقذر الأسلحة ، فلا تتورع عن ايلام • ولا تتعفف عن كيــد • ولا تتأبى عن ضرر ، ولم تكتف بما كانت تلجأ اليه من قبل ، مثل القاء الأوساخ عليه وهو مار فى الطريق ، أو ساجد فى الصلاة ، ولا أن يكون ذلك من الصبيان والنساء • وانما يكون من الكبار والوجوه والأعيــان •• وكان الباعث الأول على ذلك أن ينفض أصحابه من حوله ، وأن ينصرف أتباعه عنـه ، وأن يتفرق المسلمون الذين كانوا يلتفون حوله • ليقف وحده فى الميدان أشبه بفلول الجيش المهزوم ان لم تهرب من ساحة المعركة تتعرض للأسر والتنكيل • ولقد نجحت فى ذلك كله الى حد ما ، وأصبحت مكة كلها تنكره وتتوارى بوجهها عنه ، فلا تفتح أبوابها له ، ولا تبادله التحية ، ولا يقبل كفارها بحال من الأحوال أن يرتفع صوته فيهم ، أو تدوى دعوته بينهم • كما أصبح المسلمون هنالك مهددين بالردة والانســلاخ عن عقيدتهم الجديدة ، ولقد عاد الى الكفر قوم من ضعاف الايمان حينما أحـ..وا أنهم معرضون للموت ، وهكذا يكون العنت الفاحش ، والايلام القذر • والكيد الوضيع ، والخصومات التى يسودها البغى والفجور •• الا أن النبى ـ

صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن ليشك أنه هو والمسلمون معه سيلاقون الهوان . ويحتملون الضيم ، ويمتحنون أشد أنواع الامتحان وأقساها « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » والايمان الصادق ، والعقيدة الراسخة ، واليقين القوى . والاذعان الصحيح . اذا عمر بها قلب المسلم لا يبالى بالصعاب ، ولا يأبه بالشدائد . ولا يهتز للمحن ، وقديما آمن السحرة بموسى بعد أن عمرت ضمائرهم بهديه وضاءت بصائرهم بدينه . وامتلأت أفئدتهم ثقة به . فلما هددهم فرعون بالقتل لم يكترثوا بتهديده ، ولم يضطربوا لوعيده . وقالوا له « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى » .. وكذلك فعل أصحاب العزائم القوية من أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلم يفرطوا فى دينهم ، أو يتحولوا عن نبيهم على الرغم من المشقات التى كانت تتوالى عليهم . والايلام الذى كان يحل بهم . وهذا هو بلال الحبشى مؤذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقد كان مملوكا لأمية بن خلف الجمحى يلاقى من مولاه هذا ما لا تحتمله الجبال ، ولا تصبر عليه النعال، ثم لا يؤثر ذلك فى عقيدته ، ولا يصرفه عن طيبته ، ولا يجعل قناته تلين لغامز ، اذ يخرجه أمية الى الرمضاء فى وهج الظهيرة ، ويأمره أن يرمى بجسده العارى فوقها ، ثم يكلفه حمل الحجر الثقيل ، ويقول له ... ستظل كذلك حتى تموت أو ترجع عن دين محمد ، فلا يكون رده عليه الا أن يقول أحد أحد ... والتاريخ يحدثنا أن أبا بكر رضى الله عنه أنقذ كثيرا من الموالى بشرائهم واعتاقهم أمثال بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولعل استسلام هؤلاء الموالى مع تعرضهم لهذه القسوة من أسيادهم دليل واضح على أن هذا الدين يتخطى الحواجز ، ويقطع الحديد ، ويقتحم الأسوار ، ولا يغلب سلطانه جبروت الطغاة ، ولا ارادة المتكبرين ، ولا بطش المتسلطين .. وكانت قصة التعذيب هذه كالمؤامرة العامة التى تحالفوا على انجازها ، وتعاهدوا على تنفيذها ، من غير محاباة ولا استثناء ، ولذلك لم تسلم قبيلة من القبائل من وصمتها ، ولا حى من الأحياء دون أن يتدنس بعارها . حتى عمر بن الخطاب انحدر فى ذلك ـ قبل اسلامه ـ فنكل بجارية له .. وبالغ فى تعذيبها . وطلب اليها أن تعود الى عبادة اللات والعزى ، ولم يفك خناقها ، ويحل وثاقها ، غير أبى بكر الذى اشتراها وأعتقها .. أما آل ياسر عمار وأبوه وأمه فانهم صورة أخرى للفداء والتضحية ، والثبات على المبدأ ، والتمسك بالحق ، والتفانى فى ذات الله ، والاستهانة بكل شدة فى سبيل العقيدة التى تعمر القلب ،

وتملأ الصدر ، وتحيا بها الروح في دنيا السعادة والبهجة ، والرضا والارتياح ، استبد بهم بنو مخزوم ، يسومونهم الظلم ، ويحملونهم على الكفر • وينكلون بهم التنكيل الذي لا ترضى به الانسانية ، ولا تقبله الكرامة ، ولا تستسيغه الأخلاق ، والذي كان أقله التعذيب بلفح الشمس ، وحرارة الرمضاء • وهو الأمر الذي لم يتحمله الرجل المتهدم أبو عمار - ياسر - اذ لفظ أنفاسه في حرارة الشمس ، وظمأ القلب ، وجوع البطن ، وايلام الروح ، وتعذيب البدن • ولا سيما وقد رأى أبا جهل اللعين يطعن زوجته في بطنها الطعنة التي أودت بحياتها ، وليس بعد ذلك كله طغيان يصدر عن نفوس قاسية • وقلوب جاحدة • ممعنة في الشر ، متناسية للاخلاق •• ولعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان ألمه أشد لأنه لم يكن يملك لهؤلاء جميعا سوى الرثاء والحسرة ، والألم والحزن • واللوعة والجزع « صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة » •• وقد كان يقول لخباب بن الأرت حينما ضج من الألم ، وضجر من التعذيب ، وطلب منه أن يدعو الله له ليكشف عنه هذه الغمة ، ويفرج عنه تلك الكربة : « ياخباب إنكم تتعجلون ، لقد كان الرجل ممن قبلكم يمشط بأمشاط الحديد فلا يرده ذلك عن دينه » •• وفي الحق انها لمحنة ليس بعدها تلك التي أصيب بها المسلمون في هذا الوقت لكن الذي يتذكر قذف النمرود لابراهيم عليه السلام في النار • وقصة أصحاب الأخدود التي ورد ذكرها في القرآن الكريم « قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » يؤمن أن الانسان هو الانسان في كل زمان ومكان ، وأن العقيدة كانت في كل وقت عند أصحابها الشيء الذي لا يستهان به ، ولا يتهاون فيه ، وأن أصحاب العقائد كانوا أبدا المثل الأعلى للثبات والصمود وعدم التحول أو الانحراف •• وقد يكون من المألوف في الصمود والثبات واحتمال الأذى • والاستهانة بالشدائد في سبيل العقيدة أو المبدأ أو ما شاكل ذلك أن يكون أصحاب هذه المواقف من الرجال لامن النساء فان الرجال كانوا دائما أبدا أصحاب هذا الاحتمال • لكن المرأة وهي هذا المخلوق الضعيف الذي لم يألف المشاق ، أو لم يتعود الشدائد ، كان الزج بها في هذا الميدان ظلما صارخا • وهو في الوقت نفسه عنوان على أن الذي يزج بها في هذا المعترك قد تجرد من المروءة وخلا عن الذوق ، وخربت نفسه من معاني الانسانية • ولذلك فان الذي يقرأ قصص هذا التعذيب الذي لاقاه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويقع بصره وهو يتابع هذا القصص على اسم جارية من الجواري أو امرأة من النساء لايسعه الا أن يقابل ذلك بالامتعاض الشديد • وقد كان يظن أن أم عمار بن ياسر انما تناولها التعذيب لأنه كان موجها للأسرة كلها رجالا

ونساء . على أن المفروض فى المرأة على الجملة ألا تكون زعيمة يقلدها الجمهور . أو يتأسى بها العامة . لهذا كان التعرض لها بالايلام أو التعذيب غير جائز .. وقد ذكرت كتب السيرة أسماء اناث تعرضن لهذا الامتحان كما تعرض الرجال سواء بسواء وهو ان دل على شيء فانما يدل على القسوة والغلظة وأن الروح الباعثة على الايذاء كانت من الضراوة والقسوة بحيث تخلع على أصحابها ألقاب السفاكين أو الفجرة على الأقل .. من هؤلاء الاناث « زنيرة » التى كان يعذبها عمر بن الخطاب قبل اسلامه . وقد انضم اليه فى تعذيبها أبو جهل الذى ظل ينكل بها حتى عميت . فلما عميت قال لها ان اللات والعزى فعلا بك ذلك . فقالت وما تدرى اللات والعزى من يعبدهما ، ولكن هذا الأمر من السماء ، وربى قادر على رد بصرى : فأصبحت من الغد وقد رد بصرها ، ومنهن بثينة جارية بنى المؤمل ، والنهدية مولاة بنى نهد .. ومنهن « أم عنيس » أمة لبنى زهرة كان سيدها يعذبها .. وأخبار التعذيب هذه وان كان تسىء الى الخلق العربى . والضمير العربى ، فانها باتصالها بالنساء تكون أكبر اساءة . وأعظم عارا . ويبقى بعد ذلك كله سؤال نوجهه الى هؤلاء الذين زعموا أن دين محمد — صلى الله عليه وسلم — قد انتشر بالسيف لا بالحجة ، وبالالجاء لا بالاختيار ، وبالعنف لا بالدليل . وهو كيف كان هؤلاء المعذبون يسخرون من القوة المسلطة عليهم . والجبروت المتحكم فيهم . ثم ألم يكن تمسكهم الى هذا الحد بالعقيدة دليل على ان هنالك اذعانا واختيارا وايمانا خالط اللحم والدم .. واذا كنا ونحن نذكر هؤلاء الأسماء من الرجال أو النساء كصور للتعذيب الذى لاقاه أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى سبيل العقيدة أو المبدأ ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أروع صورة مدى حياته كلها منذ أول يوم حمل فيه الأمانة وأدى الرسالة وجاهد فى الله حق جهاده .

المستهزئون

كانت حروب المشركين للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ متعددة الميادين ، متنوعة الأسلحة . لأن عداوتهم الشديدة ، وحقدهم الكالح . وغيظهم الدفين . وما سوى ذلك من ألوان الكراهية . شغلت تفكيرهم ، وملأت قلوبهم ، فجعلوا يبدعون ويخترعون فى الكيد له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتعكير صفوه . رجاء ألا يهدأ له بال ، أو تستقر له حال . وقد باشروا فى حربه ، والتنكيل به . والخصومات له . والتنغيص عليه ، والصد عنه . كل لون يدور بخلد الأشرار . ويخطر بذهن عصابات الاجرام الا أن القرآن الكريم خص جماعة من هؤلاء باسم المستهزئين فى قوله جل جلاله فى آخر سورة الحجر « انا كيفناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وذلك لأنهم مع الاعراض عنه ، والتكذيب له ، والتشويش عليه ، كانوا يزيدون على غيرهم بنوع من الحرب وهو السخرية والاستهزاء . ومن غريب المصادفات أن يكون فيهم أحد أعمامه ، وهو ما يضاعف من الجريمة ، ويزيد فى ايلامها ، وسوء وقعها ، وشناعة مأتاها .. وقد ذكر الفخر الرازى فى تفسيره أنهم خمسة .. الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدى بن قيس ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، قال جبريل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنا أكفيكهم ، فأومأ الى عقب الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم ولم ينعطف لأخذه فقطعه فمات ، وأومأ الى أخمص العاص بن وائل فدخلت فيه شوكة فقال لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات ، وأشار الى عينى الأسود بن المطلب فعمى ، وأشار

الى أنف عدى بن قيس فامتخط قيحا فمات ، وأشـــار الى الأســود بن عبد يغوث وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح رأســـه بالشجرة ويضرب وجهه بالشـــوك حتى مات ٠٠ ثم قال واعلم أن المفسرين قد اختلفوا فى عدد هؤلاء المستهزئين وفى أسمائهم ٠ وفى كيفيـة طريق استهزائهم ٠ ولا حاجة الى شئ منها ، والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة لأن أمثالهم هم الذين يقـدرون على اظهار السفاهة مع مثل رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى علو قدره ٠ وعظم منصبه ٠ وقد دل القـــرآن على أن الله أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم » ٠٠ الا أن الشيخ الخضرى ـ على عادته من الدقة والتحرى ـ يتحدث عنهم فيقول « ورأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثير الأذى ٠ وعظيم الشدة ، خصوصا اذا ذهب الى الصلاة عند البيت ، وكان من أعظمهم أذى جماعة سموا لكثرة أذاهم بالمستهزئين ٠

فأولهم وأشـدهم أبو جهل عمرو بن هشـــام بن المغيرة المخزومى القرشى ـ خال عمر بن الخطاب ـ قال يوما يامعشر قريش ان محمـــدا قد أتى ما ترون من عيب دينكم ، وشتم آلهتكم ، وتسفيه أحـــلامكم ، وسب آبائكم ، انى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجـر لا أطيق حمـله ، فاذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه ، فأسلمونى بعد ذلك أو امنعونى ٠ فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فلما أصبح أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ينتظره ، وغدا عليه السلام كما كان يغدو الى صـــلاته ، وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهـــل فاعل ، فلما سجد عليه السلام احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى اذا دنا منه رجع منهزما ممتقعا لونه من الفزع ورمى حجره من يده فقام اليه رجال من قريش فقالوا مالك يا أبا الحكم ٠ قال قمت اليه لأفعـــل ماقلت لكم فلما دنوت منه عرض لى فحل من الابل ٠ ووالله ما رأيت مثله قط وقد هم أن يأكلني ٠ فلما ذكر ذلك لرسول الله ، قال ذاك جبريل ولو دنا لأخذه ، وكان أبو جهل كثيرا ما ينهى الرسول عن صلاته في البيت ، فقال له مرة بعد أن رآه يصلي ألم أنهك عن هذا ٠ فأغلظ له رسول الله القول وهدده ٠ فقال له أتهددني وأنا أكثر أهل الوادى ناديا ، فأنزل الله تهديدا له في آخر سورة اقرأ « كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة فليدع ناديه ٠ سندعو الزبانية ٠٠ كلا لا تطعه واسجد واقترب » ومن أذيته للرسول ماحكاه عبد الله بن مسعود من رواية البخارى قال كنا مع رسول الله فى المسجد وهو يصلى فقال أبو جهل ألا رجل يقوم الى فرث جزور بني فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد فقال عقبة بن أبى معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس وجاء بذلك الفرث فألقـاه على النبى ـ

صلى الله عليه وسلم ـ وهو ساجد فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا في المسجد على القائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم . ولم يزل عليه السلام ساجدا حتى جاءت فاطمة ابنته فأخذت القذر ورمته فلما قام دعا على من صنع به ذلك : فقال اللهم عليك الملأ من قريش وسمى أقواما قال ابن مسعود وقد رأيتهم قتلوا يوم بدر .. ومما حصل لرسول الله مع أبي جهل أن ابتاع اجمالا من رجل يقال له الأراشي فمطله بأثمانها فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله . فدلوه على رسول الله لينصفه من أبي جهل استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول ، فتوجه الرجل اليه وطلب منه المساعدة على أبي جهل ، فخرج معه حتى ضرب عليه بابه ، فقال من هذا .. قال محمد .. فخرج ممتقعا لونه ، فقال له الرسول أعط هذا حقه . فقال أبو جهل لا تبرح حتى تأخذه ، فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه ، فقالت قريش ويلك يا أبا الحكم ما رأينا مثل ما صنعت . قال ويلكم ماهو الا أن ضرب على بابي حتى سمعت صوتا ملئت منه رعبا وان فوق رأسي فحلا من الابل ما رأيت مثله ..

ثانيهم : أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله كان أشد عليه من الأباعد ، فكان يرمي القذر على بابه لأنه كان جارا له . فكان الرسول يطرحه ويقول يا بني عبد مناف أي جوار هذا .. وكانت تشاركه في قبيح عمله زوجته أم جميل بنت حرب بن أمية ، اذ كانت كثيرا ما تسب رسول الله وتتكلم فيه بالنمائم ، وخصوصا بعد أن نزل فيها وفي زوجها السورة « تبت يدا أبي لهب » .

ثالثهم : عقبة بن أبي معيط كان الجار الثاني لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وكان يعمل معه كأبي لهب . صنع مرة وليمة دعا اليها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله فتشهد فبلغ ذلك أمية بن خلف الجمحي القرشي وكان صديقا له . فقال ماشيء بلغني عنك قال لا شيء دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له .. قال وجهي من وجهك حرام ان لقيت محمدا فلم تطأ عنقه ، وتبصق في وجهه . وتلطم عينه ، فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك فأنزل الله فيه من سورة الفرقان « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا » .. ومن أشد ما صنعه ذلك الشقي برسول الله ما رواه البخاري في صحيحه قال بينما النبي في حجر الكعبة اذ أقبل عقبة بن أبي معيط

فوضع ثوبه في عنق رسول الله فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى ـ صلى الله عليه وسـلم ـ وقال « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ·

رابعهم : العاصى بن وائل السهمى القرشى ـ والد عمرو بن العاص ـ كان شديد العداوة لرسول الله ، وكان يقول عن محمد أصحابه أن يحيوا بعد الموت · والله ما يهلكنا الا الدهر · فقال الله ردا عليه فى دعواه من سورة الجاثية « وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الى الدهر ما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » وكان عليه دين لخباب بن الأرت فتقاضاه اياه فقال العاصى أليس يزعم محمد هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما يتبغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم · قال خباب بلى ، قال فأنظرنى الى هذا اليوم · فسأوتى مالا وولدا وأقضيك دينك ، فأنزل الله فيه من سورة مريم « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ، أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا · كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا ؟ » ·

الخامس : الأسـود بن عبد يغوث الزهرى القرشى من بنى زهرة أخوال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان اذا رأى أصحاب النبى مقبلين يقول قد جاءكم ملوك الأرض استهزاء بهم لأنهم كانوا متقشفين ، ثيابهم رثة ، وعيشهم خشن ، وكان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم أما كلمت اليوم من السماء ·

السادس : الأسود بن المطلب الأسـدى ابن عم خديجة · كان هو وشيعته اذا مر عليهم المسلمون يتغامزون وفيهم نزل قوله تعالى من سورة المطففين « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون » ··

السابع : الوليد بن المغيرة عم أبى جهل ·· كان من عظماء قريش فى سعة من العيش · سمع القرآن مرة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فقال لقومه بنى مخزوم والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وانه يعلو وما يعلى عليه ، فقالت قريش صبأ والله الوليد ، لتصبأن قريش كلها ، فقال أبو جهل أنا أكفيكموه ، فتوجه نحوه وقعد اليه حزينا وكلمه بما أحماه فقام فأتاهم فقال تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يهوس ، ويقولون انه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ، وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط · وتزعمون أنه كذاب

فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ٠٠ فقالوا فى كل ذلك اللهم لا ٠٠ ثم قالوا فما هو ٠ ففكر قليلا ثم قال ما هو الا ساحر ٠٠ أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ٠ فارتج النادى فرحا فأنزل الله فى شأنه فى سورة المدثر مخاطبا لرسوله « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيدا ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر ٠ فقتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر ، سأصليه سقر » وأنزل فيه أيضا فى سورة « ن » ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ٠ سنسمه على الخرطوم » ٠

الثامن : النضر بن الحارث العبدرى من بنى عبد الدار بن قصى كان اذا جلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجلسا للناس يحدثهم ويذكرهم ما أصاب من قبلهم قال النضر هلموا يامعشر قريش فانى أحسن منه ثم يحدث عن ملوك فارس ٠ وكان يعلم أحاديثهم ٠ ويقول ما أحاديث محمد الا أساطير الأولين ، وفيه نزل من سورة لقمان « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ٠ واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم » وكل هؤلاء انتقم الله منهم كما قال تعالى فى سورة الحجر « انا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون » فمنهم من مات قتيلا كأبى جهل ، والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط ، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة هلك منها كأبى لهب والعاص بن وائل السهمى والوليد بن المغيرة ٠ وهكذا يصدق قوله جل جلاله « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا » ٠

التحدى الباطل

لم تترك قريش مع النبى صلى الله عليه وسلم بابا من العناد الا ولجته ، ولا أسلوبا من الايلام الا اتخذته · ولا طريقا للأذى الا سلكته ، وقد تحداها بالعقل فلم تخضع ، وجادلها بالمنطق فلم تذعن ، ودعاها بالحسنى فلم تستجب ، وفى كثير من أحوالها معه · ومواقفها منه ، كان ضعفها باديا ، وهزالها واضحا ، وصغار سلوكها ظاهرا ، واذا كانت الحرب أنبل ما تكون بين الطرفين حينما تكون متكافئة العدد والعدة ، والسلاح والميدان ، فان قريشا فى كل مناوآتها له صلى الله عليه وسلم · أو خروجها عليه ، أو عنادها له ، أو منازلتها اياه ، لم تراع هذا القانون ، أو تلتزم بهذا المبدأ ، وفى الوقت الذى كان سلاحه هو المنطق البحت ، والعقل الصراح ، والتفكير السليم ، والرأى الصواب ، والحجة الواضحة ، والبرهان القاطع · كانوا هم يعتمدون على بذاءة اللسان ، وفحش القول ، واختلاق الدعاوى ، واختراع التهم ، والتخبط فى المواقف ، والاعتماد على المكابرة ، والالتجاء الى المهاترة ، وأساليب الصبيان ، وردود الحمقى ، ولو كان لهم حكومة عادلة ، أو قضاء نزيه ، أو رأى سديد · لدانهم من أول وهلة بأنهم لا يطلبون الحق ، ولا ينشدون الانصاف ، ولا يستريحون للأوضاع السليمة ، وقد دل تاريخهم التافه ، وحياتهم المضطربة ، ومنطقهم المتخبط ، وسلوكهم الآفن ، على أن فى مواقفهم مع النبى صلى الله عليه وسلم من التحدى الباطل ما لا يمكن بحال من الأحوال أن ينسب الى قوم فيهم بقية من عقل ، أو أثارة من رأى ··· وهل كان من العقل مثلا أن يطلبوا منه أن يتبادلوا واياه عبادة الآلهة ، يعبدون ربه هونا ما من الوقت ليعبد هو كذلك آلهتهم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وهو ــ كما نرى ــ اقتراح لا مغزى له · ولا فائدة منه ، ولا منطق وراءه « قل يا أيها

الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين » اللهم الا أن يكون ذلك منطق الأطفال ، وتفكير الصغار ، وعبث الحمقى ، ومثل هذه التصرفات، وذلك السلوك ، لا يحسم خلافا ، ولا ينهى نزاعا ، ولا يصل باثنين يقوم النزاع بينهما على حق وباطل أن يضعا أيديهما على ضالتهما المنشودة ، وانما يخرج بالقضية المتنازع عليها الى أن تصير كرة يركلها برجلـــه كل واحد من الطرفين ، وقد كان ذلك لونا من التحدى الذى نزل بأصحابه عن مستوى المسئولية على كل حال .. وربما كان أكثر من هذه الصورة فى باب الهزال والهراء ، والخرف والحمق ، والسذاجة واللهو ، والطفولة والحداثة ، أن يطلبو منه صلى الله عليه وسلم أن يطرح جانبا من القرآن الكريم تلك الآيات التى تتناول آلهتهم ، وتسفه أحلامهم ، وتتوعدهم بسوء المصير ، كأن ذلك من حقه أن يفعله « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قـــال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قـــل مـــا يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان اتبع الا ما يوحى الى انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم » والخصومة التى تصل الى هذا الحد تتحول من كونها خصومة الى تعنت ، ويتحول الصراع الجدلى فيها الى ما يمكن أن يسمى مهاترة ، لأن الشأن فى الجدل أن يكون رأيا آخر ، وحجة تقاوم أخرى ، ومنطقا يبطل منطقا ، فاذا خلا من ذلك كله كان هذرا أو هذيانا أو سفسطة على أن السفسطة تزعم المنطق أو تدعيه ، لكن هذا اللون من الصراع لا يقوم على المنطق ولا يدعيه أو يزعمه ومن هذه الألوان التافهة من الاقتراحات ــ أو التحدى ــ طلبهم منه صلى الله عليه وسلم أن يطرد من مجلسه جماعة الفقراء من المسلمين ، ان كان يريد من هؤلاء الاغنياء أن يكونوا على دينه ، يعملون بشريعته ويؤمنون بكتابه ، لأن وضعهم الاجتماعى لا يسمح لهـــم أن ينزلوا الى هذا المستوى ، أو ينحدروا الى ذلك الوضع . ولكن دينه الذى سوى بين الناس . وأذاب الفوارق بين الطبقات ، وجاء على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » رفض هذا الاقتراح . ولم يستجب لذلك الطلب . وصرخ فى أذنيه بهذا الصوت « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعـــد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيـــا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » وهو الزام للنبى صلى الله عليه وسلم ألا يزن الناس الا بميزان الدين ، غير ملتفت الى جاه أو سلطان ، وثروة أو غنى ، حتى ولو كان ذلك من قبيل تأليف قلوبهم . أو الاغراء لهم بأنه سيجعل لهم فى المستقبل فضل السبق ، أو ميزة التقديم والصدارة ، ولقد حدث مرة أن وفد عليه صلى الله عليه وسلم صناديد قريش فاستقبلهم بحفاوة ، واهتم بهم اهتماما عظيما . وكان يرجو من وراء ذلك أن يسلموا ليكـــون

اسلامهم هذا سببا فى اسلام خلق كثير • وهنالك حضر اليه عبد الله بن أم مكتوم وأخذ يلح عليه أن يعلمه القرآن ، وقد تغاضى عنه صلى الله عليه وسلم مرة وأخرى حتى لا يحول اشتغاله به ، وانصرافه اليه ، بينه وبين هؤلاء الصناديد • لكن عبد الله بن أم مكتوم ألح وبالغ فى الالحاح • وحينئذ نزل عليه قوله تعالى « عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى الخ السورة » فكان الرسول بعد ذلك يكرمه اذا رآه ، ويبسط له رداءه • ويقول له ••• مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى • وقد استخلفه على المدينة مرتين ، وكان من المهاجرين الأولين ، ومات شهيدا بالقادسية •

وقد كانت حياة كفار مكة مع النبى صلى الله عليه وسلم دائما أبدا على هذه الشاكلة من الصراع والعناد والاستهزاء والسخرية والعنت لا يفرغون من لون الا الى آخر • ولا ينتهون من أسلوب الا أخذوا فى غيره وهكذا دواليك ، وكان الرسول مع ذلك كله يستجيب لهم ويجاريهم حتى لا تكون لهم حجة عليه ، وحتى يفرغوا من جرابهم ـ كذلك ـ آخر ما يضمرونه من عناد واصرار على الباطل ، ولما رأوا أن مثل هذه المطالب لا تصل الى حد الاحراج والايلام انتقلوا بالتحدى الباطل الذى كانوا يشتغلون به الى صورة جديدة تلك أن يكون عنتهم فيما يشبه أن يكون خلقا وتكوينا وشيئا مما يدخل فى امكان الخالق لا المخلوق ••• وحينئذ طلبوا منه أن يشق لهم القمر نصفين وهم لا يشكون فى أن الآيات الكونية ليس مما يدخل فى قدرة محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس ذلك مما يعتبره الناس فى حدود امكانه لأن التحدى انما يكون بما هو داخل فى قدرة المتحدى وامكانه ، أما ما لم يكن فى مقدوره ، ولا مألوفا لمثله ، ولا من طبيعته فمن الحمق أن يكلف به ، ولكنه العنت الذى لا منطق له ولا خلق أيضا ، ومحمد صلى الله عليه وسلم الذى تدعمه القدرة الالهية ، لأنه رسول رب العالمين ، يقف الى جانبه ربه فلا يتركه ولا يتخلى عنه • ويشق له القمر نصفين ، ويراه الناس فى جزأين منفصلين كأنما هما كوكبان معلقان فى الفضاء ، وكأنما كان هؤلاء الذين قطعوا سبحهم للتحدى لا أكثر ولا أقل يشاهدون شريطا سينمائيا لا يعنيهم منه الاعتبار وانما يعنيهم فقط امتاع الخاطر ، أو الترويح عن النفس « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ، ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر » •• وصدق الله العظيم فى كل ما أخبر به عنهم فانهم لم يؤمنوا بمحمد ولم يذعنوا له ولم يتخلوا عن العناد والكفر « وكذبوا واتبعوا أهواءهم » وحينما رأوا ذلك قال بعضهم لبعض سحركم ابن أبى كبشة • ولم يزدادوا الا عتوا ونفورا ، وظل ضميرهم الميت على برودته لا يحاسبهم

ولا يوقظ فيهم الوعي الصحيح •• وأخذوا يستمرون على هذا الأسلوب ، وينحدرون في هذا التيار ، ويحلقون في صلتهم به ، ومعاملتهم له ، في سماء من الخيال المشوش ، والأحلام الكاذبة ، وجاؤا من جديد يقولون له ان ايمانهم به يتوقف على تلك المعجزات التي يريهم اياها ، ويجعلها ماثلة لهم ، يشاهدونها بأعينهم ، ويلمسونها بأيديهم •

الأولى : أن يفجر لهم من تلك الأرض الصلبة اليباب الموحشة عينا من الماء المتدفق الغزير ، يشرب منها الحيوان والانسان ، وينمو بها الزرع والضرع ، وتتحول بها هذه الصحراء الى جنة تؤتي أكلها كل حين باذن ربها •

الثانية : أن يفتحوا أعينهم ليروه وقد صارت له حديقة من ألوان الفاكهة ، وضروب الثمار ، وأنواع الزهور والرياحين ، وشتى صنوف النخيل والأعناب ، يتمتع بها الخاطر ، ويستريح لها الفؤاد ، ويجد كل انسان فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وبعد ذلك كله تجري من تحتها الأنهار •

الثالثة : أن يسقط السماء قطعا متناثرة على رؤوس المخالفين له ، الخارجين عليه ، كما كان يزعم لهم أو يدعيه وهو يجادلهم في أمر دينه •

الرابعة : أن يأتي بالله الذي يؤيده بوحيه ، وينصره بملائكته ، ليشاهدوه وليقفوا الى جانبه في دعوته ، ولينصروه في خصومته •

الخامس : أن يكون له بيت من ذهب يتناسب مع جلال الرسالة التي جاء بها ، والمهمة التي يقوم بها ، لأن الملوك لهم عروش وجند وخدم وقصور ويعيشون في ترف خيالي •• وهو من غير شك أعظم من هؤلاء عند الله فلا أقل من أن يكون له بيت من زخرف ••

السادس : أن يرقى الى السماء التي فيها ربه الذي اجتباه بالرسالة ، وفضله على الناس • وبعث اليه جبريل ، وأنزل عليه القرآن ، وخصه بالمعراج على أنهم لا يعترفون بصعوده الى السماء • ما لم يؤيده الدليل القوي • والبرهان المتمثل في كتاب يحمله معه ، يعترف له ربه فيه برقيه اليه • ولقائه له • ومواجهته اياه « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا » كأنما يقول لهم هذه أشياء تخرج عن طوق البشر « هل كنت الا بشرا

رسولا » ... ويظهر من قوله تعالى بعد هذه الآية « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا » أنهم كانوا لا يعرفون شيئا عن الأديان السابقة ـ موسى وعيسى وابراهيم وهود وصالح وشعيب وغيرهم ـ فاستنكروا أن يكون الرسول بشرا وقد كان هؤلاء ـ من البشر ـ رسلا مبشرين ومنذرين ، وهم من غير شك يعرفون أن ذلك كان من قبيل هذا التحدى الذى وقفوا سبحهم عليه ، وصرفوا جهدهم له . على أن الرسول لو كان ـ كما يقترحون ـ من الملائكة للزم أن يكون قومهم ـ كذلك ـ من الملائكة ، لأن الجنس انما يطمئن الى جنسه ، فيعيش معه ، ويأخذ عنه ، ويطمئن اليه ، ويبادله المنفعة « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » .. والذى يريد أن يحصى عليهم مثل هذا التحدى لا يستطيع أن ينتهى منه لأنه كان لونا من الحرب الباردة التى ظلوا مدى الحياة يشتغلون بها من غير ملل ولا سأم .

الهجرة الى الحبشة

جربت قريش مع محمد صلى الله عليه وسلم كل ألوان المعارضة له ، والصد عن سبيله ، والوقوف في وجهه · والتشويه لدعوته ، والايذاء لأصحابه والتنكيل بهم · ثم جربت كذلك ألوان التحدى المكشوف ، والحرب الباردة · كما جربت كذلك ألوان الاغراء التى أرادت بها أن تخدع محمدا صلى الله عليه وسلم ليحول قلبه عن ذلك الطريق الذى انحدر فيه · ويبالغ فى الايمان به ، والاخلاص له ، والتفانى فى الدعوة اليه ، الا أنهم على الرغم من الايذاء الذى افتنوا فيه ، والسخرية التى لم يتورعوا عنها ، وقطعهم الطريق عليه كلما هم بدعوة انسان ، أو أعلن دينه فى محفل من المحافل · أو مجتمع من المجتمعات ، لم يجرؤا على أن يتجاوزوا ذلك الى قتله ، لأن عمه أبا طالب كان واقفا لهم بالمرصاد ، وبنو هاشم كلهم خلفه ، والاقدام على مثل هذا الطيش يعرض قريشا لحرب لا قبل لها بها ، ولا طاقة عندها لمثلها · فكان من الضرورى أن تمعن فى الغضب عليه وعلى أصحابه ، وأن تسترسل فى الايلام والكيد ، والأذى والضرر ، والتنكيل والارهاق · وأن يقفوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله ··

وهنالك أذن النبى صلى الله عليه وسلم للمسلمين فى الهجرة الى الحبشة « ومن يهاجر في سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة » وقال لهم حينئذ « ان بها ملكا لا يظلم جاره ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » فتسللوا فى ظلام الليل ، ولما انتهى خبر تسللهم الى قريش أسرعت لتقطع عليهم منافذ الطرق · وتردهم الى مكة ، لتواصل الحملة عليهم ، وتتمادى فى تعذيبهم وتسد عليهم كل مسلك ، ليعودوا الى ما كانوا عليه من الوثنية والشرك · ولكن قضاء الله كان أسرع من

ارادتهم ، ولطفه كان أسبق من حيلتهم ، اذ مضوا فى طريقهم من غـير عائق ولا مانع .. غير أنهم ما كادوا يصلون الى الحبشة ويستقر بهـا قرارهم حتى كان الكفـار قـد غليت مراجـل غضـبهم ، وثارت براكين حقدهم . وبعثوا عمرو بن العاص . وعبد الله بن أبى ربيعه . وعمـر ابن المغيرة المخزومى بهدايا وتحف الى ملك الحبشة ، وكان معهما عمارة ابن الوليد بن المغيرة المخزومى . وقد طلب هذا الوفد من النجاشى أن يرد المهاجرين الى قومهم . وقالوا له فيما قالوا له انهم فارون تركوا دينهم الذى كانوا عليه . واعتنقوا دينا جديدا يعادى الأديان كلها . ويقول فى عيسى بن مريم قولا لا يليق به ولا بأمه .. وقد اهتز النجاشى والبطارقة معه لهـذا القـول واعتبروه عدوانا على دينهم ، وافتياتا على المقدسات المرعية ، الا أنه رأى أن من الحكمة ألا يكتفى بالسماع من طرف واحد . فأرسل الى هؤلاء المهاجرين أن يدخلوا عليه ، فلما مثلوا بين يديه ، قال لهم ما هـذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دين بعـده ، وكان جعفر بن أبى طالب قد أدرك أن رسل قريش قد نجحوا فى الايقاع بهم . وتشويه مسيرتهم ، فانبرى له قائلا « أيها الملك كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة . ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام . ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف .. فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منـا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفـافه .. فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم . وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ... ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ... وأمرنا أن نعبـد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله وحده ولم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان وترك عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك » ثم قرأ جعفر بن أبى طـالب عليه شيئا من سورة مريم وفيها الاشادة بعيسى ابن مريم وجهده والثناء على ما كان له من هدى وتقويم ، وتنزيه عن الفواحش ، والشهادة لهـا بطهارة العرض . ونقاء النفس ، وبراءة الساحة ، وشرف المنبت ، وحينئذ أبى النجاشى والبطارقة أن يفرطوا فى المسلمين ، أو يصيخوا الى الوشاية بهم ، أو النيل منهم ، وظل هؤلاء المسلمون ــ وان لم تطل مدة الاقامة ــ يلاقون الرعاية والاهتمام ، الا أنهم مع ذلك قد اشتد حنينهم الى مكـة . وفكروا فى العودة اليها ، لحرصهم الشديد فى أن يظلوا الى جوار النبى

صلى الله عليه وسلم يدافعون عنه أعداءه ، ويؤيدون دعوته ، والى جانب ذلك فانهم كانوا من السادة الذين لم يألفوا المشقة والاغتراب عن الأهل والوطن ، وكان معهم زوجاتهم وقد خافوا عليهم من مضاضة الاغتراب . وهوان البعد . ولم يكن عددهم من الكثرة بحيث يدفع عنهم وحشة النأى ، أو مشقة النزوح ، اذ كانوا عشرة رجال ، وخمس نسوة ، وهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو سلمة وزوجته أم سلمة وأخوه لأمه أبو سبرة بن أبى رهم وزوجته أم كلثوم ، وعامر بن ربيعة وزوجته ليلى ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجته سهلة بنت سهل . وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان ابن مظعون ، ومصعب بن عمير ، وسهيل بن البيضاء ، والزبير بن العوام ، وجلهم من قريش وكان عليهم عثمان بن مظعون ولحق بهم جعفر بن أبى طالب الذى تحدث باسمهم .. ويظهر أن هذا الوفد مع قلة عدده ، وقصر مدة اقامته كان له أثره البالغ فى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم . والتنويه بدينه ، والاعلان عن هذا الزحف الجديد الذى أخذ يأخذ طريقه الى القلوب والأفئدة .. فان النجاشي والبطارقة الذين كانوا معه بعد أن تجلى لهم الحال من هذه الجماعة القليلة التى وفدت اليهم . ثم ارتحلت عنهم . لم يكتفوا منهم بهذا اللقاء ، ولا بتلك المناقشة ، فبعثوا من قبلهم وفدا الى مكة ، جعلوا مهمته الأولى أن يستطلع نبأ هذا الحدث الجديد الذى هزت أخباره أرجاءهم ، أو زلزلت أنحاءهم . وهل هو يتلاقى مع المسيحية على محجة واحدة ، أم يذهب كل منهما الى ناحية يخالف صاحبه ، ثم مع هذا وذاك يشكر محمدا وأصحابه على ذلك التنويه الذى نطق به القرآن عن عيسى ومريم والانجيل الذى جاء به ... وكان من هذا الوفد أن تأثر الى حد بعيد بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأعجبه ما تأخذ به البشرية من اصلاح ، وما تسلكه من هدى ، وتعمل له من نهوض ، وما كاد يستمع الى القرآن الكريم من النبى حتى شعر بسحره ، وأدرك سيطرته الغلابة على النفس ، وهيمنته القوية على الضمير ، واستدراره الغريب للدمع ، وسلطانه القاهر للفؤاد ، ولما خنقته العبرة ، وفاض ماء عينيه ، أعلن ايمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم . والاذعان لدينه ، والانضواء تحت رايته ، وهنالك نوه الكتاب العزيز بهذا الموقف النبيل ، وتلك العاطفة الكريمة وذلك الاحساس العظيم « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فأثابهم

الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهـــار خالدين فيهـــا وذلك جزاء المحسنين » ٠٠ وفى هذه الأيام التى كانت قريش تعانى مرارة اللطمة التى أصابتها من الوفد الأول للحبشة كان اسلام حمزة بن عبد المطلب ثم اسلام عمر فطاش صوابهم وأخذت منظماتهم الارهابية تزاول من جديد نشاطها فى التنكيل والايلام ٠ حتى لقد لحق ذلك الرجل الطيب أبا بكر رضى الله عنه مع احترامهم له ، ويرجع ذلك الى أنه كان يقرأ القرآن أمام بيته فيتهافت عليه النساء والصبيان ٠٠ وقد خشيت قريش أن يكون هذا الصنيع من أبى بكر غزوا داخليا لها ٠ فضيقت عليه الخناق ، وأقامت فى وجهه المتاريس ، أما هو فكأنما تمثلت له الآية الكريمة « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ٠٠ ولذلك أخـذ طريقه الى حيث يفارق تلك الوجوه ، وينأى بعرضه عن تلك الأقذار ، الا أن رجلا من هؤلاء الذين كانت تمتلىء نفوسهم بحبه واحترامه ، لقيه فى الطريق ٠ وعز عليه أن يفارق مكة ٠ وأن تخلو عرصاتهـا منـه ، فسأله عن سبب خروجه ، ولمـا عرف من أمره ما عرف ، أخذ بتلابيبه ، وقال له لا تفعل يا أبا بكر ، فوالله مثلك لا يخرج ولا يخرج ، ثم طاف به على مجالس قريش وقال لهم ليبلغ الشاهد الغائب أن هذا الرجل فى جوارى ، أدافع عنه ، وأقف الى جانبه ، لا يتعرض له أحد بسوء الا كان بذلك مسيئا الى ، وهنالك قبلوا منه ذلك على أن يقرأ أبو بكر القرآن فى داخل بيته ٠ ورضى أبو بكر بهذا الشرط ونزل عليه ، وكان يقرأ القرآن فى داخـل بيته ، الا أن الأطفـــال والنساء كانوا يقتحمون عليه البيت ليستمعوا لمـا يتلوه ، وحينئذ عادت شكوى قريش منه ، وخوفهـــا من الافتتان به ٠ فراحوا الى ابن الدغنة الذى هدد بسحب جواره منه ، ولم يكن من هذا الرجل الطيب ـ أبى بكر ـ الا أن يقول له ٠ افعل ما بدالك ، فانى ما فكرت يوما من الأيام فى جوار غير جوار الله الذى يدافع عن الذين آمنوا ، فلا تشغل نفسك بى ، ولا تفكر فيما بينى وبينك من جـوار ، فانى أنا وأنت وكل الناس فى جوار الله الذى خلقهم ٠٠٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحصار الاقتصادى

أساليب حرب الناس بعضهم لبعض كثيرة متنوعة ، لا تقف عند حصر ، ولا ينتهى لها عدد ، وقد يكون أهونها أن تكون وجها لوجه ، أو أن تكون حارة لا باردة ، وفى العصور الحديثة تلجأ الدول الكبرى ، فى سبيل استذلال الدول الصغرى ، وكسر شوكتها • لتنال غرضها من ابتزاز مواردها ، واستنزاف خيراتها • والاستيلاء على ما تغله أرضها ، الى ما يسمى فى لغة علماء الاقتصاد السياسى بالحصار الاقتصادى •• وهى وسيلة من وسائل الحرب سلاحها الحرمان والتجويع • والحيلولة بينها وبين التجارة أو تبادل السلع مع غيرها ، سدا لحاجتها ، وقضاء لمصالحها • ونهوضا ببلادها ، لترى تلك الدولة الصغرى نفسها أمام الحاجة القائمة ، والضرورة الملحة • مضطرة للتنازل عن كرامتها ، وعزة نفسها ، وتمسكها بالاباء الخالص ، والحرية البحتة ، والشمم الفطرى • وهنالك لا تعارض فى سلطان يخضعها ، وجبروت يذلها ، وكرامة تملك زمامها ، وتتحكم فى سلوكها ، وهكذا يفعل ـ الآن ـ أرباب الجشع الاستعمارى ، والسعار الأجنبى ، مع الشعوب التى تريد أن تتفلت من قبضة أيديهم ، أو تتخلص من نفوذهم ، وتخرج عن طاعتهم الظالمة ، وهو بعينه الذى حدث من كفار مكة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه معه • حينما وجدوا أنهم أفرغوا ما فى كنانتهم من السيوف ، وبذلوا كل جهد يملكونه ، وكل حيلة يحكمونها ، وجربوا كل محاولة فى اذلالهم • وقطعوا كل أمل فى الجائهم • وآمنوا ايمانا لا شك فيه أن المطاردة والعنف • والكراهية أو الاستهزاء ، والتعذيب والتهديد ، وغير ذلك من أساليب الحمق والطيش ، لم تقف ذلك التيار الجارف الذى كانت تسير به دعوة محمد بن عبد الله الى نفوس الرجال والنساء ، والصبيان والأطفال ، حتى لقد بلغ الحال بهم أن يتغفل بعضهم بعضا فى الذهاب ـ متنكرا ـ

الى مجلس محمد ليستمع لما أنزل الله عليه . يقول الدكتور هيكل « خرج أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق ليلة ليستمعوا الى محمد وهو فى بيته ، فأخذ كل منهم مجلسه وهو لا يعلم بمكان صاحبه ، وكان محمد يقوم الليل يرتل القرآن فى هدوء ، وسكينة ، فلما كان الفجر تفرق المستمعون عائدين الى منازلهم . فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا . فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم ، ولنصر محمدا عليكم ... فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم فى مثل الموعد الذى ذهب فيه أمس كأن رجليه تسيران به من غير أن يستطيع امتناعا ليقضى ليلة حيث قضاه أمس وليستمع الى محمد يتلو كتاب ربه ، وتلاقوا عند عودتهم فى مطلع الفجر وتلاوموا من جديد . فلم يحل تلاومهم هذا دون الذهاب فى الليلة الثالثة . فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد من ضعف تعاهدوا على الا يعودوا لمثل فعلتهم ، وان ترك ما سمعوا من محمد فى نفوسهم من الأثر ما جعلهم يتساءلون فيما بينهم ، وكلهم تضطرب نفسه ويخاف أن يضعف وهو سيد قومه فيضعف قومه ويتابعوا محمدا .. وقد حدث الرواة أنهم بعد أن عقدوا مجالس الشورى ، وتبادل الرأى ، انتهوا الى معاهدة مكتوبة يعلقونها فى الكعبة ، يتفقون فيها على مقاطعة النبى صلى الله عليه وسلم هو ومن اختار سبيله ، واعتنق دينه ، وآمن برسالته ، وكانت هذه الصحيفة تقضى بعدم الزواج منهم ، أو الاصهار اليهم ، أو البيع والشراء معهم ، كما تقضى ألا يجيروهم ، أو يغيثوا الملهوف منهم ، وألا يتبادلوا معهم المنافع بحال من الأحوال ، وأن يكون شأنهم واياهم شأن المنبوذين سواء بسواء ، واستتبع ذلك أن ينفصل كل من الفريقين فى الدار التى يعيش فيها دون حرية الانتقال أو الحركة ، وظل الأمر هكذا ثلاث سنوات ، كانت قسوتها شاقة ، ومرارتها بالغة ، حتى كانوا يأكلون ورق الشجر .

وقد بدا على المسلمين من هذه المحنة الهزال والشحوب ، والألم والامتعاض ، والاصفرار والنحول ، وفشت فيهم الأمراض والأوبئة . ولم يكن من حق المسلمين أمام هذا الحصار والضغط المفروض عليهم أن يتجولوا أو ينتقلوا الا فى داخل هذا السور المضروب عليهم ، أو السجن الذى يحتويهم ، اللهم الا فى الأشهر الحرم ليطوفوا بالبيت اذا أرادوا أو يحجوا اذ رغبوا ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم لا يجد متنفسه الا فى موسم الحج حين يستقبل الوافدين على البيت ، ليعرض عليهم دعوته وكانت تجد طريقها الى قلوبهم وأفئدتهم ، وشعورهم وعواطفهم . وكان ما يعانيه من قريش فى هذا الوقت سببا فى عطف كثير من الناس عليهم ، وميلهم اليهم ، وتجاوبهم معهم . وقد سرى ذلك كله الى صفوف المشركين فكاد

يبدد صفوفهم ، ويفرق كلمتهم ، ويشتت شملهم . ويشيع فيهم التفكك والتخاذل ، ويقول الدكتور هيكل « وهذا الحصار الذي أوقعته قريش ، واحتماله إياه صابرا في سبيل رسالته . كان من ورائه أن كسب كثيرا من الأنصار والقلوب التي لم تبلغ القسوة منها ما بلغت من قلب أبي جهل وأضرابه ... على أن طول الزمن وكثرة ما أصاب المسلمين من عنت قريش وهم منهم واخوانهم وأصهارهم وأبناء عمومتهم جعل كثيرين يشعرون بفداحة ما ارتكبوا من ظلم وقسوة ، فلولا أن كان من أهل مكة رجال لهم على المسلمين عطف يحملون اليهم الطعام في الشعب الذي احتموا به لهلكوا جوعا . وكان هشام بن عمرو من أحسن قريش في هذا الظرف عطفا على المسلمين ، كان يأتي بالبعير قد أوقره طعاما أو برا فيسير به في جوف الليل حتى اذا استقبل الشعب ـ الذى حوصر فيه المسلمون ـ خلع خطام البعير ثم ضرب على جنبه فدخل البعير الشعب عليهم . ولما ضاق صدرا لما يلاقيه المسلمون مشى الى زهير بن أبى أمية وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال زهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام ، وتلبث الثياب ، وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمنا لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ، أما انى أحلف بالله أن لو كان أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ما أجابك اليه أبدا ، وتعاهد الرجلان على نقض الصحيفة ، على أن يستعينوا على ذلك بغيرهم ، واتفق معهما المطعم بن عدى ، وأبو البخترى بن هشام ، وزمعة ابن الأسود ، وأجمع الخمسة أمرهم وتعاهدوا على القيام فى أمر الصحيفة حتى ينقضوها ... وغدا زهير بن أمية فطاف بالبيت سبعا ، ثم نادى في الناس يا أهل مكة ، نأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تنشق هذه الصحيفة الظالمة ، وما كاد أبو جهل يسمعه حتى صاح به ، كذبت والله لا تنشق ، فتجاوبت أصوات زمعة وأبى البخترى والمطعم وهشام بن عمر وكلهم يكذبون أبا جهل ، ويؤيدون زهيرا ، وأدرك أبو جهل أن الأمر قضى بليل وأن القوم اتفقوا عليه ، وأن مخالفتهم قد تثير شرا ، فأوجس خيفة وتراجع وقام المطعم ليشق الصحيفة ، فوجد الأرضة قد أكلتها الا فاتحتها « باسمك اللهم » وبذلك أتيح لمحمد وأصحابه أن يعودوا من الشعب الى مكة . وأن يبيعوا قريشا ، ويبتاعوا منها ، وان بقيت صلات الفريقين كما كانت ، وقد جعل صلى الله عليه وسلم من جديد يذيع دعوته فى مكة وفى القبائل التى تجىء اليها فى الأشهر الحرم ، ومع ماذاع من أمر محمد بين قبائل العرب جميعا ، وما كان من كثرة الذين اتبعوه ، فانه ظل لا يسلم أصحابه من أذى قريش ، ولا يستطيع هولهم منعا » ..

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ترامى اليه من قبل أن الأرضة

قد أكلتها ، فأخبر بذلك بعض أصحابه ، ولم يلبث الخبر أن تطاير الى صفوف المشركين أنفسهم ، فظنوا لأول وهلة أنها بلبلة يريد بها المسلمون زعزعة الخواطر • واستدرار عطف الناس عليهم • ليكون ذلك تمهيدا لرضا قريش أن تعود المياه الى مجاريها ، ولكن خبيثا من خبثائهم تسلل الى الصحيفة فى مكانها من الكعبة ثم جـاء يعلن أن ذلك الخبر صحيح لا ريب فيه ، وهنالك ذهلت قريش ذهولا عظيما • وبخاصة حينما ترامى اليها أن محمدا يقول ان الأرضة لم تبق منها الا لفظة « باسمك اللهم » وفى هذه اللحظة خاصوا خيصة حمر الوحش ، وأخذوا يروحون ويجيئون ، ويفكرون فيما عساه أن يكون ، أو فيما عساه أن يتخذ أمام هذا الموقف الذى صيرتهم اليه الحوادث ، وأوقفتهم عنـده الأقدار ، على اعتبار أنه خذلان لهم • وتقهقر الى الوراء فى حربهم للمسلمين ، والقضاء على روحهم المعنوية التى كانت تدفعهم الى الأمـام ، وتسوقهم للغـيرة على محمد ، وعصبيتهم له ، ووقوفهم الى جانبه ، يدافعون عنه ، ويعلنون دعـوته ، ويرفعون رايته ، وقد أصبح بنو هاشم وبنو عبـد المطلب يشعرون بأن الصراع الذى كان قائما بينهم وبين قريش عصبى لا أثر للدين فيه • ولا صلة للعقيدة به ، وصار هم أبى طالب الاهتمام بابن أخيه ليتمكن نفوذه ، ويعلو شأنه ، وتمضى ارادته ، ويسود رأيه ، ويستقر له سلطانه وحكمه ، فلا تمتد اليه يد آثمة ، أو تتطاول عليه نفس شريرة ، أو يقتله سيف ظالم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتابع الدعوة لدينه ، والاعلان عن هديه ، ويواصل سيره لاكتساب أنصار يؤازرونه ، ويكثرون سواده ، ويقوون جبهته ، ورأت قريش أمام ذلك كله ألا مناص من نقض الصحيفة المكتوبة ، والمعاهدة المبرمة ، واضطرت صاغرة الى التنازل عن كبريائها ، وعاد الاتصال ، ورفعت قيود حظر التجول ، وتبادلوا ــ مع المسلمين ــ السلع والحاجات ، الا أن النفوس كانت مع ذلك لا تزال تشعر بالجفوة ، والقلوب لا تزال تحس باللوعة ، والعيون لا تزال تتبادل النظر الشزر ، والجوانح لا تزال منطـوية على الكراهية والبغضاء • والمسلمون كـانوا يشعرون أنهم فى دار غربة وهوان ، يتمنون من صميم أفئدتهم أن يبدلهم الله قوما خـيرا من أولئك الذين يرون أنهم قذى فى أعينهم ونكـدا فى نفوسهم ، وحرجا فى صدورهم وأفئدتهم ، كما كانوا يتمنون كذلك وطنا غير هذا الذى يضيق بهم ، ويتجهم لهم ، ويزداد بشاعة فى عيونهم ، حتى لقد كانت الهجرة الى الحبشة تراودهم ــ من جديد ــ ليتخلصوا من ذلك العنت ، ويستريحوا من ذلك الضيق ، وبخاصة وقد رأوا أن الحرب لم تضع أوزارها بعد ، يقول الدكتور هيكل « قدم الطفيل بن عمرو الدوسى مكة وكان رجلا لبيبا شاعرا ، فمشت اليه قريش تحذره من محمد ، وأن الخير فى ألا يكلمه ولا يستمع اليه ، وذهب الطفيل يوما الى الكعبة ، وكان

محمد هناك ، فسمع بعض قوله ، فاذا هو كلام حسن ، فقال فى نفسه ، واثكل أمى ، والله انى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح • فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فان كان حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته ، واتبع محمدا الى بيته ، وأظهره على أمره ، ومـا دار فى نفسه ، فعرض عليه محمد الاسلام ، وتلا عليه القرآن ، فأسلم وشهد شـــهادة الحق ، ورجع الى قومه يدعوهم الى الاســـلام ، حتى أسلم أكثرهم • وانضموا الى النبى بعد فتح مكة ، وليس الطفيل الدوسى الا مثلا من كثير ••• وقد قدم مكة ــ كذلك ــ بعد حادث الصحيفة عشرون رجلا من نصارى نجران الى النبى صلى الله عليـــه وســـلم ، فجلسوا اليه ، واستمعوا له ، واستجابوا وآمنوا وصدقوا ، مما غاظ قريشا حتى سبوهم وقالوا لهم « خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهـــل دينكم ، لتأتوهم بخبر الرجل ، فـــلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال » ولم تثن مقالة قريش هذا الوفد عن متابعة محمد ولم ترده عن الاسلام • بل زادتهم بالله ايمانا على ايمانهم ، اذ كانوا نصارى من قبل أن يحضروا الى مجلسه صلى الله عليه وسلم على ملة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ••

عام الحزن

كان سند النبى صلى الله عليه وسلم فى دعوته ، ودرعه فى رسالته ، وترسه التى يتلقى بها الأحداث ، وساعده الذى يذود به الأذى ، وركنه الركين الذى يعتمد - بعد الله - عليه ، حيث لم يتكامل له من سواد المسلمين من يشد أزره ، ويقوى ظهره ، اذ كان يحس من نفسه بالغربة والوحشة ، والضعف وقلة الحيلة ، اثنان من الناس كلاهما كان يعيد ضخم ، وقوة هائلة ، وطاقة جبارة ، امرأة هى خديجة بنت خويلد الأسدية ، زوجته العزيزة لديه ، الحبيبة اليه ، ورجل هو عمه أبو طالب الذى كانت له مكانة فى قومه وعشيرته .. وخديجة رضى الله عنها لم تكن له صلى الله عليه وسلم زوجة ككل زوجة تكون تحت رجل لا هم لها منه الا أن تتمتع به ، وتلوذ بكنفه ، وتحتمى بظله ، وتترامى بين أحضانه ، وتطلب فيه دائما أبدا غناه وثروته ، وصحته وعافيته ، وشبابه وتضارته ، ومركزه وجاهه ، وأن يكون قلبه عامرا بها ، متلهفا اليها ، مترامنيا عليها ، لا يتسع لأحد سواها ، ولا تدق نبضاته الا لها .. فان رأت شيئا من ذلك كله قد تحول أو نقص ، أو وجدت أنه لم يعد فيه ما يأخذ انتباهها ، ويملك اعجابها ، ويشغل تفكيرها ، فترت شواغلها به ، وبردت حرارتها له ، وماتت أحاسيسها التى كانت متأججة به ، وجعلته فى تحفها القديمة ، أو ثيابها البالية ، لأنه لم يعد فتى أحلامها . الذى كانت تحن اليه ، وتهتف به ، وتنجذب الى ناحيته .. نعم لم تكن خديجة تلك الزوجة وانما كانت أمه وأخته وأهله وعشيرته ، وأحب الناس اليه ، وأدناهم منزلة من قلبه وروحه ، وكان هو عندها كل شئ تطلبه ، وكل حلم يدور بخاطرها ، أو يسبح بخيالها ، تؤمن ايمانا جازما أنه يكمل نقصها ، ويجمل نفسها ، ويرضى تطلعها وطوحها . ويشفى عللها وأوجاعها ، ويملأ دنياها باليمن والبركة ، والخير والسعادة ، والسرور

والبشر ، والأمان والاطمئنان ، والرضا والارتياح .. لذلك كان عندها نور عينيها ، ونبض فؤادها ، وخطرات خيالها ، وهمسـات قلبها ، وحياتها المتجددة . وأملها الذى تضيق به الدنيا ، فمالها فى يده ، وثقتها فى نفسه . وقومها من حوله ، وأهلها أطوع له من ظله ، وكأنه بهـا وحدها فى جيل من الناس فيهم ألف سـاعد وساعد ، وألف نصير ونصير ، وكلما غدا أو راح ، كان ظلها يتابعه بالأنس والبهجة . والأمل والحب . والصحة والعافية ، والشجاعة والاقدام ، والظفر والغنم ، والفراغ الذى كانت تملأه من قلبه لم يكن حل من قبل ، وهى مع هذا وهذا أم أولاده ما عدا ابراهيم الذى كان بعد ذلك من مارية القبطية ... وكان موتها عند النبى صلى الله عليه وسلم فاجعة كبرى . ومصيبة عظمى . شعر بعده أن الأيام تتنكر له ، وأن المحن تصطلح عليه ، وأن المصائب تنازله ، وأن الحوادث تحاربه ، وزاد من وطأة الألم فى نفسه أنه لم يمض على موتها أكثر من خمسة وثلاثين يوما ــ كما يذكر الخضرى ــ حتى مات عمه أبو طالب . فكان هذا العام ــ كما سماه المسلمون وسماه النبى صلى الله عليه وسلم ــ عام الحزن ــ . وأى حزن وراءه ، وأى فاجعـة بعده ... وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول « اجتمعت على هذه الأمة فى هذه الأيام مصيبتان لا أدرى أنا بأيهما أشد جزعا » ..

ونحن نعلم أن قريشا ابتدأت بعد موت أبى طالب تعامل النبى صلى الله عليه وسلم معاملة أخرى ، وتقف منه موقفا جديدا . وتحشد له كل ما تملك من وسائل ، وما تستطيع من حيلة . لتشل حركته ، وتعطل سيره ، وتعوق ركبه ، وان كانت هذه الشدائد كلها قد دفعت عجلة الزمن ، وحركت عقرب الساعة ، ولفتت أذهان كثيرين من الناس الى الدخول فى الاسلام ، والايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنها كانت دعاية له ، واعلانا عنه ، وهكذا يأتى الشر بالخير ، ويأتى الفرج بعد الضيق ..

وعلى الرغم من أن قريشا انتهزت فرصة موت أبى طالب الذى كان للنبى صلى الله عليه وسلم درعه وسيفه . ومجنه وترسه ، وخط دفاعه القوى . وبرهنت بهذا على أنها تجردت من الذوق ، وأنها قد جف معين الحياء من وجهها ، وأصبحت تفكر فى الحد من حريته ونشاطه . والقطع لأوصاله ، والقضاء على حركة انتقاله . وكان هو مع هذا كئيب الخاطر . حزين الفؤاد . لا يستطيع الا أن يكون فى هذا الجو القاتم الذى خلفه له موت خديجة وأبى طالب . لأن عواطفه التى امتلأت بها نفسه . وهواتفه التى امتلأت بها رأسه ، كانت لا تنقطع عن هذا الخيط ، ولا تنفك عن

تلك الهواجس ، وهو لا يعدو أن يكون بشرا تتحكم فيه بشرية الانسان ، ولم يكن أحد في هذا الوقت يراه يتسلل الى المجتمعات ، أو يتسرب الى المحافل ، أو يغشى المنتديات التى كان يغشاها · داعيا الى الله ، أو معلنا وحي ربه · وكان دخول من يدخل فى الاسلام ــ حينئذ ــ أشبه بالعملية الآلية ، أو التجاوب الوجدانى ، ليس معه جهد ولا معاناة ·· وكأنما أراد الله سبحانه وتعالى أن يبرهن للنبى صلى الله عليه وسلم من طرف خفى أن هذا الصنيع الذى تصنعه قريش لا يمكن بحال من الأحوال أن يرد قدرا ، أو يدفع ارادة ، أو يحول دون تبليغ الرسالة ·· وبينما هو من شدة ما ناله من الحزن ، وكثرة ما أصابه من التفكير ، مستغرق فى ذهوله الذى أصابه · ممعن فى وجومه الذى اعتراه · سابح فى خياله الذى يحلق به فى هذا الملكوت · رأى نفسه متكئا الى جذع شجرة يقرأ القرآن والجن من حوله يستمعون اليه فى صمت : وينصتون اليه فى هدوء ، ويتأملون فى قوله ، ويتدبرون هديه ، وكأنما هو ضالتهم المنشودة · وحاجتهم التى ظلوا يبحثون عنها من زمن طويل · وقد سجل القرآن قصتهم هذه « وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذبا » ·· وكأنما كان جل جلاله يريد أن يعوضه عن هؤلاء الذين أعرضوا عنه ، وتجهموا له · ووقفوا فى وجهه ، بآخرين يقبلون عليه ، ويرغبـــون فيه ، فى لهفة الحريص ، وارتياح المشوق ، وقد كان فى الحديث الذى صدر عنهم ، والتفكير الذى بدا منهم ، مسحة العقل والمنطق ، كأنما كانوا أساتذة حكمة ورأى ، وفهم وذوق « وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » ··· وكان هذا الحدث فى نظر العرب جميعا من الذهول والغرابة بمثابة بعيدة حملتهم على أن يشتغلوا بالتأمل والتفكير فى أشياء كانت لا تخطر لهم ببال ، ولا تمر على ذهن ، وكان فى مقدمة ذلك فهمهم للجن ، وتصورهم لهم ، وحديثهم عن ايمانهم بالله ، وبحثهم عن المعرفة ، وجريهم وراءها · وكانوا الى هذه اللحظة يظنون فى الجن الظنون ··

وقد تناقلوا هذه القصة ، وأخذوا يتحدثون بأن محمدا صلى الله عليه وسلم له محيط وراء محيطهم ، ودنيا أوسع من دنياهم ، وأن دعوته ان لم تجد منهم العون والنصير ، والرغبة والقبول ، فستجد من سواهم ، رضوا هم بذلك أم سخطوا ، وأنه ان كان اليوم يتودد اليهم فى هديه ، ويلاطفهم فى دعوته ، ويصفح عنهم فى ايذائهم له ، ومطاردتهم اياه ، فسيجىء اليوم الذى يكونون فيه مرغمين ، ويكون الأمر والنهى ، والحل والعقد ، له هو

وجده ، وأنهم ان كانوا يقولون سخرية به ، أو احتقارا له أمر أمر ابن أبى كبشة ، فلابد أن يقولوها حقا وصدقا ، لأن وراءه الارادة الالهية التى لا ترد ، والقوة العليا التى لا تقهر ..

ويقول المؤرخون ان أبا طالب لما حضرته الوفاة دعا وجوه قريش فلما حضروا مجلسه قال لهم « يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه ، وقلب العرب . فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدم الشجاع ، والواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا الا أحرزتموه ، ولا شرفا الا أدركتموه فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به اليكم الوسيلة . والناس لكم حرب . وعلى حربكم الب ، وانى أوصيكم بتعظيم هذه البنية ـ الكعبة ـ فان فيها مرضاة للرب ، وقواما للمعاش ، وثباتا للوطأة ، صلوا أرحامكم ، فان فى صلة الرحم منسأة للأجل ، وزيادة فى العدد ، واتركوا البغى والعقوق ، ففيهما هلكت القرون من قبلكم ، أجيبوا الداعى ، وأعطوا السائل ، فان فيهما شرف الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة ، فان فيهما محبة فى الخاص ، ومكرمة فى العام ، وانى أوصيكم بمحمد خيرا . فانه الأمين فى قريش ، والصديق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما وصيتكم به ، وقد جاءنا بأمر قبله الجنان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن ، كأنى أنظر الى صعاليك العرب ، وأهل الأطراف والمستضعفين من النـاس قد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته ، وعظمـوا أمره . فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ، ودورها خرابا ، وضعفاؤها أربابا ، واذا أعظمهم عليه ، أحوجهم اليه ، وأبعدهم منه ، أحظاهم عنـده ، قد محضته العرب ودادها ، وأصفت له فؤادها ، وأعطته قيادها .. يا معشر قريش كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة . والله لا يسلك سبيله أحد الا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه الا سعد ، ولو كان لنفسى مدة ، ولأجلى تأخير ، لكففت عنه الهزاهز ـ البلايا ـ ولدفعت عنه الدواهى .. ثم مات بعد ذلك بثلاثة أيام .. وهذه الوصية على الرغم من أن كثيرا من الناس ربمـا استبعد حصولها من أبى طالب الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم حريصا على اسلامه وقد عرضه عليه فأبى ، الا أنها تمثل نفسه الكبيرة ، وروحـه الطيبة ، وسلوكه الذى كان يسلكه مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ذلك السلوك الذى تمثله الآية القرآنية أصدق تمثيل « وهم ينهون وينأون عنه » لأنه كان معه بجوارحه دون قلبه ..

مع ثقيف بالطائف

شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفجوة الواسعة التى أحدثها في نفسه موت خديجة رضى الله عنها فرأى ولم يمض على ذلك أكثر من شهر واحد أن يتزوج وكان قد سنح له ذلك بشكل ما كان يترقبه ولا ينتظره ، ذلك أن سودة بنت زمعة العامرية القرشية كانت قد هاجرت الى الحبشة مع زوجها وابن عمها السكران بن عمرو وكانت حين أسلمت رغم أنف أهلها وحين رجوعهما من هجرتهما من الحبشة مات زوجها ، وكان موقفها في هذا الوقت من أشد المواقف حرجا لأنها بين أن تذهب الى أهلها الذين يحملونها على الكفر ، أو تبقى وحدها من غير عائل يعولها ، ولا رجل يأويها ، وهما أمران أحلاهما مر ، وحينئذ وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المروءة تقضى بانقاذها من الحرج ، وانتشالها من تلك الورطة ولم يكن ذلك الا بزواجها ، وبخاصة وقد وجد صلى الله عليه وسلم أن أحدا لم يتقدم اليها ، وبعد ذلك بشهر واحد عقد على عائشة رضى الله عنها الا أنه لم يدخل بها الا بعد الهجرة الى المدينة ٠٠ وكل هذا منه صلى الله عليه وسلم كان بمثابة المحاولة لتخفيف الآلام التى كان يلاقيها من أهل مكة بعد موت خديجة وموت عمه أبى طالب بعدها ، لكن مطاردتها له ، وتضييقها عليه ، ووقوفها في وجهه ، وصدها عن سبيله ، كانت لا تزال كما كانت وأكثر مما كانت ، فخطر بباله أن يذهب الى ثقيف بالطائف ٠ وكان الذى حمله على أن يذهب اليهم بالذات أمران اثنان عداوتهم لقريش بمكة ، وقد ظن أن هذه العداوة ربما كانت مما يغرى الثقفيين بالاستجابة ليثيروا بذلك حفيظة أعدائهم الذين طاردوه ، ولم يستجيبوا له ، الأمر الثانى أن أم جده هاشم بن عبد مناف عاتكة السلمية من بنى سليم بن منصور وهم حلفاء ثقيف ، فلما توجه اليهم

ومعه مولاه زيد بن حارثة قابل رؤساءهم الثلاثة عبد ياليل ومســـعود وحبيب أولاد عمرو بن عمير فعرض عليهم نصرته فرفضوا ذلك ، وردوه أسوأ رد . ولم يكتفوا بهذا الرد والرفض . وانما أبلغوا أمر هذه المقابلة المزرية الى قريش التي كانت تتشفى فيه ، وتزداد هي من ناحيتها ايذاء له وايلاما حتى لقد زادوا على ذلك أيضا اغراء الأطفال والسفهاء بمطاردته ورميه بالطوب والحجارة . ومازال يتلافى رمياتهم ، ويتفادى قذائفهم ، حتى أضناه التعب ، وأنهكته المقاومة ، وهنالك احتمى بجدار بســـتان يملكه عتبة وشيبة ابنا ربيعة وهما من أعدائه صلى الله عليه وسلم فلما وقع نظره عليهما في داخل البستان ، ورأى أنه يلتجىء الى عدوه الذى يتشفى فيه ، وقد يسره ما يعانيه ، دمعت عيناه وأخذ يناجي ربه بهذه الكلمات « اللهم اليك أشكو ضعف قوتي . وقلة حيلتي . وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي الى من تكلني ؟ الى بعيد يتجهمني ، أو الى عدو ملكته أمري ، ان لم يكن بك على غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهـك الذى أشرقت له الظلمات . وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » وكأنما رق قلب صاحبي البستان لهذا الدعاء ، فأخذتهما الشفقة بالداعي ، فبعثا اليه غلامهما النصراني بقطف من العنب ليرد به جوعه ، ويمسك به قوته المتداعية من جراء ما لاقى ، وحينما تناول قطف العنب لم ينس أن يقول وهو يتناول منه أول حبة بسم الله الرحمن الرحيم ، فهزت هذه الكلمة الغلام النصراني « عداسا » وقال له هذه كلمة لا يقولها هنا أحد ، فسأله محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأى منه هذا الانتباه ومن أي البلاد أنت فقال له من نينوى ــ على شاطىء دجلة بالعراق تواجهها الموصل ــ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم قرية الرجل الصالح يونس ابن متى ... قال له وما علمك به ، فقرأ له من القرآن الكريم ما يتعلق بنبأ يونس من سورة الصافات « وان يونس لمن المرسلين ، اذ أبق الى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أن كان من المسبحين ، للبث في بطنه الى يوم يبعثـون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه الى مئة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعناهم الى حين » فلما سمع ذلك عداس أقبل عليه يقبل رأسه ويديه وقدميه . وقال له أشهد أنك عبد الله ورسوله . وكان على مقربة من هذا المشهد الرائع سيدا عداس ــ عتبة وشيبة ــ فلاماه على ذلك وقالا له أتقبل رأسه ويديه وقدميه . فقال لهما ما على الأرض خير منه انه أخبرني بأشياء لا يعلمها الا نبي ، وقد طلباه أن يخرج معهما في غزوة بدر ليقاتل في معسكر المشركين فأبى كل الاباء ...

وفي عقب هذه اللحظة الحرجة التي لاقاها النبي صلى الله عليه وسلم من ثقيف وبخاصة من الاخوة الثلاثة أولاد عمرو بن عمير الثقفي ، وعتبة وشيبة ابني ربيعة ، ومن الأطفال الذين كانوا يتعقبونه رميا بالحجارة جاء اليه جبريل عليه السلام وقال له ان الله قد سمع ردهم عليك ، وايذاءهم لك ٠ وهذا أخي ملك الجبال ان شئت أن يطبق عليهم الأخشبين ـ جبلين ـ فعل ذلك ، فمره وهو مأمور أن يستجيب لك ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا يا جبريل فاني أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده ولا يشرك به أحدا ٠٠ وقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها هذه القصة ٠٠ قالت قلت يارسول الله هل أتى عليك يوم أشد عليك من أحد ٠٠ قال لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبني الى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق مما أنا فيه من الغم الا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي واذا أنا بسحابة قد أظلتني ٠ فنظرت فاذا فيها جبريل فناداني فقال ان الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا به عليك ، وقد بعثت اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت ، فناداني ملك الجبال ، فسلم علي ، ثم قال يا محمد ، ان الله قد سمع قول قومك وما ردوا به عليك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني اليك ربك لتأمرني بأمرك ، ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ٠٠ قال النبي صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له » ولما كان بنخلة وهو عائد الى مكة قابله وفد من الجن كانوا رسل قومهم اليه لمعرفة أخباره ، والوقوف على أمر دعوته ، رجاء الايمان بها والدخول فيها ، وهو الذي تشير اليه الآيات « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضي ولو الى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين » ويظهر أن هذا الفريق الذي صرفه الله اليه ليستمع ثم ولوا الى قومهم مدبرين غير هذا الذي ذكر في أول سورة الجن ٠٠ وعلى كل حال فان هذه الرحلة الشاقة من النبي صلى الله عليه وسلم كان من الضروري أن تنتهي الى مكة ، وكان ذلك من المشاكل الجديدة التي يعانيها ، لقد عاد منهزما ـ ولو في نظر خصومه على الأقل ـ وعودته هذه من رحلة كان يرجو من ورائها أن يكتسب أنصارا يتقوى بهم على من يناوئه ، وينتصر بهم على من يحاربه ، والذين يناوئونه أو يحاربونه في

مكة التي لا غنى له عن دخولها والانتهاء اليها وفيها القلة من أتباعه وأهله ... وقد استحضر في ذهنه صلى الله عليه وسلم كل هذه المعاني فأرسل مولاه زيد بن حارثة ليبحث له عن رجل فيه من الجرأة والشجاعة ما يساعده على ألا يرفض جوار محمد . وأن يقف الى جانبه ، وأن يرد عنه عدوان من تحدثه نفسه بالعدوان عليه . فكان ذلك الرجل هو المطعم ابن عدي بن نوفل الذي تسلح هو وبنوه للقائه . ودخل صلى الله عليه وسلم مكة آمنا مطمئنا لم يتعرض له أحد بسوء ، وقد أعلن المطعم بن عدي هذا الجوار ، ليؤكد له أنه لا يتخلى عنه ، ولم يكتف بذلك حتى طاف معه حول الكعبة وفي أثناء هذا الطواف كان بعض المشركين يسألون المطعم ان كان تابعا لمحمد أم مجيرا ، فيقول لهم مجير ، فيقولون له لا تخفر ذمتك ؛ وقد عوده الله سبحانه وتعالى في كل موقف من مواقف الشدائد التي تصادفه ، أن يرسل اليه بصيصا من الأمل ، أو شعاعا من الرجاء . وكان هذا البصيص أو ذلك الشعاع ، قصة الطفيل الدوسي الشاعر الذي التقى به ، واستمع اليه ، وملك عليه جوانبه ما سمعه من القرآن ، فأعلن ايمانه به ، وكان داعية حصيفا لدى قومه الذين دخل منهم الكثير في دين محمد صلى الله عليه وسلم – وكما سبق الحديث عنه – وكذلك وفد نصارى نجران الذين قبلنا انهم جاءوا – بادىء ذي بدء – لتعرف أخباره ، وتقصي أحواله ، والوقوف على جلية الأمر . ليعودوا الى قومهم بالخبر اليقين . ولكنهم آمنوا به قبل أن تتحرك أقدامهم الى رحالهم ، وقبل أن ينقلوا الى قومهم الخبر ، حتى عيرهم أبو جهل بسرعة الانقياد ، وأنهم جاءوا لغرض فعادوا بنقيضه ، وهكذا عود الله نبيه ألا يخذله ، ولا يتخلى عنه ، ينظر فاذا جبريل على مقربة منه ، يعرض عليه مساندته له ، ووقوفه معه ، واستعداده لاستجابة أوامره ، ومع هذا كله فان قافلة الدعوة تسير ، لا يتعطل لها سير . ولا تتوقف لها حركة ، ولا يخفت لها صوت . والذين يدخلون في دين الله لا تحول خصومة قريش لمحمد ولا عداوتها بينهم وبين الايمان بهذا الدين الذي صار يجري في الناس مجرى الدم في العروق .

الاسراء والمعراج

كانت حياة الدعوة الاسلامية التى تصدر لها محمد صلى الله عليه وسلم بأمر من ربه سلسلة متصلة الحلقـــات من المغامرات الشاقة ، والمصارعات المرهقة ، والصدام الدائم بينه وبين الكفار الذين وقفــوا جهدهم على الكيد له ، والصد عن دينه ، واقامة العراقيل فى سبيله ، واختلاق العيوب له ، وافتراء الكذب عليه ، واشعال نيران الحروب من حوله ، رجاء أن يحولوه عن غايته ، أو يشيعوا اليأس فى نفسه ، ليرجع عن تلك المسيرة التى ابتدأها من الصفا والمروة ، ولا يزال يواصل الاسترسال فيها ، والامعان فى دوامها ، لم يثنه عنها تعب يلاقيه ، ولا عناء يقاسيه ، ولا مشقة تصادفه ، ولا سفه يواجهه ، وكان من الطريف فى هذا الكفاح المرير ، والحرب النفسية الظالمة ، أن قوى خفية كانت تسانده ، فلا تتركه لليأس ، ولا تسلمه للأوهام ، ولا تدع روح القلق تتسرب اليه ، وربما تشيع فيه الأمل والرجاء ، بما تمده به من العناية ، وتقدمه له من الاهتمام ، وتسخر له من وسائل الفوز والنجاح ، فلم يصطدم بمشقة ، أو يواجه بازهاق وعناء ، أو ايلام وتعذيب ، الا ويد الله تمسح عليه ، لتزيل عنه آثار ما لاقى من هوان ، أو صادف من متاعب ومصاعب .

والمعاملة القاسية التى عاملت بها قريش النبى صلى الله عليه وسلم الى درجة أن ضاق ذرعا بمكة وأهلها ، فقطع الرجاء عن دعوتهم ، ونفض يديه من جوارهم ، وتطلع بفؤاده المكدود ، ونفســــه الكئيبة ، وقلبه الحزين ، الى جوار آخر يتنفس فيه الهواء النقى ، وينظر فيه الى وجوه مشرقة بالأمل ، باسمة بالرجاء ، لا تعبس له ، ولا تشيح بوجهها عنه وظل فى قلبه بركان يغلى ومازال هكذا زمنا طويلا يترقب من ربه الفرج ،

وينتظر طلائع رحمته . كانت لونا من هذه المعاناة والشدائد .. وقد كان ذلك مضافا اليه موت خديجة وموت أبي طالب والمقاطعة التي أحكمت أساليب اللؤم والغدر فيها قريش ، فجعل هو والمسلمون معه يحتملون منها ثلاث سنوات كاملة ما تنوء به الجبال الرواسى .. والأجسام اذا لم تخلد الى السكون بعد العناء ، والراحة بعد التعب ، والنوم بعد الصحو الطويل . والسهر الدائم ، كلت وملت ، وأصابها الفتور والاعياء ، ووقفت عن العمل والحركة .. وقد أراد الله سبحانه وتعالى من تلك الرحلة الممتعة ، راحة لنفسه صلى الله عليه وسلم ، وترضية لخاطره ، الى جانب ما هو فيها من المشاهدة لعالم آخر لم يكن ميسورا له أن يشاهده أو يتصل به ، حيث طوى له التاريخ ، وجمع له الأحداث ، وكشف له حقائق ، ومر به على عظات وعبر . ليعلن له مكانته عنده ، ومنزلته لديه ، حتى لا يتسرب اليه الشك فى أنه أفضل خلقه لديه ، وأكرم أنبيائه ورسله عنده ، وهو عمل أشبه بما يصنعه ملوك الدنيا اذا ما وفد عليهم زائر كريم ، أو ضيف عظيم . فانهم يطوفون به على قصورهم الفخمة ، وأملاكهم المترامية . ومعالم حضارتهم وتقدمهم .. واذا كانت الرحلات مع ما فيها من جوانب المتعة للنفس . والترويح عن الخاطر ، تزيد فى المعرفة ، فقد كان ما رآه صلى الله عليه وسلم من مظاهر الكون ، واختلاف الألوان والأشكال ، والجزاء على أعمال الخير والشر ، وعقبى الظالمين والمتكبرين ، والمنحرفين أو المقترفين . تأكيدا للحقائق ، وتصويرا للمعانى ، وتنويها بمكانته عنده سبحانه وتعالى ، والحديث فى الاسراء والمعراج كان مثار خلاف وجدل بين العلماء ـ قديما وحديثا ـ ولم يكن الخلاف فى ثبوتهما وحقيقتهما .. أما الاسراء فقد نطق به القرآن الكريم فى أول سورة الاسراء « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير» ومنكره كافر لأنه ينكر القرآن الذى هو تنزيل من حكيم حميد .. أما المعراج فان ثبوته جاء من طريق السنة وهى دليل ظنى كما يقول العلماء ، ومن الأحاديث التى وردت فيه « عن أنس بن مالك رضى الله عنه . قال كان أبو ذر رضى الله عنه يحدث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فرج عن سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل عليه السلام ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وايمانا فافرغه فى صدرى ثم أطبقه ثم أخذ بيدى فعرج بى الى السماء الدنيا ، فلما جئت الى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء افتح قال من هذا قال جبريل قال هل معك أحد قال نعم معى محمد صلى الله عليه وسلم . فقال أو أرسل اليه قال نعم . فلما فتح علونا السماء الدنيا ، فاذا رجل قاعد

على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة ، اذا نظر قبل يمينه ضحك ، واذا نظر قبل شماله بكى . فقال مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح . قلت لجبريل من هذا . قال هذا آدم صلى الله عليه وسلم وهذه الأسودة عن يمينه نسم بنيه . فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التى عن شماله أهل النار ، فاذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى حتى عرج بى الى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال الأول ففتح قال أنس فذكر أنه وجد فى السموات آدم وادريس وموسى وعيسى وابراهيم صلوات الله عليهم ولم يثبت كيف كانت منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم فى السماء الدنيا وابراهيم فى السماء السادسة .. قال أنس فلما مر جبريل عليه السلام بالنبى صلى الله عليه وسلم بادريس قال مرحبا بالنبى الصالح والأخ الصالح . فقلت من هذا قال هذا ادريس ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبى الصالح والأخ الصالح قلت من هذا قال موسى ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح قلت من هذا قال هذا عيسى ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح قلت من هذا قال هذا ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكان ابن عباس وأبو حبة الأنصارى يقولان قال النبى صلى الله عليه وسلم ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام .. قال أنس بن مالك قال النبى صلى الله عليه وسلم ففرض الله عز وجل على أمتى خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى صلى الله عليه وسلم فقال ما فرض الله على أمتك قلت فرض خمسين صلاة قال فارجع الى ربك فان أمتك لا تطيق ذلك فرجعت فوضع شطرها فرجعت الى موسى قلت وضع شطرها فقال راجع ربك فان أمتك لا تطيق فرجعت فوضع شطرها فرجعت اليه فقال ارجع الى ربك فان أمتك لا تطيق ذلك فراجعته فقال هى خمس وهى خمسون لا يبدل القول لدى فرجعت الى موسى فقال ارجع الى ربك . قلت استحييت من ربى ثم انطلق بى حتى انتهى الى سدرة المنتهى وغشيها الوان ما أدرى ما هى ثم أدخلت الجنة فاذا فيها حبائل اللؤلؤ واذا ترابها المسك » ويلاحظ أن الحديث طوى ذكر الاسراء اعتمادا على ذكر القرآن له .. وقد ورد حديث الاسراء والمعراج بصورتين مختلفتين باختلاف الرواة فالذى يرويه مالك بن صعصعة غير الذى يرويه مالك بن أنس . وان كان كلاهما يتفق على أن الاسراء تقدمه ايقاظ جبريل عليه الصلاة والسلام . وشق صدره . وصب وعاء من علم وحكمة فيه . كما يتفق كل منهما على أن الرسل كانوا موزعين على أبواب السماوات ، يستأذن جبريل فيقول القائل منهم من ذلك الذى يطرق الباب فيرد عليه جبريل قائلا له أنا جبريل ، فيقول له ومن معك فيقول له محمد فيقول بعد الحفاوة به والترحيب أو قد أرسل اليه فيقول جبريل نعم . وهكذا

لوقه الاستقبال تدل على مقدار الاهتمام بالضيف ، والتعظيم له ، وتسخير الأعوان والرؤساء لخدمته .. والذي يتصور هذا الاستقبال وما أحاط به من الاجلال والاحترام ، سينسى من غير شك استعراض الجيوش التي كانت تعد لاستقبال الملوك ، ورؤساء الدول ، احتفالا بقدومهم ، وابتهاجا بضيافتهم ، وتنويها بشأنهم ، وتخليدا لتاريخهم ، ولا ننسى أنه قبل العروج الى السماء ومعه جبريل عليه السلام قد صلى بالأنبياء في بيت المقدس . وقد كان هو الامام مع أن في هذا الجمع الذي صلى به آدم أبا البشر .. وأباه ابراهيم وكان فيهم — كذلك — أولو العزم من الرسل . وهو دليل آخر على الحفاوة البالغة ، والتكريم الذي لا نهاية له .. ويقول رواة الحديث ان جبريل لم يتجاوز السماء السابعة ، أما هو صلى الله عليه وسلم فانه ارتفع الى سدرة المنتهى ، ورأى نبقها مثل قلال هجر ، وورقها مثل آذان الفيلة ، ثم تجاوزها الى البيت المعمور ورأى أفواج الملائكة تدخل اليه أو تخرج منه . وهكذا رأى صلى الله عليه وسلم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .. وفي ذلك كله دليل آخر على أن قدره يتجاوز هؤلاء جميعا بما فيهم جبريل الذي تنحى له عن السبق ، وقال له ليس من حقي أن أزيد عن ذلك أما أنت فلك الى ما وراء سدرة المنتهى « ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يغشى السدرة مايغشى ، مازاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

والاسراء هو اليسير بالليل ومشيه السري وزان الهدى والنهى والعلى .. وهو قطعه صلى الله عليه وسلم المسافة من المسجد الحرام بمكة الى المسجد الأقصى بالقدس . على الدابة المسماة بالبراق ، وكان العرب لا يقطعونها الا في شهر كامل ذهابا وآخر ايابا .. ولذلك هالهم الأمر ، واستعظموا ذلك الحديث ، وطالبوه صلى الله عليه وسلم بالدليل على أنه صادق في ذلك .. فأخبرهم بأن في الطريق عيرا لبنى فلان وأخرى لبني فلان ومن أوصافها كيت وكيت ، فطالبوه أن يصف بيت المقدس نفسه . فأخذ يصفه كأنما هو حاضر أمامه . وهو يتحدث لهم عن جدرانه ونوافذه .. وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلالي الله بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه » على أنهم مع هذا البيان كله كذبوه صلى الله عليه وسلم وقالوا لعلها رؤيا نائم ، أو أوهام حالم .. وارتد بعضهم عن الاسلام بسببها « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس » ..

والمعراج هو الصعود · ومنه قوله تعالى في سورة المعارج « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » وقد صعد معه جبريل عليه السلام من غير سلم ولا آلة أخرى يرتفع بها · بل بقوة الهية كانت تجذبه الى فوق كأنما كان يمتطي مصعدا مما صنعه العلم الحديث الآن ·· وللعلماء اختلاف في حصوله للنبي صلى الله عليه وسلم ، هل كان بجسمه وروحه أم انه كان بروحه فقط ، والذين يؤيدون أنه كان بروحه فقط . يقولون ان نظرية الضغط الجوى هي التي تحدد ذلك لأن الانسان اذا ارتفع الى طبقة خاصة من الجو خرج دمه من مسام جسمه فمات ، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم لم يمت من المعراج فدل هذا على أن المعراج كان بالروح فقط · ويلزم من هذا القول انتفاء الاعجاز والخصوصية ·· والذين يقولون انه كان بالروح والجسم يبطلون هذا الدليل بأنه قياس غائب على شاهد وهو باطل ·· ويقولون انه كان معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم ، والمعجزة هي الأمر الخارق للعادة ، ويستدلون بأن الله سبحانه وتعالى في تسجيل هذه الحادثة يقول : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » والعبد اسم للروح والجسم معا ، ولو كان بالجسم فقط لقال بجسم أو جسد أو ما شاكل ذلك مما يدل على الهيولى مجردة على الروح ، وكذلك لو كان بالروح · على أن الروح وحدها لا يصح أن تكون مجال بحث أو نظر ، لأن الأرواح ـ مطلقا ـ من خصائصها التحليق والطواف دون أن تحدها أبعاد أو غايات ، لأن التحديد للمادة وهي ليست كذلك ··

وفي عروجه صلى الله عليه وسلم فرضت الصلاة ـ كما ثبتت قصتها في الحديث ـ خمسين صلاة في اليوم والليلة · ومازال صلى الله عليه وسلم يراجع فيها ربه خوفا من المشقة على أمته حتى صارت خمسا فقط ، ومن عجيب أمر هذه المراجعة أو المحاورة أن يكون موسى عليه السلام هو الطرف الثالث فيها دون غيره من الأنبياء والرسل ، وفيهم من هو أمس رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جده ابراهيم ، ولعل السر في هذا يرجع الى أن موسى أكثر الأنبياء معاناة ، وأعظمهم تجارب ، لأن بني اسرائيل لم يتركوا معه بابا من أبواب العنت الا ولجوه ، ولا أسلوبا من من الأساليب في الكيد الا سلكوه ، وكانت حياته معهم سلسلة من الصراع الدائم ، والكفاح المرير · وهو من هذه الناحية أبعد نظرا ، وأحزم رأيا ، ولا يطعن هذا في غيره من الأنبياء والرسل · لأن التخصيص بالمزية لا يقتضي الأفضلية ـ كما يقول علماء الأصول ـ وليس معنى مشروعية الصلاة في هذه الرحلة الخالدة أنه صلى الله عليه وسلم لم تكن في عبادته

لربه صلاة ، فانه كان يصلى • وكانت الصلاة ركعتين ركعتين كما صح في الحديث الشريف • ويظهر أن الرحلة الأخيرة التى فرضت فيها الصلاة كانت هى الرحلة الثانية فى تدرج المشروعية • ونحن نعلم أن التدرج كان فى كثير من التكاليف والعبادات • على أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعبد فى أول أمره على ملة أبيه ابراهيم وربما كانت الصلاة هكذا فى ملة ابراهيم •

مبايعة العقبة

لم يعرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه سكت عن الدعوة لحرب واجهته ، أو شدة صادفته ، أو تدبير شرير قام به خصومه ، أو هيأه له أعداؤه . ولكنه كان دائب العمل ، دائم الجهد . لا يثنيه صعب . ولا يرده مستعص . ولا يثنى عزيمته جاف غليظ .. وكان خصومه كلما حاولوا أن يعطلوا مسيرته ، أو يعوقوا ركبه . أو يغلقوا فى وجهه الأبواب . مهد هو بجلده وكفاحه وعزيمته وثقته فى الله بابا آخر يدخل منه الى قلوب الناس وأفئدتهم . ونحن نعلم أنهم كانوا يتابعونه فى المجالس والطرقات والأسواق ليقولوا للناس لا تلتفتوا اليه ، ولا تأخذوا عنه ، ولا تصدقوا له قولا ، لأنه يكفر بالآلهة . ولا يؤمن بالأوثان . ويفرق بين الرجل وعشيرته ، والمرء وزوجه ، وما زالوا به مطاردة وازدراء وتضييقا حتى قطعوا عليه منافذ الطرق ، ومسالك السبل ، وجعلوه يضيق ذرعا بهم ، وينفض يديه منهم . وقد كان يخرج الى الأسواق يطلب من يجيره ، وينشد من يحميه . ويقول لمن يلتقى به من الوافدين على مكة انه مضطهد فى أهله . غريب فى وطنه ، محارب من قومه ، لا يشعر بالحرية ، ولا يتمتع بالكرامة ولا يحس بالانصاف من الناس ، ثم يطلب من هؤلاء الذين يوجه اليهم خطابه . ويخصهم بشكايته ، أن يحموه من عدوان أهله ، وظلم قرابته ، وكثير من أولئك الذين كان يلوذ بهم . ويفزع اليهم . كانوا يردونه ردا غير كريم ، ويقابلونه مقابلة جافة ، وكان من الطريف من هذه الطوائف التى عرض نفسه عليها فى الأسواق أنهم اشترطوا فى ايمانهم به . وانضمامهم اليه ، أن يجعل لهم الرياسة على الناس فاعتذر لهم أن دعوته لا تقوم على السيادة ، ولا تقدس الزعامة « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » ومع كل هذا فانه كان

يعلق أملا كبيرا على الوافدين على مكة مرتادى الأسواق من أهل الأطراف البعيدة ، وبخاصة أهل المدينة ، وكأنما يرى أن بينه وبينهم روابط تحدبهم عليه ، وترقق قلوبهم له • وتهوى بأفئدتهم اليه • وساعده على هذا الأمل أو زاد من مطامعه فى ذلك أن بنى النجار أخوال جده هنالك ، وأن قبر والده هنالك أيضا • لكن الواقع الذى لا شك فيه أن أهل المدينة من العرب واليهود كانت بينهم احن وعداوات • دعت العرب أنفسهم أن يحالفوا اليهود لينتصروا بهم ويهدد بعضهم بعضا ، فالأوس حالفت بنى قريظة ، والخزرج حالفوا بنى قينقاع وبنى النضير ، وكان ذلك امتدادا للعداوة التى خلفها يوم بعاث الذى أفنى كبارهم ورؤساءهم ، على أن اليهود كانوا يعتبرونهم سوقة ليست لهم سيادة ولا جاه ، اذ كانوا يعملون لهم ويشتغلون فى أراضيهم ، وكانوا كلما اختلفوا معهم هددوهم بالنبى الذى حان حينه ، وقرب أوانه ، وكانت عائشة رضى الله عنها تقول كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم • وذلك لأنه هو الذى جعل كلا من الأوس والخزرج تحرص على أن تسبق الى الايمان به لتنتصر به على صاحبتها ••• ولما جاء موسم الحج تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفر من الخزرج يبلغون الستة ودعاهم الى الاسلام والى معاونته فى تبليغ رسالة ربه فآمنوا به وقالوا له ان يجمعنا الله بك فلا رجل أعز منك لدينا ووعدوه المقابلة فى الموسم القادم ••• وفى العام الذى بعده جاؤا اليه وقد كمل عددهم اثنا عشر رجلا فعاهدوه على ألا يشرك أحدهم بالله شيئا ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصيه فى معروف وأرسل النبى معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ، وكان لمصعب أثر بارز هنالك اذ أسلم على يديه سعد بن معاذ رئيس الأوس وابن عمه أسيد بن حضير وأسلم باسلامهما خلق كثير • وفى العام الثالث أقبل خمسة وسبعون رجلا وكانت مبايعتهم ذات دوى صاخب جعل قريشا تهتز • وكان مع النبى صلى الله عليه وسلم عمه العباس الذى لا يزال على دين قومه ، وقد كان يقدر فى هذا الوقت خطورة هذا الحلف الذى يعقده محمد مع أهل يثرب • فقال يا معشر الخزرج ان محمدا منا حيث قد علمتم • وهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، وقد أبى الا الانحياز اليكم ، واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه اليه ، وما نعوه ممن خالفه . فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم مسلموه وخاذلوه بعد خروجه اليكم فدعوه ••• فقالوا قد سمعنا ما قلت •• فتكلم يا رسول الله • فقال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ••• وكان فيهم البراء بن معرور فقال بايعنا يا رسول الله فنحن أبناء الحروب ورثناها كابرا عن كابر فقال أبو الهيثم بن التيهان أترجع الى قومك

وتدعنا ، فقال النبى أنتم منى وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ٠٠٠ ومدوا أيديهم فبسط النبي يده وبايعهم وجعل منهم اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ٠ ولما وصل نبأ هذه المبايعة الى قريش غضبت أشد الغضب وذهبوا الى الخزرج وقالوا لهم أتيتم الى أرضنا لتأخذوا صاحبنا وتبايعوه على حربنا فاعتذر لهم من لم يحضروا المبايعة ولم يبلغهم خبرها ٠

وكان اليهود بالمدينة يهددون الأوس والخزرج بأنهم سيظفرون بهم ، وينتصرون عليهم بالنبى الجديد الذى سيسارعون الى اعتناق دينه ، عندما يصل اليهم العلم بظهوره ٠ وقد كان لهذا التهديد أثره فى الدخول فى شريعته ٠ والايمان به ، وكل طرف من الأطراف فى هذه الآونة كان حريصا على أن يكون أسبق من غيره اليه ٠٠٠ أما قريش فانها أخذت تتوجس لأنها أصبحت تعتقد أن دعوة محمد قد انتقلت الى مرحلة جديدة تجاوزت بها كونها دينا وشريعة يختلف الناس عليها بين التصديق والتكذيب ، والايمان والكفر ، والاذعان لها أو الخروج عليها ، وصارت دولة من حقها أن تهدد وتتوعد ، وتحمى حدودها ، وتدافع عنها ، ثم هى فى وضع يسمح لها أن تردع وتخيف ، لأنها تستطيع أن تقطع الطريق على قريش ، وتجعلها بين أمرين اما أن يظل مرورها وتجارتها من هنا مع الخطر الذى تستهدف له ، أو أن تتحول عنه ، وكلا الأمرين يكلفها الكثير من العناء ٠ وقد كان محمد فى مكة مع القلة التى آمنت به تحت سمع قريش وبصرها تستطيع أن تحدد موقفها اذا خرج من مكة الى المدينة فقد خرج الأمر من يدها وتجاوز استطاعتها ، وحتى اذا لم يخرج وظل بين ظهرانيها ٠ فقد صار له معسكران لا معسكر واحد ٠٠ ويقول الدكتور الشريف « ثم تسلل المسلمون أفرادا وجماعات مهاجرين الى يثرب ٠ يستخفى بهجرته من يخشى على نفسه ، ويستعلن بها من يجد فى نفسه القدرة على التحدى ، وحاولت قريش أن ترد من استطاعت رده الى مكة لتفتنه عن دينه ، أو لتعذبه وتنكل به ، وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجه ان كانت المرأة من قريش فلا تدعها تسير معه ، وأنها كانت تحبس من لم يطعها وتستطيع حبسه ، لكنها لم تكن تقدر على أكثر من ذلك حتى لا تكون حرب أهلية بين مختلف بطونها ان هى همت بقتل واحد من هذه البطون ٠ وان كان بعض الموالى لقى حتفه فى هذا السبيل ٠ لكن الهجرة مع ذلك تمت وهاجر معظم المسلمين الا من قدرت عليه قريش ، وبقى محمد صلى الله عليه وسلم لا تدرى قريش ولا يدرى أحد أيبقى هو كما حدث فى الهجرة الى الحبشة ، أم يهاجر فى هذه المرة مع أصحابه ، وهذا الاحتمال الأخير هو الذى أخاف قريشا ٠ فانه يستطيع من مهجره الجديد أن ينظم جماعته أو ينظم يثرب التى فشا فيها

الاسلام بصورة تنبىء عن أنها ستكون مدينة اسلامية بعد وقت وجيز ، ولو تم هذا لكانت مكانة قريش الدينية والأدبية مهددة لقيام هذا الدين الجديد الذى يعمل لتحطيم الوثنية فى بلاد العرب ، ولقضى بذلك ـ كذلك ـ على زعامة قريش الروحية • وكانت تجارة مكة على خطر اذا وقف منها محمد موقف العداء والمخاصمة ، وهو لابد واقف هذا الموقف ان عاجلا أو آجلا ، لما ألحقته به وبأصحابه من أذى ، ولأنه يسعى لاقرار مبادىء جديدة لابد لاقرارها من تشكيل اجتماعى وسياسى جديد • ولذلك مشى رجال قريش الى بعضهم وعقدوا اجتماعا عاما فى دار الندوة تداولوا فيه الأمر ، واستعرضوا كافة احتمالات الموقف • ثم قر رأيهم على ضرورة التخلص من هذا الرجل بالقتل » ••

ونحن نعلم من سيرنا مع الحوادث ، ووقوفنا على الخطوات التى سلكوها معه من قبل ، أنهم كانوا يتهيبون قتله • ويعتبرون الاقدام عليه ضربا من الحماقة والطيش • لذلك لم يقبلوا رأى من يشير به ، أو يفكر فيه ، تفاديا لعداوة بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، ولكنهم أصبحوا مع محمد على حال تحتم عليهم أن يفكروا فى قتله ، لأنه بسلوكه الذى يسلكه ، ونهجه الذى يسير عليه ، منته الى قتلهم من غير شك •• والحصافة تقضى اذا تربص عدوك لك ، وتجهم فى وجهك ، وأخذ منافذ الطرق عليك ، أن تحذر منه ، وتستعد له ، وقد أيقنت قريش منذ أدبر عنها وفد العقبة الأخير أن عليها أن تحتاط للشر قبل وقوعه ، الا أن هذا الشر الذى كانت تحذره ، وتأخذ الأهبة لوقوعه شائك الى أبعد حد • وقتل محمد اذا هى أقدمت عليه سيجعلها فى حرج لا قبل لها به ، لكن محمدا سيقتلها ان لم تبادر بقتله ، فماذا هى صانعة ، أخذت تقلب المسائل على وجوهها المختلفة لتجعل بنى هاشم وبنى عبد المطلب أمام الأمر الواقع ـ كما يقولون ـ حتى لا يفكروا فى الأخذ بثأره اذا قتل •• فقال قائل نجعله على ظهر بعير يضل به فى الصحراء الى أن يموت • فسفهوا رأيه • وقالوا له انه لا يعدم بمنطقه الحلو • وعقله الكبير ، ورأيه السديد ، وتفكيره الحكيم ، أن يجمع اليه الجموع الغفيرة التى تقبل عليه ، وتتجاوب معه ، وتقدم نفوسها قربانا له ، وتفك وثاقه ، وتخوض معه الحرب الطاحنة لقتل عدوه ، والقضاء على خصومه وقال آخر نحبسه الى أن يموت فردوا عليه بما يشبه الرد السابق •• وقال أبو جهل نأخذ من كل قبيلة فتى جلدا ، ثم يجتمع هؤلاء الفتيان ليضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطع أهله أن يثأروا له ••• وبينما كانوا جادين لانجاز تلك الفكرة التى وصلوا اليها • كانت الأنباء تأتى اليهم أن المسلمين الذين كانوا فى الحبشة والذين كانوا فى مكة قد أخذوا طريقهم الى يثرب التى تتطلع الى لقائهم ، وتهفو الى

جوارهم ، وتستعد كل الاستعداد لايوائهم ... وكان على كرم الله وجهه في المكان الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم ينام فيه مبالغة فى تضليلهم . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد خرج هو وأبو بكر رضى الله عنه متوجهين الى المدينة ...

والى هنا نستطيع أن نقول ان قريشا قد تفلت الزمام من يدها ، وان الأرض التى تقف عليها لم تكن صلبة وان تفاديها للموقف ، أو علاجها للأمور ، لم يعد ممكنا . وأن كل خطوة كانت تخطوها للكيد لمحمد أو النيل منه ستلاقى جزاءها مضاعفا . وستحاسب عليها حسابا عسيرا ، وسوف يكون وضعها فى مكة غير محسود عليه . وسنرى من سير الحوادث ، وجريان عجلة التاريخ ، أن أوراقها ستذبل ، ونضارتها ستزول ، وتيجانها سوف تتساقط تساقط أوراق الخريف ، لأن دولة محمد صلى الله عليه وسلم التى تقوم فى المدينة ستأخذ فى الاعتبار حينما تزحف زحفها المقدس فى الأرض . لتمكين الحق ، واقرار العدل ، وانصاف المظلومين ، وعبادة الله . وتصحيح الأوضاع ، أن ذلك كله لا يكون الا اذا تحطمت أصنام مكة ...

هجرة الرسول

لم يكن هنالك بد وقد أفرغت قريش كل ما في جعبتها أن يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ومن كان معه من المسلمين مكة ، بعد أن أصبحت الحياة فيها مليئة بالقلق والاضطراب ، والآيلام والأذى ، والمطاردة والخوف والعنت والارهاق ، والكيد والتعذيب ، لكن كيف يقدم على ذلك وهم لا يغمضون أعينهم عنه • كأنما هم موكلون بحراسته ، اذا نام أو صحا ، أو تحرك أو سكن ، أو نطق أو سكت ، أو راح أو جاء ، حتى البيت الذى يأوى اليه لا يفوتهم أن يعرفوا ان كان يحتويه أو خاليا منه ، ينظرون من فرجة منه ليروه ببردة الحضرمى الأخضر ملتفا مستغرقا فى النوم • فاذا لم يكن على مقربة منهم ، وفى الأمكنة التى يعهدونها ثارت نفوسهم ، واختل توازنهم ، وأخذوا يبحثون عن مكانه ليطمئنوا على أنه فى قبضة أيديهم ، وفى مناطق نفوذهم •• لهذا كان من الصعب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختفى عن أنظارهم • أو يغيب عن أعينهم ، أو لا يكون لهم علم بمكان وجوده ، وكل واحد منهم ديدبان على باب داره ، ومناطق تحركه ، ومجالات نشاطه لبث دعوته ، واعلان دينه ، وهذا هو السر فى أنه لم يخرج الى البلاد المجاورة له طيلة هذه المدة التى أقامها بينهم مع ما كانوا يصنعون معه ، وقد هاجر المسلمون الى الحبشة فرارا بأنفسهم ، لكنه لم يخرج معهم وربما كان فى خروجه غنم له وللدعوة التى ينادى بها ، الا أن هذا البقاء الذى كان على غير رغبته • كان خارجا عن ارادته • ولو استطاعه لبادر اليه • على الرغم من أن فراقه لمكة لم يكن يسيرا على نفسه • أو مما تقر به عينه ، لأنها مجال صباه ، ومراد طفولته ، وموطن أهله وعشيرته • ولهذا فان الظروف التى ساعدته على أن يفارقها لم تتح له الا بعد تفكير طويل • ودراسة واعية • وتخطيط عميق • شارك فيه مجموعة من الناس كان لكل منهم

دوره الجاد ، وجهده المشكور • فعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه يجعل نفسه فى مكان النبى صلى الله عليه وسلم ينام فى فراشه ويعرض حياته للموت وهو يعلم أنه ينام فى فراش وفى مكان انســـان يطلبه أعداؤه للموت • وأبو بكر رضى الله عنه يهيىء راحلتين يشتريهما بماله الخاص ، وعبد الله ابن أريقط يضع نفسه تحت تصرف الراكبين ليكون دليل الطريق • وعبد الله بن أبى بكر يلتقط أخبار قريش لينقلها الى الرجلين فى الغــار • وكان عامر بن فهيرة راعى غنم أبى بكر يعفى آثار أقدام عبد الله بن أبى بكر بسير الغنم وهو غاد أو رائح الى أبيه ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسماء بنت أبى بكر تحمل الزاد • وغار ثور الذى يختفى فيه الرسول ومعه صاحبه تنسج العنكبوت تسجها على بابه ، والحمامة تصنع لها عشا لتبيض فيه • وشجرة بعد ذلك كله تميل بفرعها على باب الغار • وهكذا منظر يدل على أن الغار مهجور منذ زمن طويل لم يمر ببابه حيوان ولا انسان •

عناية الهية تجاوزت حدود العقل من غير شك تلك التى تولت باب الغار بنسج العنكبوت وعش الحمام وفرع الشجرة • الا أن السياسة التى أخذ النبى صلى الله عليه وسلم نفسه بها لتنجح تلك الخطة التى رسمها • والرحلة التى ابتدأها ، كانت هى أيضا عنوانا على بعد النظر • ودقة التفكير • اذ أنه اختار للاختفاء غار ثور على بعد ساعة من الزمن من مكة ، ثم ظل مختفيا ثـلاثة أيام ، وهو يعلم أن عدوه الذى يطلبه سينطلق فى طلبه الى الطريق العام بين مكة والمدينة • فلا يفكر أنه على مقربة منه ، أو أنه لا يزال مقيما معه • ويضاف الى ذلك أنه بعد هذا الاختفاء لم يسلك الطريق المألوف وانمــا سلك أخرى • وكل هــذه الوسائل التى اتخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم لخروجه من مكة وهجرته من مكان يلاقى من أهله العنت كانت عبقرية رائعة تدل على سياسة حكيمة • وعقل كبير ، ربمــا كان خارجا عن نطاق المألوف فى أصحاب العبقريات الجبارة •••

كل هذا تدور به عجلة الزمن • ويمضى به التاريخ قدما • وقريش لا تزال على يقينها الكاذب ، ووهمها الباطل • أن محمدا صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيها ، والفتيان الذين وقع عليهم الاختيار ليفرقوا دمه فى القبائل على باب داره ينتظرون خروجه منها ليضربوه ضربة رجل واحد ، وما يدرون أن النعاس قد غلبهم فى لحظة من اللحظات ، كان خروجـه حينها وقد عفر رؤوسهم بالتراب قائلا شاهت الوجوه • فلم يتنبه منهم أحد • لكنهم ظلوا على هذا الاعتقاد حتى قال لهم قائل لقد رأيت ثلاثة من الرجال على رواحلهم أشبه بالمسافرين وكأنما محمد واحد منهم • وحينئذ سقط فى أيديهم • ورأوا أنهم قد ضلوا • فجعلوا لمن يأتيهم بخبر صادق

عن تلك الرحلة مائة بعير • وكان سراقة بن مالك حاضرا فقال أنا آتيكم بخبر هذه الرحلة ، وكأنما ظن أنهما لا يأخذان الطريق المألوف • فعدا بفرسه فى طريقهم فلما أدركهم ســـاخت به فزجرها بعنف فنهضت به نهوضا طائشا ألقى به على الأرض وهنالك أحس كأن الدنيـــا تلعنـــه ، والحياة تلفظه ، والسماء تنطبق عليه • والهواء يخنقه ، وأن ايمانه بمحمد هو الذى ينقذه مما تورط فيه ، فطلب منه الأمان فأعطاه اياه ، ثم رجاه أن يعطيه كتابة تدل على أنه أدركه فى الطريق والتقى به ، ليأخذ الجائزة التى رصدوها لمن يدلهم على محمد •• والى هنا كانت قريش على يقين أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد فارق مكة متجها الى المدينة وأنه خرج من قبضة يدها لا تستطيع أن تدركه ولا أن ترده أو تصده ، وأن هذا هو الفصل الأخير من الرواية •• لكننا نسأل هل انتهت الرواية حقا ، وهل هذا هو الفصل الأخير منها • وهل اطمأن خاطرها لمطاردتهـــا لمحمد ، وايذائها له ، وصدها عنه ، ووقوفها فى وجهه • الى هذا الحد الذى جعله يطلب جوارا غير جوارها ، ومناخا غير مناخها ، وقوما سواها لا يكون فيهم شراستها ، وسوء معاملتها ، وغلظ أفئدتهـــا ، وجمود أفكارها • وانصراف قلوبها ، وجحود عقولها ، أظن ذلك بعيدا كل البعد • وأنها ستعانى من بعده عنها أكثر مما كانت تعانيه من قربه منها ، ويدلنا على ذلك أنها قد ابتدأت تفكر فى أمر محمد على نطـــاق أوســـع مما كان • فهو لم يعد فى نظرها داعيا الى دين يخالف دينها • ويصطدم بآلهتها ، وانما هى تفكر فيه كرئيس دولة لها كيانها الاجتماعى والسياسى لا يقل فى شأنه عن الدول الأخرى التى تجاورها مثل الفرس والروم • وأنهـــا اذا كانت فى الماضى تحســـب هؤلاء الذين كانوا يغيرون على حدودها ، ويطمعون فى السيطرة عليها • فعليها أن تحسب هذا الحساب على نطاق أوسع لرجـــل يتنافس على الخضـــوع له ، والدخـــول فى دينه الأوس والخزرج وطوائف اليهود فى داخل المدينة أو على حدودها • وهو لامحالة ستحدثه نفسه بالعودة الى الأرض التى طرد منها ، والقوم الذين باعوا جواره ، وفرطوا فى وده ، وخاسوا بعهوده ومواثيقه ، وكل وجداناتهـــم وعواطفهم كانت تدل على أنهم كانوا يعدون عدتهـــم لهذا اليـــوم الذى يخافونه ، والمصير الذى يترقبونه ، ولو كانوا يعلمون الغيب ما عاشوا هذه المدة التى فارقهم فيها محمد يعملون للظفر به ، أو النيل منـــه • لأن محمدا كان يعيش فى قلوب هؤلاء الذين آمنوا به • والتفوا حوله ، أما هم فانهم كانوا يعيشون فى قلوب أنفسهم وكفى • وهى قلوب خربة من الايمان • خالية من اليقين ، وكل واحد من أصحاب محمد بألف ، أما هم فكل ألف بواحد ، وشتان بين محمد وبينهم ، ولكنهم لا يفقهون » •

فى الطريق الى المدينة

كان خروج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة دون أن يعلم به أحد من كفارها الذين كانوا مشتغلين به يحصون عليه تحركه وسكونه ضربة قاصمة لم تكن تترقبها ، ولا تتوقع حدوثها ، وهذا هو السر الذى جعلها تجعل لمن يدل على جهة تحركه ، أو ناحية قصده مائة ناقة من أجود ابلها ، وهى جائزة على ضخامة قدرها ، وعظم شأنها ، لم يحصل عليها أحد ، لأنهم لم يهتدوا الى الجهة ، ولم يعرفوا الطريق ، ولم يقفوا مع البحث المتواصل ، والاهتمام الكبير ، على خبر شاف ، يطمئنون به الى ان محمدا سلك طريقا بعينه يمكن أن يلحقوا به ، أو يواصلوا السير الى ناحيته ، وكل ماترامى اليهم من الأخبار ، أو وصل اليهم من علم أن رجلا كان يغنى بيت شعر أرادوا أن يجعلوا منه بصيصا من النــور ، أو شــعاعا من المعرفة ، ذلك البيت هو قول القائل الذى لا يعرف أحد من هو وما قصته .

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتى أم معبد

وأم معبد على الطريق لمن يكون متجها الى المدينة يعرف الناس مكانها ، ويعرفون أنها امرأة رقيقة الحال لا تملك من المال ، ولا من ثروة الدنيا ، ما تجود به على معدم ، أو تسخو به على محتاج ، لينطلق لسان أحد بالثناء عليها ، أو المدح لها ، بشعر هكذا يتغنى به أحد فى خلوته ، ويردده بينه وبين نفسه ، قطعا لوقت ، أو دفعا للملالة وسأم ، لهذا كان لابد أن يدفع الفضول كثيرا من الناس أن يبحثوا عن قصة أم معبد هذه ، وما الذى دفع هؤلاء الذين يرددون اسمها ويتحدثون عنهـــا ، أن يولوها هذا الاهتمام ، وتلك العناية .. وتطوع من تطوع بسؤالها عن هذين الرفيقين اللذين حلا خيمتها ــ ولم يكن لأم معبد حظ فى اخفــــاء هذا الحديث أو انكاره ، وهى لم تعرف صاحبيه ، ولم يوصها واحد منهما ان تحتفظ بسره ، أو أن تخفيه على الناس ، وبخاصة وهو فيه من الطرافة والغرابة

ما يجعله فى باب الأقاصيص التى يتناقلهـا النـاس • وكان مبلغ علم أم معبد عن هذين الرفيقين أنهما قصدا الى خيمتها رغبة فى طعام يدفعان به غائلة الجوع • أو ماء يفتلان به حدة الظمأ • ولم يكن عندها شيء من ذلك • فلما يئسا من هذا كله مع الجوع والظمأ • نظرا الى شاة هزيلة فى الخيمة وقال أحدهما أليس فيها لبن نحلبه قالت لهما ان الهزال قد أقعدها عن الخروج الى المرعى مع بقية الغنم وهى لهذا لا أمل فيهـا • ولا رجاء منها ، لكن أحدهما تقدم اليها ومسح على ضرعهـا فدر لبنها فشرب وشرب جميع من كان هنالك •• وهذا هو كل ما تعرف أم معبد عن هذا البيت من الشعر وعن قصتها معه •• ولعل هذا البيت — كذلك كان هو الخيط الذى وصـل سراقة بذلك الطريق الذى سلكه ليدرك محمدا صلى الله عليه وسلم وان كان جهده الذى بذله لم يعد منه بطائل •• وقد عاتبته قريش فى بطئه فى العودة لأنها كانت ترجو أن يعود اليهـا مسرعا لتدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخل الى المدينـة لترده على عقبه الى مكة « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » •

وقد كان يهون المسافة الطويلة التى قطعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينـة أن أبا بكر كان يقص من التاريخ ، ويروى من حوادث الأيام ، ما يطرد به الهموم عن النبى ، ويشيع فى نفسه الغبطة والمرح ، فلا يحس بتعب ، ولا يشعر بألم ، وأبو بكر حبيب الى نفسه ، قريب الى قلبه ، يستريح لمصاحبته ، ويأنس بجواره • ويطيب خاطرا بوجوده معه •• ومع ما كانت عليه تلك الرحلة من المشقة التى ظل محمد صلى الله عليه وسلم يعانى منها هو وأبو بكر • فانها كانت حبيبة الى نفسيهما • سهلة الوقع عليهما ، لاحساسهما العميق أن المدينة سوف تكون الدار الطيبة ، والبيئة الصالحة ، والتربة الخصبة ، والوطن العزيز • والمنطلق الذى تجد الدعوة فيه من الازدهار والنمو ، والكمال والذيوع • والاستقرار والثبات ، والقوة والتمكن • ما كانت تترقبه وتصبو اليه ، وتأمله وترجوه •• وقد كان من العوامل المهمة فى الاستهانة بهذه المتاعب كلها عامل له تقديره ولا يصح اغفاله فى تاريخ الهجرة ، والحديث عنها ، أو السرد لأخبارها ، ذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم • فى كل خطوة يخطوها • وفى كل مكان يمـر به ، كانت تنفتح له قلوب النـاس • وتتهـافت اليه أفئدتهم • وتحفه من كل جانب ضمائر كانت تتـأجج بنار الشوق ، وتشتعل بلهيب الود ، وتخف من مكانها لاسـتقباله ، والحفاوة به • وتطلب منه أن ينزل اليها ويحل ضيفا عليها ، ولم يكد يصل الى قباء — وبينها وبين المدينة ثلاثة أميال أو خمسة كيلو مترات — كما يقول لبيب البتانونى — حتى كان على بن أبى طالب رضى الله عنه قد أدركه • وهنـالك طلب منـه بنو عمرو بن عوف أن ينزل عنـدهم ،

ويستريح في جوارهم هونا ما من الوقت ثم يواصل سيره بعد ذلك اذا أراد فبقى عندهم أياما وضع فيها أساس مسجد كان هو أول مسجد أسس على التقوى ، واستأنف بعد ذلك سيره الى المدينة على راحلته • ومعه أبو بكر على راحلته أيضا • وكان وفود أهل المدينة فى صفوف متراصة على طول الطريق من أول النهار حتى يشتد لفح الشمس عليهم فيعودوا الى منازلهم • وكان مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو داخل الى المدينة أربعة رجال عبد الله بن أريقط دليل الطريق ، وغلامه زيد بن حارثة ، وعلى بن أبى طالب ، وأبو بكر ، ولا يعرف النبى صلى الله عليه وسلم من هذا الجمع الحاشد على جانبى الطريق الا أصحاب بيعة العقبة الأولى والثانية وهم لا يتجاوزون الثمانين بقليل • وقد ترقب صلى الله عليه وسلم اذا عرفه هؤلاء المستقبلون أن يرهقوه بالسلام عليه ، والاستقبال له • وكانوا يعرفون أبا بكر لكثرة أسفاره وتجارته • وهم اذا أرادوا أن يتبينوا النبى صلى الله عليه وسلم من هذا فسوف لا يكون المسئول عنه الا أبا بكر • لهذا أوصاه النبى صلى الله عليه وسلم ألا يدلهم عليه • حتى لا يحس بالارهاق والتعب أكثر مما لاقاه من سفره فكان أبو بكر اذا سئل عنه أجاب انه رجل يهدينى الطريق • ثم ما لبث أن عرفه الناس • وبخاصة الأنصار الذين كانوا يطلبون منه أن ينزل عليهم ويقولون له « هلم الينا يا رسول الله فنحن أهل العدد والعدة والمنعة » ويأخذون بزمام ناقته وهو يقول خلوا سبيلها فانها مأمورة ، وعرض عليه مثل ذلك بنو النجار أخوال جده عبد المطلب ، وكان رده كذلك انها مأمورة ، ومازالت القصواء تسير وحدها حتى بركت بمربد ليتيمين من بنى رافع ثم قامت وبركت على باب دار أبى أيوب الأنصارى الذى نزل ضيفا عليه ، وبنى فى مربد اليتيمين مسجده الشريف ، وظل عند أبى أيوب الأنصارى سبعة أشهر حتى بنى بيوت نسائه بجوار المسجد ، وكان قد أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع ومعهما دليل الطريق عبد الله بن أريقط الى مكة ليجيئوا بمن تخلف عنه من أهله فجاءوا بفاطمة وأم كلثوم بنتيه • وسودة بنت زمعة زوجته ، وأم أيمن زوجة زيد وابنها أسامة ، أما ابنته زينب فمنعها زوجها أبو العاص بن الربيع • وخرج مع الجميع عبد الله بن أبى بكر بأم رومان زوجة أبيه ، وعائشة أخته ، وأسماء أخته أيضا زوجة الزبير بن العوام وكانت حاملا بابنها عبد الله وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة ، وتلاحق بعد ذلك المسلمون من مكة الى النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة فلم يبق الا مغلوب على أمره ، أو مفتون فى دينه ، واستقر المسلمون فى المدينة يمثلون قوة ضاربة لايمكن لقريش أن تصمد أمامها ، أو تقف بجانبها ، أو تحملها على خطة لا ترضاها • وقد صارت جبهة من حقها أن تحسب حسابها •

فى المدينـة

وصل النبى صلى الله عليه وسلم هو والمسلمون الى المدينة والغبطة تملأ نفوسهم . والفرح يفيض من جوانحهم ، والبشر باد على وجوههم . والاطمئنان ظاهر عليهم . وكأنمـــا كان ذلك انتصارا على المشركين ، واذلالا لنفوسهم ، وكيدا لهم ، وايلاما سوف يظل متمكنا منهم . مسيطرا على هواجسهم وضمائرهم مدى الحيـاة . فلا يغيب عن مشـــاعرهم . ولا ينأى عن وجداناتهم ، ولا يتخلف عن ادراكهم . ولقد كانت الحفاوة التى استقبلوا بها هنالك عاملا قويا فى الاعتقاد بأن عهد الارهاب الذى كانوا يعيشون فيه بمكة قد انتهى الى غير رجعة ، وأنهم منذ هذه اللحظة قد صاروا قوة يحسب الناس حسابها قبل أن تحدثهم نفوسهم بالنيل منهم ، أو الاعتداء عليهم . وهو معنى لم يكن من الميســـور عليهم أن يصلوا اليه . وهم قلة مطاردة ، وفئة مستضعفة ، وجماعة لا تجـــد من يحدب عليها ، أو يقف بجانبها . . وهذه هى الغاية التى كانوا ينشدونها ، ويرجون أن يصلوا اليها . والنبى صلى الله عليه وسلم لم يستقبل تلك الحال الجديدة بالاستسلام لها . والتفرغ لما يقتضيه الفرح والابتهاج . والغبطة والسرور . من التبطل والانقطاع لطرب النفس . وغبطة القلب أو لهو الفؤاد ، شأن كثير من الناس الذين يلهيهم الحاضر عن المستقبل ، وانما استقبلها بما يناسبها من العمـــل الجاد ، والاســـتعداد الجازم ، والاهتمام البصير .

أبتدأ أولا بالمسجد الذى يفزع فيه المسلم الى ربه يناغيه ويناجيه ، ويرجوه ويطلب منه . ويضرع اليه ، أن يلهمه السداد والرشاد ، والهداية والتوفيق . فى كل ما يأخذ فيه من عمل . أو يضمره من نية . وأن تكون عزته به ، وقوته منه . وأن يشمله بعنايته دائما أبدا ، فلا يتركه لجبار

يتحكم فيه · ويتسلط عليه · والصلاة الى جانب كونها تزرع هذا المعنى في قلب المسلم · تحببه في الجماعة ، وتعوده على الطاعة ، وترغب اليه النظام ، وتجعله يحس بكونه واحدا من هذه الكتل البشرية التى تتكون منه ومن غيره ، وقد كان المسلمون بحاجة الى الاحســـاس بهذا الاعتقاد ليرفعوا عن أنفســهم ضيم المطـــاردة ، وعار النفى ، وذل التفـرق · وهو ما شغل النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن اطمأن به المقام هنالك ·· وقد وصل الى المدينة والمسلمون معه ، وكلهم ــ كما يقول الحريرى ــ بادى الانفاض ، خاوى الوفاض · وما منهم الا وله فى مكة أب وأخ وأم أو أخت أو وزجة أو انسان عزيز عليه أن يفارقه ، أو يرى نفسه بعيدا عنه · الى جانب أنهم لا يملكون زادا يتبلغون به ، ولا ماء يشربـونه ، ولا دارا يأوون اليها ·· والفقر اذا ما تناول الناس فى ناحية من هذه النواحى كان هو الموت الأحمر ، ولكنه القدر القاسى يأبى الا أن يضيف الى مرارة الاغتراب ، وفراق الأهل والأصحاب مرارة الحاجة والحرمان · والقلق والبؤس · والمسلمون فى المدينة اذا اتسعت صدورهم ودورهم للنازلين عليهم ، أو النازحين اليهم · فهل تتسع أموالهم · وأرزاقهم · وهم كما وصفهم القرآن الكريم يؤثرون على أنفســـهم ولو كان بهـم خصاصة · لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يركز اهتمامه فى أن يأخذ كل واحد من المهاجرين فى عمل يحصل منـــه قوته ، ويضمن له لقمة العيش · حتى لا يكون عالة على أخيه من الأنصار ، على الرغـــم من أن الأنصار لم يتركوا بابا من أبواب البر باخوانهـــم المهاجرين الا فتحوه لهم · ليشعروا أنهم لم تنزح بهم الدار ، أو تتقطع بهم الأســـباب ، أو توصد فى وجوههم الأبواب ، أو تقتر عليهم الأرزاق ، ولم يمض وقت طويل على هذه التجربة المريرة التى مر بها المهاجرون ــ حينئذ ــ الا وهم لا يقلون فى ثرائهم وثروتهم ومستواهم الاقتصادى عن أهل المدينة من المسلمين وغيرهم ، وكانت أروع صورة أعلنها رجل من المهاجرين فى هذا الوقت تلك التى أعطاها من نفســـه عبد الرحمن بن عوف التى كانوا يصفونه بأنه لو تاجر فى التراب لصار ذهبا ·· وقد أخذت هذه المؤاخاة التى حدثت بين المكيين والمدنيين تتحكم أواصراها · وتزيد أسـبابها · وتتمكن روابطها بمباشرة النبى صلى الله عليه وسلم لها بنفســـه بين المهاجرين والأنصار ، يقول الأستاذ أمين دويدار « وعلى هذا الأساس آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فجعل لكل رجل من المهاجرين أخا من الأنصار · فكان الأنصارى يشاطر أخاه المهاجر داره وماله ، وهو بذلك طيب النفس قرير العين ، حتى لقـــد عـرض سعد بن الربيع الأنصارى على عبد الرحمن بن عوف أن يطلق له احدى زوجتيه ليتزوجها ، فضرب الأنصار بذلك مثلا فى الأخوة لا نظير له فى

تاريخ الانسانية كلها ٠٠ لكن المهاجرين لم يستغلوا هذه العاطفة الكريمة في اخوانهم الأنصار ليعيشوا كلا عليهم ، بل أخذوا يسعون ويكدون في سبيل العيش ٠ فاشتغل بعضهم بالتجارة في أسواق المدينة ، واشتغل بعضهم بالزراعة في أرض الأنصار ، وكانوا يجهدون أنفسهم في العمل حتى يتصبب العرق منهم ، وتظهر آثاره عليهم ٠٠ ولقد قاسى المهاجرون في المدينة كثيرا من ضنك العيش ٠ ومرت بهم أزمات شديدة قاسية ، ولم يكن ذلك تقصيرا من الأنصار في معونتهم ٠ بل ان عددهم قد جعل يتزايد في المدينة ، حتى غدا أكثر مما تحتمله طاقتهم ٠ لكن رابطة الأخوة الرحيمة الصادقة التي جمعت بينهم قد هونت عليهم كل شدة ٠ وسهلت لهم كل صعب ، وعوضتهم من شقاء الأجسام نعيم الأرواح ٠

لقد كانت هذه الأخوة الجديدة شيئا جديدا على المجتمع العربي ، الذي قطعت أوصاله عصبية القبيلة ، وفككت روابطه قرابة الدم ٠ بل كانت نوعا فريدا في تاريخ الأخوة الانسانية ، قضى على كل تعصب للجنس واللون والقرابة والوطن » ٠

ومن المعروف في هذه الآونة أن محمدا صلى الله عليه وسلم جعل بعد وصوله الى هنالك بئرا كان قد اشتراها أحد المسلمين من يهودي بأربعين ألف درهم عامة للمهاجرين والأنصار ، حتى لا يشعر المهاجرون أنهم دخلاء أو غرباء ، وحتى لا يشعر الأنصار كذلك أنهم شيء آخر غير المهاجرين ٠٠ لكن هذا كله لا يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم هو والمسلمون معه قد اطمأنت ضمائرهم كل الاطمئنان في بلدهم وافدون عليه ٠ أو نازحون اليه ٠ تعاودهم مابين آونة وأخرى فكرة أنهم انتهت بهم المطاردة عنده ، وأن حياتهم هنالك ليس فيها من الاستقرار والاطمئنان ما يحملهم على الرضا بالأمر الواقع ، أو ينسيهم بلدا فيه البيت الذي جعله الله للناس مثابة وأمنا ٠٠ وهم في المدينة لايعدو حالهم أن يكون أشبه بحال المسافر الذي ينتظر الأوبة ٠ ويرجو لقاء أهله وعشيرته ٠٠ وقد كان رسول الله نفسه يظهر حنينه لمكة ٠ ويبدي اليها الشوق ، وان كان بنى المسجد والى جانبه بيوت زوجاته لاصقة به ٠ ليغرس في قلوب الذين هاجروا معه الحب لهذا الوطن ، والاعتقاد بأنه الوطن الأصلي الذي لا تحول عنه ٠ ولا نزوح الى غيره ٠٠ وقد أخذت جذور الدعوة الاسلامية تمتد وتتمكن في المدينة وشرع الله الأذان والصيام والزكاة وبين معالم كثيرة مما يتعلق بالحلال والحرام ، والمعاهدة التي جمعت بين اليهود والمسلمين كان لها الأثر البالغ في تكوين جماعة من شأنها أن تجعل قريشا في مكة تخشى بأس المسلمين ، وتخاف أن تحدثهم نفوسهم باعلانهم الحرب عليهم ٠ وغزوهم في عقر دارهم ٠ انتقاما لأموالهم المغتصبة ٠

وأهليهم المعذبين ، ودينهم المضطهد ، وحريتهم المسلوبة ، وكرامتهم المضيعة ، لذلك أخذت حمى الخوف والهلع ، والجزع والفزع ، تسرى فى أفئدة طواغيت الشرك هنالك ٠ مما عساه أن يلحق بهم ، أو يطرأ عليهم ، فلم يكن لهم شغل شاغل وراء الاستعداد للاجهاز على تلك الدولة التى يؤسسها محمد صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، لهذا كانت لا تفتأ تتحسس أخباره ، وتحاول أن تعرف تحركاته ونواياه ، وتبذل لذلك كله ما تبذل لترى الى أى مدى تبلغ قوته مداها اذا هى حاربته ٠ أو خرجت لملاقاته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بدوره يتتبع أخبارهم ، ويحاول أن يعرف ما يبيتونه له ٠ وكان عمه العباس هنالك يكتب له أنباء تحركاتهم وشرورهم التى يضمرونها ٠٠ وكان التشريع السماوى ، والأدب النبوى ، يسيران معا جنبا الى جنب ٠ فى تكوين الوحدة الاسلامية ، والمبادىء الانسانية ، والأخلاق النبيلة ، لتتلاقى القلوب ٠ ويجتمع الشمل ، وتذوب الفوارق ، وتسود المحبة بين الناس ، وينسى كل انسان عصبيته لأهله وذويه ، أمام دينه الذى كان له منه نسب وصهر ٠٠ وليست هذه المعانى بالأمر اليسير فى نظر مشركى مكة الذين كانوا يشغلون أنفسهم بمحمد وأصحابه ٠ فقد كانت قلوبهم تغلى بالحقد عليه ٠ والكراهية له ٠ من جراء هذا الزحف المنتظر الذى سينظمه للقضاء عليهم على الرغم من علمهم أن عناصر أخرى تشاركهم فى عداوة محمد وأصحابه ، لأن القوة التى صار الاسلام يعتمد عليها بعد تلك العناصر التى تلاقت فى الأهواء والميول والعواطف والشعور هنالك فى المدينة بعد أن ألف الدين بينها ٠ وجعل منها قوة لا تستطيع أية قوة أن تصد زحفها ، أو تقاوم تيارها ، أو تحول سيرها ، أو تسكت صوتها ، أو تعاند ارادتها ، أصبحت لها السيادة ٠

تكوين الدولة

الأوس والخزرج واليهود هم سكان المدينة الذين وفد عليهم المهاجرون من مكة . والأوس والخزرج على الرغم من لحمة القرابة والدم التى كانت تجمعهم كانت قلوبهم متباعدة . وأهواؤهم متنافرة ، وخلافاتهم لا تنتهى . والحروب بينهم لا تضع أوزارها ، الا وهى تتهيأ لحرب أخرى . أكثر ضراوة . وأشد اندلاعا . واليهود ـ كذلك ـ لهم خلافات وعداوات وحزازات . بينهم وبين أنفسهم أو بينهم وبين العرب من الأوس أو الخزرج وكانوا فيما بينهم وبين ضمائرهم لا يودون أن يروا على موقع أنظارهم واحدا من الأوس أو الخزرج . وكانت صياصيهم التى اتخذوها . وحصونهم التى بنوها من المتانة والقوة . والاستحكام والاستعداد بدرجة تثير الدهشى ، وتلفت النظر ، وتدعو الى الغرابة والعجب . ودعاهم الى اقامتها على هذا الوضع . عدم اطمئنانهم الى العرب الذين كانوا يجاورونهم . حتى اذا ما اختلفوا معهم فحاربوهم أو ترقبوا منهم الشر كانت هذه الحصون قلاعهم التى يتحصنون بها ، أو بروجهم التى تعصمهم من عدوان مغير ، أو اعتداء كاشح . وهى على هذا الوضع رمز لصلة الطرفين بعضهما مع بعض ، أو عنوان على أن الرابطة التى تجمعهما كانت قائمة على الحذر والخوف ، لا على الاطمئنان والثقة ، ولهذا كله فان مهمة النبى صلى الله عليه وسلم بعد وصوله الى المدينة لم تكن من السهولة واليسر بالقدر الذى يجعله مستريح البال ، هادىء الخاطر . قرير العين ، نعم تكللت رحلته بالنجاح ، ونجاه الله سبحانه من شباك الكفار التى نصبوها له ، ولم يستطيعوا أن يلاحقوه ، ولا أن ينالوا منه . لكنه لم يكن يشك فى أنه يواجه بمسئولية شاقة تحتاج منه الى سياسة حكيمة ، وتفكير سديد ، ونظر ثاقب ، وبصيرة نافذة . وعقل رشيد .

وقد آخى بين الأنصار والمهاجرين واطمأن على أن الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق قد عوضهم الله خيرا مما فقدوا ، وأنهم قد نشطوا للعمل فى الأسواق والتجارة والزراعة وعادت لهم الحياة أحسن مما كانت ، لكن ذلك وحده لا يكفى أو لم يكن هو كل ما يبغيه محمد صلى الله عليه وسلم وهو لم ينس بعد أنه مطارد من أهل مكة • وأن مطاردتهم له لم تنته باخراجه منها ، وبعده عنها ، وانما هى مطاردة تتبعها ملاحقة • لأن العداوة القائمة بينهم وبينه لم تزل أسبابها ، ولم تنقطع بواعثها • وبخاصة وقد صار محمد فى طريق تجارتهم • ومن حقه أن يحمى دولته الجديدة ، ويتحكم فى سبلها • ومنافذ الدخول اليها أو الخروج منها ، وهذه أعراف دولية لا ينكرها عليه أحد ، ومعنى هذا أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد صار مع قريش فى وضع المحارب وأنها هى أيضا صارت معه فى وضع المحارب ، رضى هو أم أبى ، ورضيت هى كذلك أم أبت ، على أن المقدمات التى قدمتها قريش كانت من غير شك مقدمات حرب • لذلك كان يؤرق النبى صلى الله عليه وسلم هذا الوضع الجديد أكثر مما كان يطمئنه ، والمؤاخاة التى جعلها بين الأنصار والمهاجرين لم تكن هى كل ما يبتغيه ، فان هنالك عنصرية قائمة بعنوان يهود وعرب وهى فى حاجة الى ما يقضى عليها ، أو يكف من حدتها على الأقل ، وكان ذلك متمثلا فى معاهدة مكتوبة يوقع عليها الأطراف ، ويلتزمون بها ، وهذه هى خلاصة هذه المعاهدة كما جاءت بها كتب التاريخ ونشرها الدكتور الحيدرى أستاذ الحقوق بالجامعة العثمانية بحيدر أباد فى كتابه « الوثائق السياسة فى العهد النبوى والخلافة الراشدة » « هذا كتاب من محمد النبى رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم لحق بهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس •• المهاجرون من قريش يتعاقلون بينهم ويفدون عانيهم •• وبنو عوف يتعاقلون ، وكل طائفة تفدى عانيها •• وبنو الحارث يتعاقلون وكل طائفة تفدى عانيها •• وأخذ يعدد الطوائف التى تتناولها هذه المعاهدة والذين هم يتعاقلون ويفدون عانيهم• من بنى ساعدة ، وبنى جشم، وبنى النجار ، وبنى عمرو بن عوف، وبنى النبيت ، وبنى الأوس ، وأن المؤمنين لا يتركون مثقلا بدين دون أن يعاونوه فى فداء أو عقل ، وأن أيديهم على من بغى ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وأن من تبعنا من يهود فان له النصر ، وأن سلم المؤمنين واحدة ، ولا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، وأنه لايحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه ، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فان مرده الى الله والى محمد •

وأن اليهــود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وأن يهــود بنى عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، وأن ليهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جشم وبنى الأوس مثــل ما ليهود بنى عوف ... وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجــار قريش ولا مــن نصرها .. وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن ، الا من ظلم وأثم » وبهذا الميثــاق تكونت الدولة تكوينا قانونيا ، وأصبح لها دستور تلتزم به ، وتدافع عنــه ، لا فرق بين مسلم ومسلم ، ولا بين مسلم ويهودى ، كلهم رعايا دولة عليهم أن يصونوا حدودها ، ويحاربوا من أجلها ، وليس من حق واحــد منهم أن يضن عليها بنفسه أو ماله ، ويعلق الدكتــور أحمد الشريف على هذه الوثيقة فيقول « ويدل هذا الدستور على مقــدرة فائقـــة من الناحية التشريعية ، وعلى علم كثير بأحوال الناس . وفهم لظروفهـــم ، ولا نكاد نعرف من قبل دولة قامت منذ أول أمرها على دســـتور مكتوب غير هذه الدولة الاسلامية ، فانمــا تقوم الدول أولا ثم يتطور أمرها الى وضـــع دستور ، لكن النبى صلى الله عليه وسلم ما كاد يستقر فى المدينة وما كاد العام الأول من هجرته اليها ينتهى ، حتى كتب هذه الصحيفة التى جعل طرفها الأول المهاجرين والطرف الثانى الأنصار ، والطرف الثالث اليهود .. وهذه الصحيفة مهمة جدا لأنها حددت شكل الدولة الاسلامية . وقد بدأ كأنما ابتلعت الجماعة القائمة على أساس الدين تلك الجماعات القديمة القائمة على أساس الدم ، ولكن تلك الجماعات فى الحقيقة بقيت كما هى ، وان كان الشأن الأول قد انتقــل منها الى الجمـــاعة الكبرى ، فدخلت الطوائف التى كانت موجودة فى ذلك الحيز ، ونعنى بها القبائل والبطون والعشـــائر فى الجماعة الكبرى الجديدة ، واحتفظ لهـــا الدســـتور بشخصيتها ، ولكنه نقل منها اختصاصاتها كوحدات قبلية الى الدولة ، وان أبقى لها كل ما من شأنه أن يحفظ على الناس الروابط فيما بينهم ، وبذلك تكونت فى المدينة جمــاعة موحدة ، ولكن ذلك لم يكن دفعـــة واحدة فقد ظل يتحقق بخطى مستمرة ثابتة » وفى هذه الفترة التى سكن فيها المسلمون الى دينهم ، والتفوا حول نبيهم ، ووثقت هذه الوثيقة بينهم وبين طوائف هؤلاء اليهود ، لم يكن قد دخل معهم الجماعات الكبرى من اليهود أمثال بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة . وكانوا أكثر طوائف اليهود حقدا على المسلمين لما علموا من أن دينهم يأمرهم بالعمل الذى يرفع من شأنهم ولا يجعلهم أدنى حالا من غيرهم . ويحـــرم الربا والفواحش

ما ظهر منها وما بطن ، وهى أشياء تحد من طغيانهم ، وتقاوم خداعهم ، وتحارب سلوكهم • وقد تحالف منهم بنو قريظة مع المسلمين وان كانوا قد خانوا ماعاهدوا الله عليه فيما بعد ـ حينما كانت غزوة الأحزاب ـ ويظهر أن هذا الصنيع الذى صنعه النبى صلى الله عليه وسلم مع المسلمين واليهود بالمدينة كان أشبه بالمفاجأة لكثير من العناصر الذين ارتبطوا به وهم له كارهون ، لذلك ظهـر فيهم من كان موقفهـم موقف المتـردد ، لم يستطيعوا أن يعلنوا الامتنـــاع فراحوا يتعاملون مع المسلمين حينئذ بأسلوب الوجهين « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم » لكنهم لم يكونوا من الكثرة بحيث يحولون تيار الدعوة ، أو يؤثرون على موقف النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وكان أبرزهم عبد الله بن أبى بن سلول الا أن مواقفه كلها كانت مفضوحة ، وكيده كان ضعيفا • وكان النبى صـــلى الله عليه وسلم لا تخفى عليه دسائسه • وكلما هم واحد من المسلمين بقتله ، منعه النبى اكراما لابنه الذى كان من أصدق المسلمين ايمانا ، وأخلصهم عقيدة ، على أن ذلك كله لم يؤثر فى سير الدعوة التى كان أتباعهـــا يزدادون كل يوم كثرة وتمكينا فى الأرض .. وفى هذا الوقت الذى كانت الدعوة قد قر قرارها . وصارت لها دولة لا يتطاول عليها متطاول ، ولا ينال منها غاشم • كان صـوت الدعوة الى الصلاة فى أوقاتهـا يدوى من المرتفعات والشرفات « الله أكبر الله أكبر » فتبعث المهابة والخوف ، والرعب والفزع ، فى قلوب المترددين أو المنافقين فلا يسعهم الا أن يكبتوا الغيظ ، ويكتموا الحقد ، ولا يستطيع أحد منهم أن يفعل ما كان يفعل أبو جهل وأضرابه ممن كانوا بمكة يلاحقون المسلمين بالأذى ذلك لأن محمدا لم يعد داعيـا يحتـــال لدعوته ، أو يتخفى بندائه • ولكنه أصبحت له دولة من حقها أن ترد العدوان ، وتدفع الظلم ، وتخرس صوت الباطل ، وتكبت حقد الحاقد ، وتقلم أظافر الطغيان •

غليان القدر

لم يكن من السهل على قريش بمكة أن يطيب لمحمد المقام بالمدينة ، وأن يؤلف من حوله هذه القلوب التى عاهدته على أن تحميه مما تحمى منه نساءها وأموالها وأبناءها وأن تبذل فى سبيل نصرته كل ما تملك من مرتخص وغال ، لاتضن به عليه · ولا تحول بينه وبينه ، وليسوا من القلة بحيث يتغاضون عنهم ، أو يتغافلون لشأنهم ، ولكنهم هذه الكثرة الكثيرة من الأوس والخزرج الذين كانوا يتنافسون على المسارعة اليه · والدخول فى دينه ، وان كان ذلك تنافسا فى بادىء أمره لم يكن لاحقاق حق وابطال باطل · وانما كان لكبت العدو · وارغام الخصم · والانتصار فى معركة كان كل واحد من طرفيها يستعرض عضلاته للآخر · ليشيع فى نفسه الرعب منه ، حتى يظل دائما أبدا يحسب حسـابه ، ويخاف منه ، وقد تحولت بعد ذلك الى عقيدة امتزجت بدمائهم · وتمكنت من نفوسهم ، وصارت دينا يسيطر على أهوائهم وميولهم ، لكن الحال بعد أن استقرت لمحمد صلى الله عليه وسلم وللمسلمين معه · وعقدت المؤاخاة القائمة بين المهاجرين والأنصار برباط وثيق عز على اليهود أن يحصل ذلك كله ، لأنهم لايحبون أن يلتئم الجرح بين الأوس والخزرج ولا أن يجتمع الشمل بينهم وبين سواهم · والى جانب هذا فقد كانوا يرجون وهم أهل كتاب أن يكون لهم الأولوية والتقدم لدى محمد فيجعل منهم بطانته وأعوانه ، وربما كانت مطامعهم تتجاوز ذلك ويترقبون أن يلقى اليهم الرسن ، ويترك فى أيديهم الزمام ، ويجعل لهم رسم سياسته ، وارتباطاته وسـلوكه مع الناس ، ولما لم يتحقق لهم من هذا كله قليل ولا كثير ، غليت نفوسهم بالكراهيـة والحقد · والغضب والسخط ، وودوا لو أنهم كانـوا فيما بين طـرفة عين وانتباهتها يستطيعون تغيير

الأحوال ، وتصحيح الأوضاع ، وهم لا يملكون من السخط والحقد ، والكراهية والغضب ، أكثر من أن تكون سخائمهم سوداء ، وضمائرهم قاتمة ، أما ما وراء ذلك من حرب أو قتال • وطعن ونزال ، فهم أبغض الناس له ، وأزهدهم فيه • لذلك ركزوا جهودهم فى الايقاع والدس • وتعكير الصفو ، واشاعة البهتان ، والترويج للباطل • والتفريق بين الناس ، واختلاق الأخبار ، والعمل على زعزعة الايمان فى نفوس المسلمين • حتى اذا باؤا من ذلك بالفشل نمقوا الاعتراضات ، وزخرفوا الأسئلة ، وموهوا الحديث ، وزعموا أنهم يريدون من محمد صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم علم ما يجهلون • وهو فى الواقع تعنت الجاحد ومكابرة الحاقد ، ويقول الدكتور هيكل « هنالك بدأ اليهود يفكرون من جديد فى موقفهم من محمد وأصحابه ، لقد عقدوا معه عهدا وكانوا يطمعون فى أن يضموه الى دينهم • وفى أن يزدادوا على النصارى منعة وقوة ، وهذا هو أقوى من هؤلاء جميعا ، وهذه كلمته تزداد ثباتا ، بل هذا هو يفكر فى أمر قريش واخراجها له من مكة ، وفتنتها من استطاعت من المسلمين عن دينه ، أترى اليهود يتركون دعوته تنتشر ، وسلطانهم الروحى يمتد ، مكتفين بالأمن فى جواره أمنا يزيد فى تجارتهم سعة • وثروتهم ربحا ، لعلهم كانوا يسيغون هذا لو أنهم أمنوا ألا تمتد دعوته الى اليهود وألا تفشو فى عامتهم على حين تقتضيهم تعاليمهم ألا يعترفوا بنبى من غير بنى اسرائيل •• وهنا بدأت حرب جدل بين محمد واليهود أشد لددا ، وأكبر مكرا من حرب الجدل التى كانت بينه وبين قريش بمكة • فى هذه الحرب اليثربية تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين ، أقامتها اليهود جميعا صفوفا متراصة يهاجمون بها محمدا ورسالته وأصحابه من المهاجرين والأنصار ، دسوا من أحبارهم من أظهر اسلامه ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقى ثم ما يلبث الحين بعد الحين أن يبدى من الشكوك والريب • ويلقى على محمد من الأسئلة ما يحسبه يزعزع فى نفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالة الحق التى يدعو اليها •• وانضم الى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا هم أيضا نفاقا ليسألوا وليوقعوا بين المسلمين ، وبلغ من تعنتهم أن اليهود منهم كانوا ينكرون ما فى التوراة ، وأنهم جميعا يسألون محمدا اذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله •• وفطن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم • ورأوهم يوما فى المسجد يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم محمد فأخرجوا من المسجد اخراجا عنيفا • ولم يثنهم ذلك عن دسائسهم وسعيهم فى الوقيعة بين المسلمين • وقد مر – منهم – شاس بن قيس على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم فغاظه

صلاح ذات بينهم . وقال فى نفسه قد اجتمع ملأ بنى قيلة ــ أمهم ــ بهذه البلاد ، ومالنا معهم اذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، وأمر فتى شابا أن يذكر لهم يوم بعاث وما كان فيه من ظفر الأوس على الخزرج وتكلم الفتى فذكر القوم ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا وقال بعضهم لبعض ان شئتم عدنا الى مثلها . وبلغ النبى الأمر . فخرج اليهم وذكرهم بالاسلام الذى ألف بين قلوبهم وجعلهم اخوانا متحابين ، ومازال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضا واستغفروا الله جميعا .. وبلغ الجدل بين اليهود والمسلمين حدا كان يصل أحيانا الى الاعتداء بالأيدى .
وهذا هو أبو بكر الرجل الهادئ الوادع يتحدث اليه يهودى وكان يدعوه الى الاسلام فيقول ذلك اليهودى مابنا من فقر الى الله وهو الفقير الينا . يستقرضنا أموالنا ولو كان غنيا ما استقرضنا ، فضربه أبو بكر على وجهه ، وشكى أمره الى النبى وأنكر ما قاله ، فنزل فيه « لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق » .. ولم يكتف اليهود بهذا الايقاع وذلك الدس فراحوا الى النبى يقولون له بيننا وبين قومنا خلاف فان جئنا اليك فاحكم لنا لتؤمن بك الكثرة التى تجلنا وتتبعنا فنزل فيهم « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » وتسوق كتب السيرة من أمثال هذه المواقف المخزية التى كان يقفها اليهود مع النبى صلى الله عليه وسلم الكثير ، وربما كان أقربها دليلا على الحقد الكامن فى نفوسهم اغراءهم له بترك المدينة الى بيت المقدس رجاء أن يستقلوا بها وتعود لهم فيها مكانتهم القديمة ، ومجدهم الذاهب . فقد قالوا له ان المقدس كانت مهجر كثير من الأنبياء والمرسلين . وقد دعموا ذلك بأنها قبلته فى الصلاة حينئذ . وغاب عنهم أنه يضمر فى نفسه اللهفة الى مكة ويشتاق اليها ويتمنى أن تكون هى قبلته فى الصلاة ، وكان يوجه نظره الى السماء انتظارا لوحى ربه الذى يعلن اليه أنه استجاب رجاءه ، وحقق أمنيته ، فلما أرضاه الله سبحانه وتعالى بتحقيق ما كان يرجو ، وجاءه بقوله جل جلاله « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » أخذوا ينكرون هذا الانتقال . ويعيبون ذلك التحول . وهنالك نزلت هذه الآيات .. « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا

القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله » وكانت نجران عامرة بالنصارى الذين يحملون علم المسيحية ويزعمون أنهم على شيء من العلم بالأديان وقد جاؤوا الى المدينة بعد أن علموا أن الجدل قائم بين اليهود وبين محمد صلى الله عليه وسلم فأرادوا هم كذلك أن يدلوا بدلوهم فى الدلاء وأن يكونوا طرفا ثالثا فى الجدل والمناظرة ، واجتمعت على صعيد واحد فى المدينة الأديان الثلاثة النصرانية واليهودية والاسلام • وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وغير ذلك وذلك من الزعم الباطل ، والاعتقاد الفاسد • والهراء المرفوض ، الذى يأباه العقل ، وينكره الذوق والطبع ، والقرآن يدحض حججهم ويفند أقوالهم • ويطارد أوهامهم ثم ينتهى معهم الى رأى يشبه أن يكون محايدا ، لا يأباه الا مكابر أو جاهل حين يقول « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » وهى عقيدة لا تدين بربوبية الانسان للانسان • ولا بسيادته عليه • ولا ملكيته له ، ولا عبوديته اياه • والله وحده هو صاحب هذا الحق على الناس ، وهكذا كان العقل والمنطق • والاحتكام الى الفطرة والذوق هو المنهج الذى يلتزم به محمد صلى الله عليه وسلم فى كل جدل يجرى بينه وبين اليهود أو النصارى ، وقد سجل القرآن الكريم تهافتهم فى الجدل • وانغماسهم فى الباطل ، وامعانهم فى التمادى وغطرستهم فى الحق • ويأبى الله سبحانه وتعالى الا أن يرد كيدهم فى نحورهم وأن تتحول خصومتهم للاسلام الى خصومة بينهم تتمكن جذورها ، وتتحكم اسبابها ، بينهم وبين أنفسهم • فلا يزالون يلعن بعضهم بعضا ، ولا تزال عقائدهم مكشوفة الجوانب للناس ، لايسترها ذوق ، ولا يؤيدها عقل ، ولا يسندها دليل • ومحمد صلى الله عليه وسلم تقبس البشرية من نوره • وتأخذ من هديه • وتنهل من معينه ، وتنتفع بسنته ، وتباهى بتاريخه ، ولا يستطيع أحد أن يتقول عليه عيبا ، أو يلحق به نقصا ، وكأنما كانت حروب أعدائه له ، وتطاولهم عليه اعلانا عن فضله ، وتنويها بقدره ، واعترافا بأياديه على الناس •

شاكى السلاح

فى المعاهدة التى ربط النبى صلى الله عليه وسلم بها أفراد الدولة الجديدة · وكان بمقتضاها أن تتماسك الجماعات من الأنصار والمهاجرين· والمشركين واليهود ، وأن يعرف كل منهم ما له وما عليه ، تجاه نفسه وحده أو مندمجا مع غيره سواء فى ذلك الاندماج فى العمل أو الاختلاط أو المجاورة · كان صلى الله عليه وسلم قد نص على أنه لا يجير أحد قريشا أو يصل نفسه بها بأسلوب ما ، وكان ذلك يعنى أن الدولة الجديدة قد تم تأليفها ، ووضحت معالمها ، وتبين لها الصديق من العدو ، لتجرى أمورها على هذا الاعتبار · وكانت الدولة فى هذا الوقت لها السلطان على الطرق التى تتاخم حدودها شرقا وغربا وجنوبا وعقدت بينها وبين هؤلاء ، الذين يقيمون على هذه الحدود معاهدات تربطها بها · وتجعل جوارها معها آمنا ، لا يكدره خلاف ، ولا ينغصه نزاع ·· وكان من الضرورى والدولة لها عدو يترقب مصرعها ، وينتظر أن تمكنه الظروف من الاجهاز عليها ، والفتك بها ، أن تكون على حذر دائم ويقظة تامة · فلا تنام أعينها ، ولا تهدأ جوارحها ، ولا تطمئن نفوسها ، وانما تظل عيونها مفتوحة على ما يدور حولها ، ويجرى بجوارها حتى لا يباغتها عدو ، أو يفاجئها مغتال ·· وقد رأى المسلمون أن يبعثوا بطلائع من فتيانهم ليتحسسوا الطريق · وليعرفوا حاله من الأمن والسلامة ، والهدوء والاستقرار ، كما كانت قريش التى لم تخل تلك الطرق من تجارتها المارة ذهابا وايابا لم تهدأ عن ارسال طلائعها كذلك ، على الرغم من أن قوافل هذه التجارة كانت مزودة بالفرسان والرجالة الذين يحرسونها ويذودون عنها ، وربما كانت هذه الدوريات المتبادلة بين الطرفين لا تخلو من احتكاك مشوب بالحذر أو النظر الشزر ، وبخاصة اذا نظرنا الى أن

روح الخصومة هى التى كانت تسود الطرفين لامن أجل الاختـــلاف فى المبدأ ، أو التباين في العقيدة ، وانما لشىء آخر كذلك له تقديره ووزنه ، ذلك الشىء هو الثـأر القائم بين الطرفين ، والخصـومات التى كانت فى الصميم ، ولا ينسى هؤلاء الذين يمرون بقوافلهم فى هذه الطرق ، ويتلاقون بأولئك الناس أنهـــم من غير شـــك ينظرون اليهم بعين ملؤها الحقد والبغضاء ، لأنهم أرغموهم على ترك ديارهم وأموالهم · ومفارقة أهليهم وذوى قرابتهم · ولو استطاعوا أن يأخذوا بثأرهم المبيت · وحقهـــم المسلوب ، لشفى ذلك غليلهم · وداوى غلتهـم · على أن هذا كله كان لابد أن يحصـــــل وما من واحد من هؤلاء الذين يخرجون الى الطريق · ويلتقون بتلك القوافل الا له شىء هنالك قد تركه · وحمل حملا على أن يتركه ، أولئك الذين يلتقى بهم ، أو يراهم فى قوافلهم مغتصبون لحقه ، آخذون له على وجه غير مشروع ، ومن حقه أن يسترد منهم ما آخذوه على أى وجه من الوجوه ، لذلك كان اللقاء بين الطرفين لايخلو عن احتكاك يدل على ذلك ، وينبىء على أن حصـوله وشـيك · ويدل على هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم بعد ثمانية أشهر فقط من خروجه من مكة قد بعث عمه حمزة بن عبد المطلب ومعه ثلاثون راكبا فالتقى بأبى جهل الذى كان معه ثلاثماية وكان حمزة على أهبة أن يفتك بأبى جهـل ومن معـه لولا مجدى بن عمرو الجهنى الذى كان صديقا للطرفين ·· وقد سار بعده على الطريق عبيدة بن الحارث فى ستين راكبا فالتقى بأبى سفيان الذى انسحب من غير قتال ·· وقد خرج النبى صلى الله عليه وسلم بعد مضى عام ونصف عام على رأس مايتين من المهاجرين ليلتقى بأميـة بن خلف الذى كان يقود قافلة تجارية ضخمة معها الفان وخمسماية وكان يحميها ماية محارب ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يدركها لأنها غيرت طريقها فرجع الى المدينة ثم عاد بعد شهرين أو ثلاثة ليقطع الطريق على قافلة كان على رأسها أبو سفيان بن حرب ففاتته أيضـا ·· وقد ظلت هذه المناوشة ، وتلك الحركات الاستـطلاعية مستمرة من جـانب المسلمين لا تنتهى ولا تنقطع الى أن كانت الحادثة التى كانت بمثابة دوى القنبلة فى آذان أهل مكة جميعا ·· تلك هى سرية عبد الله بن جحش الذى بعث به النبى صلى الله عليه وسلم ومعه ثمانية فقط ليذهب الى مكان يسمى « نخلة » بين مكة والطائف ليستطلع أخبار قريش فلعلها أن تكون متهيئة لحربه من جراء تلك المناوشات التى تخيف طريق تجارتها ، وكان اثنـــان من أصحابه قد دخلا مكة يطلبان بعيرا لهما قد ضـل ، فأسرتهما قريش · وكان لهذا الأسر وقع سيىء فى نفس عبد الله بن جحش واخوانه صمما بعده على الانتقام · وكانت قد مرت بهم عير لقريش على رأسها عبد الله بن الحضرمى فقتلوه وأسروا رجلين ممن كان معه وفر الباقون وكان هذا فى

اللحظة الأخيرة من شهر رجب فاتخذت قريش من ذلك القتل ذريعة للتشنيع على محمد وأصحابه بانتهاك الأشهر الحرم ، ولم يسكتهم عنه الا صوت السماء يوبخهم وينعى عليهم أنهم ارتكبوا أشنع من ذلك « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير • وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » ••

والذى يلاحظه المؤرخون أن هذه المناوشات كانت تقوم على المهاجرين دون الأنصار ، ووجهة نظرهم أنهم هم دون الأنصار أصحاب الحق المغتصب ، وأنهم هم الذين وقع عليهم العدوان ، وقد كان يشفى غليلهم أن ينالوا من أهل مكة •• وأن يوقعوا بهم الايلام •• على أن المعاهدة التى أخذها النبى صلى الله عليه وسلم على الأنصار — فى العقبة — كانت تقتضيهم أن يدافعوا عنه اذا هوجم ، أما وهو يهاجم أو يهاجم أصحابه فليس عليهم أن يكونوا معهم • أو أن يقفوا بجانبهم •• ويبقى بعد ذلك سؤال قد يتوارد على الذهن ، وهو هل كانت هذه المناوشات من النبى صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه حربا — والأمر بها لم ينزل بعد — أم انها تخويف لا أكثر ولا أقل أراد به أن يكون له ما وراءه •

وفى مكة التى هاجر من وجه أهلها لا يزال بها الخطر الذى يتهدده ، ويتحين الفرصة لايلامه وايذائه • والقضاء على دعوته ، واسكات صوتها ، والاجهاز عليها •• وكذلك كان الحال فى المدينة التى ظن أنه سيجد فيها جوا أنقى • وحالا أهدأ • ولكنه وجد اليهود الذين يضمرون الشر ، ويكتمون العداوة • ويلهبون فى قلوب المنافقين نيران الحقد والبغض ، ويرسمون لهم خطوط التمرد والعصيان ، واشاعة التفكك فى صفوف المسلمين • حتى لا تقوى لمحمد شوكة • ولا تقوم للاسلام دولة •• ومن أجل هذا كله فالنبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة على حال لا يحسد عليها ، وقد حمله هذا على أن يلتزم بالمبدأ القائل « أطلب الموت توهب لك الحياة » وطلب الموت كان مصورا فى تلك الخطة التى أخذ نفسه بها فى معاملة هؤلاء الناس • وكأنما أراد أن يفهم قريشا أنه لا يصح لها أن تستمر معه على موقف القوة الذى تقفه منه ، وأن تعامله معاملة الفار من وجهها ، الهارب من عدوانها ، وأن تظل على تفكيرها فى قتله • أو الظفر به ، وقد تبدلت به الحال وأصبح على استعداد لأن يقنعها أن تحسب له حسابه ، ولم يجد لذلك وسيلة أحسن من أن يرسل اليها السرايا من المهاجرين لتقطع عليهم طريق التجارة الى الشام • ولتشيع هنالك الفزع والخوف ، فلا يجرؤ واحد على اقتحامه ، أو السير منه الا بقوة الحديد والنار ، وحينئذ يحسبون حساب الحركة والانتقال ،

أو يتحولون بتجارتهم الى طريق آخر أكثر مشقة ، وأبعد مسافة ، وفى هذا تعطيل لرحلاتهم • وكساد لتجارتهم ، وايلام لنفوسهم ، واثارة لحفيظتهم ، وأكد النبى صلى الله عليه وسلم بالأحلاف التى ربط بها بينه وبين القبائل المختلفة التى تستوطن هذا الطريق • ذلك المعنى الذى قصد به من حرب العصابات التى تشنها جماعاته على قوافل التجارة • وكان الهدف الذى يرمى اليه أن تفكر قريش فى تسوية حسابها معه ، فتبرم - على الأقل - معاهدة عدم اعتداء يستطيع المسلمون فى مكة أن يعيشوا بفضلها فى سلامة من شرهم • ومنجى من ايلامهم وبعد عن ايذائهم •• ويترتب على ذلك - أيضا - أن المنافقين واليهود فى المدينة يكفون عن نوايا السوء التى يضمرونها ، والخطط الخبيثة التى يرسمونها، ولم يمض عامان كاملان على اغترابه عن مكة حتى كان فى استطاعته أن يلتقى بهم وجها لوجه ملاقاة الند للند ، وكان له جيش يمكن أن يهددهم ، ويشيع فى صفوفهم الهلع والفزع ، وأصبحت قريش تفكر تفكيرا جادا وحادا فى سلامة تجارتها وأمن طريقها •• وكان هذا الخطأ الذى ارتكبه عبد الله بن جحش وجماعته لا يساوى شيئا بجانب ما ارتكبوه هم من الصد عن دين الله ، ومحاربتهم للحق ، وانحرافهم عن الجادة ، والتوائهم عن الصراط السوى ، وكأنما كان ذلك المنطق الذى سمعوه ، والأسلوب الذى جوبهوا به ، بمثابة الصواعق تصيب أفئدتهم ونفوسهم ، وتنزل على رؤوسهم ، لأن من أشد الحمق ، وأقبح الكبائر ، أن يرى الانسان القذى فى عين أخيه ، ولا يراه فى عين نفسه « والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله » وهكذا عرفوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يفارق وجوههم عن ضعف ، ولم يترك مكة مهزوما ، ولم يهاجر فارا ، وانما كان يعد نفسه ، ويجمع قوته ، ويسوى صفوفه ، ويضرب الضربة التى تصيب الهدف ، وتربك العدو ، وتكتب له النصر على عدوه الذى كان ينظر اليه بالمنظار الأسود •

شبهات الحرب

ربما ظن بعض الناس من تلك السرايا التى كان يرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم من جماعة المهاجرين • الواحدة تلو الأخرى ، مكونة من هذا العدد الضئيل لتقطع الطريق على المسافرين من قريش الى الشام أو الآيبين منها من أجل تجارتهم التى كانت هى الوسيلة الوحيدة لجلب أرزاقهم ، ونماء أموالهم • ووفرة أقواتهم أن هذه حرب بمعنى الكلمة ، يعتدى فيها مسلح على آمن • ويغير فيها معتد على وادع • ويقتحم فيها مغتصب دار أعزل من السلاح ، أو يساغت فيهـا واغل وطن مطمئن هادىء ، وأن هذا العدوان لا يصح أن يجعله الداعية سبيله الى ابلاغ صوته ، واقرار مذهبه ، وتمكين دينه بين الناس •• وقد بالغ قوم فى هذه الشبهة فزعموا أن دين محمد انتشر بالسيف ، وتمكن بالعنف ، وارتفعت رايته بالقوة ، وجبروت الكثرة الكاثرة • ممن وضعوا أرواحهم فى قبضة الرسول ليرمى بها فى المخاطر ، ويقذف بها فى المعامع ، ويطوح بها فى ميادين القتال • تحقيقا لمطامعه فى الفتح ، وآماله فى التوسع ، ورغبته فى السلطان ، وأحلامه فى الملك ••• وهو قول انما يقول به من يتجرد من العقل ، ويخلع عنه المنطق ، ويتجافى عن الحق والانصاف ، ويناقش مناقشة الأطفال ، ويجادل بلغة المجانين • اذ يزعم أن دعوة محمد كانت تسلطا أو ملكا أو رياسة أو قيادة لجماعة بربرية ظمأى الى الدم ، يسوقهم رجل له مطامع عدوانية ، وشهوات مسفة • وكبرياء أهوج • وتطلع محموم • كما كان الفراعين أو القياصرة ، فى حين أنه كان مأمورا بالوحى ، ومكلفا من قبل الله ، وأن لسان حاله كان يقول « ان أريد الا الاصلاح ما استطعت » وأن رسالته كانت « فطرة الله التى فطر الناس عليها » لا تعاند الطبع • ولا تخالف

الذوق . ولا تعارض التقدم ، ولا تقود الانسان الا الى البر والخير . والفلاح والنجاح . والسعادة والفوز ، ولا يمكن للبشرية أن تحيا الحياة الصحيحة دون أن تلتمس منها الرشد ، وتستمد منها الهداية ، وتجعل منها طب نفوسها ، وعلاج أمراضها . ومع أنها كذلك فما صح أنه أرغم عليها أحدا ، أو ألجأ اليها انسانا ، وانما كان أسلوبه « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وهو فى الوقت الذى يجعل الأخذ بهذا الدين ، والايمان به ، قائما على الاختيار والحرية . والترجيح والمقارنة ، والتأمل والتفكير ، والعقل والمنطق . والتروى والانتباه ، يشرع للمسلم القتال دفاعا عن دينه وعرضه وماله ونفسه .. واذا نحن حققنا النظر فى هذه السرايا ومناوشاتها — على الرغم من أنها لم تأخذ صفة الحروب بمعنى الكلمة وجدنا أنها لا تخلو من أن يكون الباعث عليها واحدا من هذه الأربعة المتقدمة ، التى جعلناها أسبابا واضحة تبرر التحام الجيوش فى ساحة القتال ، فأموالهم فى مكة قد اغتصبت . ودينهم يناله الايلام والايذاء ، والمطاردة والصد . ونفوسهم مهددة بالفناء ، فهم يقفون من كفار مكة الموقف الذى لا بديل عنه ، ويساقون الى حربهم بحكم الدفاع الذى لابد منه ، وحينما انتهى قرار المسلمين بالمدينة . واتخذوها الموطن الدائم كانت بحكم هذه الاقامة الدولة التى يتحتم عليهما أن يحموا حوزتها ويدافعوا عن حدودها ، ويردوا من يغير عليها ، أو ينال من أهلها فى دينهم أو أموالهم أو كرامتهم .. وتلك الطريق التى كانت تسلكها قريش وتنتهك حرمتها ، وتستعرض عضلاتها وقوتها لأهل المدينة ومن حولها . كانت فى حدود الدولة ، وكان عليها لتمر منها ، أو تستخدمها لمصلحتها ، أن تستأذن أصحاب السيادة عليها ، كما تقضى بذلك النظم الدولية . والأعراف المتبعة .. على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل يكتفى منها بهذا النفر القليل الذى أراد به أن يثير الرعب والفزع فى قلوب هذه القوافل المارة لتتخذ قريش لنفسها موقفا آخر ، يضمن سلامة رجالها وأموالها ، بالاتفاق مع رئيس الدولة على ما يسمى بحسن الجوار لا أكثر ولا أقل ، فلم يجعلها حربا بمعنى الكلمة ، يتخذ لها الأهبة ، ويوفر لها الاستعداد ، أو يجمع لها السلاح والذخيرة والرجال ، لأن القصد الأولى كان تعرف التحركات ، والوقوف على الأخبار والاطمئنان الى ما هو وراء عداوة قوم يشتغلون به ، ويفكرون فيه ، ويضمرون له أسوأ النوايا وينطوون له على أقذر العواطف ، ويتحينون هلاكه .. والمنصفون من المؤرخين انما يعيبون على المصلحين وأصحاب المبادىء والآراء الحرب الهجومية التى يبتدئون بها الناس ، أو يفاجئون بها الشعوب ، أما اذا كانت ردا لعدوان ، أو صدا لهجوم ، أو وقفا لشر ، أو ازالة لعوائق تعرضها ، أو حدود تسد الطريق عليها ، فانها مشروعة ، ومثل هذا

السلوك لا يقضى على المنطق ، ولا يطارد الحرية ، ولا يلجىء الى الارغام ، ولم تكن حروب الاسلام في يوم من الأيام هجوما ولا بطشا • وانما كانت لرد الظلم ، ودفع البغى ، وكبح جماح الباطل • ويقول الدكتور أحمد الشريف في كتابه – الدولة الاسلامية – « ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقم بحرب هجومية اطلاقا في أثناء المعارك الكبيرة التى وقعت بينه وبين قريش ، فان موقعة بدر التى حدثت فى السنة الثانيـة للهجرة حدثت داخل حدود اقليم المدينة ، وعلى أثر تحدى المكيين للنبى صلى الله عليه وسلم • وتسـيرهم قوافلهم بأراضى المدينة ممتهنين حـق السيادة اليثربية فأبو سفيان حـين مر بقافلته فى المنطقة كان يتحدى أهل يثرب بقوته ، ويستضئل شأن النبى ، ولهذا خرج النبى اليه ، وأراد أن يصادر هذه القافلة • أو أن يحاربها • وكان أمرهـا يشغله منذ خرجت من الشام ، حتى رأى فى منامه قبل أن تعود رؤيا تبشره بأن احدى الطائفتين ستكون له ، والطائفة الأولى هى القافلة ، والطائفة الثانية هى قوات قريش التى كان من المحتمل أن تخرج لنجدتها ، ومنع النبى من مصادرتها ••

وواقعة أحد فى السنة الثالثة وقعت فى جوار المدينة مباشرة ، وعلى نحو ميلين منها – وكان المكيون فيها مهاجمين يطالبون بثأر بدر ، ثم ان النبى خرج فى السنة الرابعة الى بدر الثانية لوعد بالحرب كان بينه وبين المكيين يوم أحد ، فلما كان فى العام الخامس وهو العام الذى وقعت فيه موقعة الخندق كان النبى مستقرا فى يثرب ، وعدوه هو الذى جاء اليه متحديا له ، منتهكا لحقه فى السيادة ، كما كان الحال فى أحد •• وقد حرص حين فتح مكة أن يتفادى الاصطدام بالمكيين ، وكان فتحا خلا من القتال بوجه عام ، ومع ذلك فان النبى حرص على الجهاد ، ونزل القرآن الكريم بآيات كثيرة ترفع من شأن المجاهدين ، الا أن الجهاد لم يكن يقصد به الا الدفاع واعزاز الدولة الاسلامية • بحيث تعيش فى أمن عام يساعدها على اعلان مبادئها حجة بحجة وبرهانا ببرهان ، دون أن تقف القوى المسلحة المادية فى طريقها • فتصدها أو تعطل سيرها ••

ومن هنا يتبين أن المسلمين لم يحملوا السيف ليرغموا غيرهم على الاسـلام ولكن ليدافعوا عنه عدوان الكفر ، وجبروت الظلم • وبطش الجبارين ، وتسلط المعتدين ، وعناد الحمقى ، وسفه المتطاولين ، على أن دعوى الاكراه والارغام اذا صح أن يرددها مكابر مغرض فى وقت من الأوقات فهل يروج الآن ترديدها بعد أن أثبت التقدم الحضارى • والنضوج الذهنى • والازدهار العلمى ، أنه يغزو العقول والأفئدة ،

واعترف فلاسفة الدنيا أنه الذى يجب أن تأخذ الدنيا بتعاليمه ، والانسانية بهديه . لأنه الدين الذى لا تصلح الحياة الا به ، ولا يستقيم الأمر الا عليه ... ويقول الدكتور هيكل « وما دامت الحرب فى فطرة الناس ، فتهذيب فكرتها فى النفوس . وحصرها فى أدق الحدود . هى غاية ما تحتمل فطرة البشر ، وما يحقق للانسان اتصال تطورها ، فى سبيل الخير والكمال ، وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون الا للدفاع عن النفس ، وعن العقيدة ، وعن حرية الرأى والدعوة اليه ، وهذا ما قرره الاسلام ونزل به القرآن » .

ومن غريب أمر هؤلاء الذين يخوضون فى حديث هذا الاكراه المزعوم أو الموهوم ، ممن يتهمون الاسلام بالعنف ، واراقة الدماء ، واشعال نيران الحرب ، فى سبيل اعلاء كلمته ، وانضواء الناس تحت رايته ، أن مبلغ علمهم به هذا الزيف المفترى ، والكذب المختلق ، والتمويه المفضوح ، فاذا مررت بهم على ما به من ارشاد ، وما فيه من اصلاح ، وما تضمنه من هداية ، وما نادى به من أدب . وما رسمه من خطوط . وما دعا اليه من خير ، لم يتخلف به عن تقدم ، ولم يعجز به عن نفع ، ولم يقصر به عن تطلع ونهوض ، عموا وصموا وظلوا فى طغيانهم يعمهون .. وكنا نود فى هذا الوقت الذى يرمونه بالقسر والقهر ، والعنف والتسلط ، والارغام والالجاء ، واراقة الدماء ، وازهاق النفوس ، أن يرجعوا الى تاريخهم ، ويحاكموا رجال دينهم ، ويلتمسوا لهم العذر فيما سودوا به وجه الانسانية من ارهاق وظلم ، وبطش وعدوان ، وقتل وسفك ، باسم الدعوة الى الله وانقاذ البشرية مما تعانيه ، ثم يغمزوا بعد ذلك جانبه ، ويلمزوا تكاليفه ، ويعيبوا نهجه ، أو يتهموا أساليبه فى الأخذ بيد الناس الى البر والمعروف ، لتنطلى دعوى اتهامه ، والاختلاق عليه ، لكن شيئا من ذلك لم يكن ، ولا يمكن أن يكون .. ولو كان عندهم قليل من الانصاف لقارنوا تلك الدماء التى أراقها محمد صلى الله عليه وسلم للتمكين لدينه ، ونشر دعوته ، بما أراقوه هم باسم عيسى وموسى ، وبما لوثوا به وجه الأرض وظهرها ، وتلك الأموال التى أنفقوها على الحملات التبشيرية للصد عن الاسلام ، وتحويل القلوب والأنظار عنه « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون » ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الويلات التى تعانيها البشرية هنا وهناك لا تحتمى الا باليهودية والمسيحية وهما منها براء ما فى ذلك شك .. أما الاسلام فهو لا يزال سلاما على الانسانية والناس . ويعجبنى فى هذا أن المؤرخين الذين أرخوا للاسلام فى الأندلس وهم يفضحون هؤلاء الذين يرددون مثل هذا القول ويردون عليهم الرد الذى يخرس ألسنتهم

اذ يقولون ان الاسلام حينما دخل هذه البلاد لم يحمل مسيحيا واحدا على الاسلام وحينما دالت دولته هنالك لم تترك المسيحية مسلما واحدا على اسلامه ، وانما أرغمته على النصرانية ·· ويقول الأستاذ أمين دويدار « وكان الاسلام فى حاجة الى أن يدافع عنه أهله ، وأن يحموه من أذى أعدائه وأن يعملوا على عرضه للناس فى جوهر الحرية والأمن والطمأنينة ، ولكل امرىء بعد ذلك أن يختار لنفسه ·· « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ومن أجل هذا أذن الله للمؤمنين فى القتـال ، لأنه الوسيلة الوحيدة لحماية العقيدة ، وتأمين المؤمنين بهـا ، حين لا تجدى وسائل السلم ··· على أن الله سبحانه حين أذن للمؤمنين فى القتال · لم يأذن لهم فيه الا دفاعا عن عقيدتهم ، وحماية لها ممن يعتدى عليها · وفى حدود الدفاع عن العقيدة وحمايتها ، نزلت آيات القتال والحث عليه فى القرآن الكريم ··· فالذين يقاتلون المؤمنين يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتـدين » والذين يخرجـون المؤمنين من ديارهم يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم « واقتلوهم حيث ثقفتمـوهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » والذين يفتنون المؤمنين عن دينهـم يجب على المؤمنين أن يقـاتلوهم « والفتنة أشد من القتل » والذين يحاولون الوقوف فى سبيل دعوتهم يجب على المسلمين أن يقاتلوهم « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » وهكذا يخزى الله الكافرين ، ويفحم المبطلين · ويفضح المعاندين ·

اليهود فى الطريق

دل تاريخ البشرية منذ العهود الطويلة ، والآباد البعيدة • على أن اليهود لم يكونوا فى يوم من الأيام في سلوكهم مع الناس • ومعاملتهم معهم • الا جرثومة شر • وعنصر فســـاد • وعاملا من عوامل الفرقة والكراهية • والنفور والبغض ، والحسد والحقد ، والايلام ، والتنغيص وما من حرب تدور رحاها ، ولا فتنة تشتعل نيرانها ، أو خلاف يقوم بين اثنين ، الا كان وراءه يهودى ، وفى القرآن الكريم كثير من خلالهم ، وعديد من أوصـــافهم • وهى تدل على أنهم عنصر هدام ، لا ينزع الى الاصلاح ، ولا يهفو الى الخير • ولا يميل الى تلاقى الأهواء ، وائتلاف النفوس ، وصــفاء القلوب ، واتحاد الكلمة • والتئام الشمل ، وحب الانصاف ، وانما يميل الى تمكين الشر ، ومعاونة الباطل • وغرس بذور الفساد ، وحسبهم أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم ••• وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يعانى شدة فى طريق دعوته الى الله • وابــلاغ رســالته الى الناس • أفدح ولا أعظم من تلك الشدة التى كان يعانيها من المنافقين واليهود • غير أن حال المنافقين كان شائكا لأنهم يعلنون الاسلام ، وليس من حقه أن يدخل الى قلوبهم ، ولا أن يهتك أسرارهم ، ولا أن يعاملهم الا بظاهر ما يبدو منهم •• لكن اليهود كانوا يزعمون فى أنفسهم أنهم أصحاب دعوة سماوية أخرى لا تقل فى تقديرها واحترامها عن دعوة محمد ، وهم لهذا يجب أن يجعلوه مطية لمجدهم الذى يحلمــون به ، وأوهامهم التى يتخيلونها فى السيادة على العالم ، والسيطرة على الناس ، والتعالى على الأوس والخزرج ، الذين يعيشون معهم فى مشادة ، ويحيون معهم فى صراع ولا سبيل الى ذلك الا اذا أزالوه من طريقهم ليكونوا وحدهم فى الميدان لا ترتفع عليهم صيحة • ولا يزاحمهم منافس وسياســتهم التى

يسلكونها في كل زمان ومكان تقوم على اللين المشوب بالذلة والخنوع المختلط بالضعف ، والتواضع الذى يصل الى حد الهوان ، من أجل الوصول الى أغراضهم ، فان أمكنتهم الفرصة من عدوهم أخذوه بالعنف • وعاملوه بالقسوة ، وأرغموه على أن يركب حد السيف • وقد كان فى المدينة المهاجرون والأنصار ، وكان بها المشركون من الأوس والخزرج الذين لم يتابعوا محمدا صلى الله عليه وسلم على دينه ، ولم يتبعوا دعوته ، ثم كان اليهود ــ كذلك ــ على الحدود القريبة منها كبنى النضير وبنى قريظة ، أو فى داخلها كبنى قينقاع ، والمهاجرون والأنصار قد ألف بينهم الدين الجديد ، وربط بينهم بأوثق رباط وأمتنة ، وان كانوا مهددين بالاحن القديمة ، أو الخلافات الطارئة ، التى لا تخلو منها أمثال تلك المجتمعات التى تؤلف بين طوائف فى عاداتها من التباين والاختلاف ما يباعد بينها • وكان النبى صلى الله عليه وسلم وهو على مقربة منهم يعالج أمراضهم ، ويدنى ميولهم ، ويقاوم فرقتهم • وقد كان المشركون يحسون من أنفسهم بالضعف الذى سببته المعارك القديمة واكتفوا بالوقيعة بين العناصر الأخرى من المسلمين واليهود •• واليهود بادروا فى أول الأمر الى حسن استقبال محمد صلى الله عليه وسلم اعتقادا منهم أنهم يستطيعون أن يهودوه ، ويجعلوه داعية لهم فى الجزيرة العربية كلها التى تمكنت فيها النصرانية والوثنية • ولم يعد فيها مجال لهم • ولا حديث عن دينهم • على الرغم من كونهم شعب الله المختار ــ كما يعتقدون ــ ولما لم تتحقق لهم أمنية الاستيلاء على محمد • وتسخيره لتحقيق أهدافهم • عملوا على أن يكونوا حربا عليه هو وأصحابه ، والدعوة التى ينادى بها ، والرسالة التى تلقاها عن ربه •

وكان من شعراء اليهود شاعر سليط مقذع وقف شعره على هجاء النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه ، هو أبو عفك ، وهو من بنى عمرو ابن عوف يرسل الأشعار تلو الأشعار فى الاستهزاء به ، والاستخفاف بدعوته • ويسخر منه ومن أصحابه ، ولم يكن واحد من المسلمين الا وفى نفسه منه شىء من الألم ، وظل هكذا ينال من المسلمين ويغرى بهم حتى بعد بدر التى رفع الله بها من شأنهم ، وأعز رايتهم ، وأعلى كلمتهم • وقد تطوع واحد من المسلمين باسكات صوته ، والقضاء عليه ، ذلك الرجل هو « سالم بن عمير » الذى ذهب اليه فى جوف الليل ودخل عليه داره وهو نائم ووضع السيف فى كبده •• وكذلك كانت عصماء بنت مروان ــ من بنى أمية ــ تعيب الاسلام وتؤذى النبى وتحرض عليه ، فجاءها يوما عمير ابن عوف ودخل عليها دارها وهى ترضع ولدها فنحاه عنها ، ووضع سيفه فى بطنها حتى أنفذه من ظهرها ، وكان قوم من بنى خطمة ــ قومها ــ يكتمون الاسلام فلما أعلن عمير بن

عوف أنه هو الذى قتلها وأنه لو واكبها على هذا أحد لقتله أعجبتهم شجاعته وأظهروا اسلامهم غير مبالين بما يلاقون فى سبيله ٠

وكان كعب بن الأشرف اليهودى الشاعر كذلك ممن يشتغلون بهجاء النبى وهجاء المسلمين ، ولقد ساءه أن ينتصر المسلمون ببدر ، فأخذ ينشر الكلام ها هنا وها هنا طعنا فيهم ، وتحريضا عليهم ، وهجاء لهم ، وحينما وصل اليه الخبر بقتل صناديد قريش فى غزوة بدر ، وقال هؤلاء أشراف العرب ، وصناديد قريش ، والله لئن كان محمد فعل بهم ما فعل لبطن الأرض خير من ظهرها ، وذهب الى مكة ليحرض أهلها على الأخذ بالثأر من محمد وأصحابه ٠٠ ولما عاد الى المدينة أخذ يشبب بنساء المسلمين ويفضح أعراضهم ٠ فامتلأت النفوس بالغيظ منه ٠ وهنالك أجمعوا على قتله ، وقصة قتله كما جاءت فى كتب الحديث هكذا « عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال ٠ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ من لكعب ابن الأشرف فقد آذى الله ورسوله ٠ فقام محمد بن مسلمة فقال يا رسول الله أتحب أن أقتله قال نعم ٠ قال فأذن لى أن أقول شيئا قال قل ٠ فأتاه محمد ابن مسلمة ، فقال ان هذا الرجل قد سألنا صدقة ٠ وانه قد عنانا ، وانى قد أتيتك استسلفك ،قال وأيضا والله لتملنه ٠ قال انا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر الى أى شىء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين ، فقال نعم أرهنونى ، قالوا أى شىء تريد ، قال أرهنونى نساءكم ، قالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ، قال فأرهنونى أبناءكم ، قالوا كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين ، هذا عار علينا ، ولكنا نرهنك اللأمة ٠ فوعده أن يأتيه ، فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة وهو أخو كعب من الرضاعة ـ فدعاهم الى الحصن فنزل اليهم ٠٠ فقالت له امرأته أين تخرج هذه الساعة ٠ فقال انما هو محمد بن مسلمة وأخى أبو نائلة ، قالت انى أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم ٠ قال انما هو أخى محمد بن مسلمة ورضيعى أبو نائلة ، ان الكريم لو دعى الى طعنة بليل لأجاب ، قال ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين ٠٠ وفى رواية أبو عبس بن جبر ، والحارث بن أوس ٠ وعباد بن بشر ، فقال اذا ما جاء فانى قائل ـ آخذ ـ بشعره فأشمه فاذا رأيتمونى استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه ، وقال مرة ثم أشمكم ٠ فنزل اليهم متوشحا وهو ينفح منه ريح الطيب ، فقال ما رأيت كاليوم ريحا أى أطيب ، فقال عندى أعطر نساء العرب ، وأكمل العرب ، فقال أتأذن لى أن أشم رأسك ، قال نعم فشمه ثم أشم أصحابه ثم قال أتأذن لى ، قال نعم فلما استمكن منه قال دونكم فقتلوه ، ثم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه »

وكذلك كان من اليهود الذين يعلنون على النبى صلى الله عليه وسلم

الحرب ، ويجاهرونه بالعداوة ، ويحرض عليه المشركين « أبو رافع سلام ابن أبي الحقيق » وكان من فضل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم أن كلا من الأوس والخزرج كانا يتنافسان في مرضاته ويتسابقان الى أن يحلا من قلبه محل الرعاية والاهتمام ، وكانت الأوس قد قتلت كعب ابن الأشرف ، فأرادت الخزرج أن تصنع صنيعا يكافيء صنيعها • وكانا يتصاولان تصاول الفحلين لا تصنع احداهما شيئا فيه للنبي صلى الله عليه وسلم رضا الا فعلت الأخرى مثلها ••• ولما أصابت الأوس كعب ابن الأشرف قالت الخزرج والله لا يذهبون بها فضلا علينا ، وتذاكروا رجلا في عداته للنبي كابن الأشرف فذكروا ابن أبي الحقيق • وهو بجهات خيبر فاستأذنوا النبي في قتله فأذن لهم فخرج اليه خمسة فيهم عبد الله بن عتيك وقد أمره النبي عليهم ، وقصته كذلك في كتب الحديث هكذا « عن البراء رضى الله عنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه سلم الى أبي رافع اليهودى رجالا من الأنصار فأمر عليهم عبد الله بن عتيك ، وكان أبو رافع يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعين عليه ، وكان في حصن له بأرض الحجاز ، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم ، فقال عبد الله لأصحابه اجلسوا مكانكم فانى منطلق ومتلطف للبواب لعلى أن أدخل فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجة وقد دخل الناس فهتف به البواب يا عبد الله ان كنت تريد أن تدخل فادخل فانى أريد أن أغلق الباب فدخلت فكمنت فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق على وتد ، قال فقمت الى الأغاليق فأخذتها ففتحت الباب وكان أبو رافع يسمر عنده • وكان في علالى له فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت اليه فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت على من داخل • قلت ان القوم نذروا بى لم يخلصوا الى حتى أقتله ، فانتهيت اليه ، فاذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، لا أدرى أين هو من البيت ، فقلت أبا رافع فقال من هذا فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئا ، وصاح فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ، ثم دخلت اليه فقلت ما هذا الصوت يا أبا رافع فقال لأمك الويل ان رجلا في البيت ضربنى قبل بالسيف ، قال فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله ، ثم وضعت ظبة السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت انى قتلته فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا حتى انتهيت الى درجة له فوضعت رجلى وأنا رأى أنى قد انتهيت الى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة • فانكسرت ساقى فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت لا أخرج الليلة حتى أعلم أنى قتلته فلما صاح الديك قام الناعى على السور فقال أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز فانطلقت الى أصحابى فقلت النجاء فقد قتل الله أبو رافع • فانتهيت

الى النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال لى ابسط رجلك فبسطت رجلى فمسحها فكأنها لم أشتكها قط ...

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظا لختلهم . بصيرا بكيدهم عالما بما تمتلىء به قلوبهم العفنة وضمائرهم الخبيثة . وطواياهم الفاسدة . ونواياهم الشريرة ، ولقد رأيناه يأخذهم بحذق . ويقلم أظافرهم بحكمة . ويقص أجنحتهم ببراعة ، ويستريح من كيدهم بمهارة . وينتهى بهم الى الاذلال الذى كتبه الله عليهم . ولم تكن ما نعتهم حصونهم التى أحكموا بناءها .. وقد كان بنو قينقاع بداخل المدينة يعملون فى صياغة الذهب والحلى . وكان المال الذى فى أيديهم يملأ نفوسهم بالخيلاء ، ورؤوسهم بالكبر ، وظنوا أنهم يستطيعون أن يسيروا على جماجم المسلمين ، ويطأوا بأرجلهم أشلاءهم ، لأن اقتصاد المدينة وتجارتها وأسواقها بأيديهم لا يزاحمهم فى ذلك كله أحد ، وفى ذات يوم قدمت الى بعض أسواقهم امرأة من المسلمين لتشترى شيئا من الذهب . فتطاول أحدهم عليها ، وعبث بحيائها . وعرى ثوبها عن جسدها فأخذت الغيرة رجلا من المسلمين فقتل ذلك اليهودى الذى تطاول على المرأة المسلمة ، وكانت هذه هى الشرارة الأولى فى اشعال نار الحرب بين يهود بنى قينقاع والمسلمين ، على الرغم من المعاهدة القائمة بينهم وبين المسلمين التى أخذها النبى عليهم أن يكونوا سلاما على المسلمين ، فلا ينالونهم بسوء ، ولا يساعدون عليهم عدوا ... وقد أعلنوا عدم التزامهم لهذه المعاهدة ، وتحديهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقالوا له لا يغرنك أنك قد لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم ، أنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ، ولم يكن هنالك بد من أن يضرب محمد صلى الله عليه وسلم ضربته الأولى ليزيل عن المدينة شبح الفوضى التى تهددها . والرعب الذى يسيطر عليها . وحينئذ حاصر بنى قينقاع خمسة عشر يوما لا يخرجون من بيوتهم ولا يدخل اليهم أحد فى بيوتهم ، وكان هذا الشلل الاقتصادى الذى أصابهم . والفزع الشديد الذى حل بنفوسهم ، داعيا الى أن يظهر عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين على شاشة المسرح ، ويقول للنبى صلى الله عليه وسلم انهم حلفائى ، وقد أعرض عنه النبى مرارا ، فلم يصغ اليه ، ولم يأبه به . الا أن عبادة بن الصامت رجاه أن يضيق الخرق على الراقع . ليصبح هو والمشركون الموالون لبنى قينقاع مدينين لاحسانه وعطفه ، وكان الرأى الذى انتهى اليه النبى هو استئصال شأفتهم . وابادتهم جميعا ، الا أن الرأى الذى استقر عليه بعد ذلك كان هو خروجهم من المدينة تاركين أموالهم وديارهم ، وكان هذا الخروج الى وادى القرى ثم الى أذرعات على حدود الشام ، وبهذا الخروج أصبحت المدينة فى مأمن من الفتن الداخلية . والدسائس التى

تحاك هنالك . وان كان يهود بنى النضير ويهود بنى قريظة على حدودها القريبة .. وكان طبيعيا بعد هذا الذى حل ببنى قينقاع أن يتعظ به اليهود والمشركون وأن يصيبهم الرعب جميعا لكن أبا سفيان جمع مائتى رجل وأغاروا على المدينة وقتلوا بعض الرجال ، وحرقوا بعض المنازل والنخيل ، يقصدون بذلك الى اشاعة القلق والاضطراب فى قلوب المسلمين بالمدينة • وقد ندب الرسول صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه ليلحقوا بهم فوجدوهم يلوذون بالفرار • ويرمون فى الطريق بما كان معهم من المتاع والطعام • وكان أكثر هذا الطعام سويقا لذلك سميت هذه المطاردة بغزوة السويق • وعلى أثر هذا المطاردة بقليل من الزمن كان مقتل كعب ابن الأشرف ، وبهذه الأحداث كلها متلاحقة كان الرعب فى قلوب اليهـــود يهددهم فى عقر دارهم ، أو فى داخل حصونهم •••

أما ما كان من أمر بنى النضير فهو لا يعدو أن يكون صورة كذلك من صور الخداع واللؤم ، والمكيدة والغدر ، والخنوع والذلة ، فان النبى صلى الله عليه وسلم ذهب اليهم يستعين بهم على دية قتيلين قتلهما أحد المسلمين بطريق الخطأ • وكان القتيلان من حلفائهم وحلفائه ـ بنى عامر ـ وقد أظهروا الاستعداد كله لتحقيق طلبه فى دفع دية القتيل • لكنهم أخذوا يسوفون ويماطلون ويروحون ويجيئون كأنما يزورون أمرا ، أو يبيتون غدرا ، ثم انتهى بهم التدبير الى خطة لقتله صلى الله عليه وسلم بالقاء الحجر فوقه من أعلى الحصن الذى كان جالســا بجواره انتظارا للذين وعدوه أن يعودوا اليه بحاجته التى يطلبها ، وكان الله جل جلاله قد أوحى اليه علم ما انتهى تفكيرهم اليه • فتسلل من مكانه خلسة دون أن يشعر به أحد • ولما افتقده أصحابه فلم يجدوه ذهبوا الى المدينة ، ولما وجدوه هنالك سألوه فأخبرهم الخبر ، ثم أرسل صلى الله عليه وسلم الى بنى النضير محمد بن مسلمة يحمل اليهم الانذار بخروجهم من مكانهم لأنهم غدروا به ، وكانوا يعدون عدتهم لقتله رميا بالحجر ، وفى هــذه الأونة أخذتهم الحيرة والارتباك ، وبينما هم كانوا يتهيأون للرحيل جاء اليهم رسول من عبد الله بن أبى يأمرهم بعدم الخروج لأنه سيقف بجانبهم ومعه ألفان من المقاتلين يدخلون معهم حصونهم ليموتوا عن آخرهم قبل أن يصل اليهم أحد من المسلمين ••• وقد أخذوا يقلبون هذا الرأى • ويفكرون فيه ، ثم انتهوا الى عدم الثقة فيه ، أو الاطمئنان اليه ، لأنه قال مثل هذا القول لبنى قينقاع ولم يغن عنهم شيئا • وبنو قريظة الذين هم على مقربة منهم لا يستطيعون أن يقدموا لهم صنيعا لأنهم يرتبطون مع محمد بمعاهدة تجعلهم ملزمين أن يقفوا الى جانبه لا الى جانبهم ، وقال كبيرهم حيى بن أخطب سأرسل الى محمد لا نخرج من ديارنا وأموالنا وليصنع بنا ما يريده ، وسنحتمى بحصوننا وأموالنا وأقواتنا وأسلحتنا ،

فلما حاصرهم المسلمون عشرين يوما أذاقوهم فيها الويل والدمار سألوا محمدا أن يؤمنهم على دمائهم وأموالهم ليخرجوا من غير أذى يلحق بهم ·
وقد رضى صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا ولكل ثلاثة منهم حمل بعير من مال وطعام وشراب ليس لهم غيره ، فخرجوا ومعهم حيى ابن أخطب الذى كان يغريهم بالتمرد والعصيان ، ونزل منهم من نزل بخيبر وذهب الباقون الى أذرعات ، وأسدل الستار على قوتين ضاربتين من قوى الشر التى كانت تناوىء الدعوة ، وتقاوم الاصلاح ، وتطارد الهداية ، وتكيد للاسلام ، وتصد عن سبيل الله ، وتبغى فى الأرض الفساد ··· ولم يجد اليهود بعد ذلك وعلى رأسهم حيى بن أخطب طريقا يسلكونه للانتقام لأنفسهم من محمد ومن حوله من المسلمين الا أن يؤلبوا عليهم قريشا والمشركين جميعا لتتلاقى معهم فى حرب تكون قضاء على الدعوة واسكاتا لهذا الصوت ، وابطالا لهذا التخطيط الذى يخططون له ··· ولهذا خرج حيى بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، ومعهم من بنى وائل هوذة ابن أبى قيس وأبو عمار حتى قدموا على قريش بمكة فسألهم أهلها عن قومهم · فقالوا هم بخيبر والمدينة ينتظرون مجيئكم لتنكلوا بمحمد وأصحابه ، وسألوهم عن بنى قريظة فقالوا أقاموا بالمدينة مكرا بالمسلمين ، ولم يلبثوا ان جئتم اليهم أن يميلوا معكم عليهم ، ولم تخدع قريش بهذا القول ولم تصدقه ، فسألت أديننا خير أم دينه ، فقالوا لا بل دينكم ، وهنالك نزلت فيهم الآية « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » ··
ولم يزل ابن أخطب حيى يسعى سعيه ، ويغلى حقده ، حتى جاء الى كعب ابن أسد ليغريه أن يحمل بنى قريظة على الغدر بمحمد ، والتخلى عنه اذا ما جاءت الأحزاب الى المدينة واغلة على أهلها · محاربة للمسلمين ·
وكان بنو قريظة قد عاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يقفوا الى جانبهم ، ويمدوا لهم يد المساعدة · وقد تردد كعب أن يستجيب لحيى بن أخطب لكن حييا لم يزل به حتى استماله واتصل نبأ هذا الغدر بالنبى صلى الله عليه وسلم فبعث سعد بن معاذ سيد الأوس · وسعد ابن عبادة سيد الخزرج ، وعبد الله بن رواحة ، وخوات ابن جبير ليقفوا على جلية الأمر ، فلما رأوا منهم روح الشر ، وقال كعب بن أسد من رسول الله ، لا عهد بيننا وبينه ، ووجد المسلمون أنهم قطعوا عنهم المدد والمعونة ، وفتحوا الطريق للأحزاب ليدخلوا المدينة ، لم يجدوا بدا من أن يتجهموا لهم ، ويعاملوهم معاملة أخرى ، فحاصروهم خمسا وعشرين ليلة طالبوا بعدها الخروج الى أذرعات تاركين ما يملكون ولم يرض الرسول صلى الله عليه وسلم ولا المسلمون بهذا العرض ··· وعرض

عليهم الرسول أن يختاروا رجلا يحكمونه بينهم وبينه فاختاروا سعد ابن معاذ فحكم بقتل المقاتلين وسبى الذراري والنساء ، وكأنما كانت وجهة نظر سعد أن يعاملهم بمثل ما كانوا يترقبونه للمسلمين اذا انتصروا عليهم وهو الاستئصال من غير شك . وقد كان لهذا القضاء على بنى قريظة الأثر البالغ فى قوة المسلمين وتمكن دولتهم ... وعندئذ اتجهت الأنظار الى يهود خيبر الذين وفد عليهم فلول النازحين من اليهود الآخرين من كل مكان وقد أصبحت تضم اليها بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، والى جانبهم قريبا منهم يهود تيماء ووادى القرى ، وكانوا يترقبون ما بين وقت وآخر أن يغزوهم المسلمون ، لذلك كان الاستعداد بينهم قائما على قدم وساق . فتارة يفكرون فى الدخول فى حلف مع النبى صلى الله عليه وسلم ليزيلوا من نفوس المسلمين ما علق بها من العداوة التى غرسها حيى ابن أخطب من جراء تأليبه العرب لاقتحام المدينة .. وتارة أخرى يفكرون فى تكتل يهودى عام يضمهم ومعهم وادى القرى وتيماء ... والمسلمون كانوا قد سبقوا من قبل بقتل زعيمين من زعمائهم هما سلام بن أبى الحقيق ، واليسير بن رزام ، وبهذا القتل حصلت خلخلة فى صفوف اليهود الا أن كثيرا من القرشيين كانوا يتوقعون أن الدائرة ستدور على المسلمين ، وذلك لمناعة حصون خيبر ، وقيامها فوق جبال صخرية ، وكان أبرز زعماء أهل خيبر فى هذا الوقت سلام بن مشكم الذى أشار عليهم أن يوزعوا أنفسهم على الحصون . فيجعلوا الأموال والأولاد فى حصن . والذخائر فى حصن . والمقاتلة فى ثالث وهكذا .. وضيق المسلمون عليهم الحصار وهم مستميتون فى الدفاع ، وقتل سلام ابن مشكم فتولى القيادة بعده الحارث بن أبى زينب ، وما زالوا صامدين .. وقد أرسل النبى اليهم أبا بكر فرجع من غير جدوى ، فأرسل عمر فرجع كذلك .. فأرسل عليا ودعا له بالنصر .. وقد خرج اليه يهودى فضربه فسقط ترسه ، فتناول بابا كان عند باب الحصن . فتترس به ولم يزل يقاتل حتى اقتحم الحصن واقتحم المسلمون بعده ، وسقطت خيبر وصالحهم النبى على البقاء فى أرضهم يزرعونها بالنصف ، لأن المسلمين لم يكن فيهم من يحسن القيام على فلاحة الأرض وزراعتها ، وقد قبل يهود فدك ووادى القرى هذا المبدأ ولكن يهود تيماء قبلوا دفع الجزية ولكن أمرها بعد الفتح عاد الى الاذعان والقبول ..

قبل غزوة بـدر

كانت سرية عبد الله بن جحش حدثا هاما في أوساط قريش بمكة لأنها قتلت رجلا وأسرت اثنين وأخذت ما كان مع القافلة القادمة من الشام فجعلته غنيمة للمسلمين تولى محمد صلى الله عليه وسلم توزيعها ثم هي مع ذلك أحدثت ضجيجا في صفوف المسلمين والمشركين في آن واحد ·· وقال القائلون لقد انتهكت الأشهر الحرم ·· وكان القرآن الكريم فيصلا في الدفاع عن المسلمين · ودحض الافتراءات التي افتراها الكفار عليهم · وقد كانت قريش ألحت في فك قيد الأسيرين اللذين كانا في حوزة المسلمين في مقابل فدية تدفعها وقبل النبي صلى الله عليه وسلم ما عرضته قريش بشأن الأسيرين على أن يتقدم ذلك رد الأسيرين المسلمين اللذين كانا قد ذهبا الى مكة طلبا لراحلتهما المفقودة ·· الا أن المسألة من الجانبين لم تنته الى هذا الحد فان قريشا أدركت أن محمدا وأصحابه قد ابتدأوا معها سياسة جديدة سوف تأخذ طريقها على مدى الأيام لوضع حد فاصل بين الطرفين لا يعلم الا الله ماذا يكون وراءه ، وكذلك المسلمون أخذوا يتطلعون الى تصحيح الأوضاع القائمة بينهم وبين المشركين ، وربما كان قد وقر عندهم أنهم منذ هذه السرية قد اهتدوا الى الأسلوب الذى يحسن أن تعامل به قريش لتتنازل عن غطرستها ، وتعدل من خطتها ، وتثوب الى رشدها ·· وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أن أبا سفيان خارج الى الشام بتجارة لقريش بذلت لها أموالها ، ورصدت لها كل ما تملك فيخرج للقائها فلا يدركها فيتربص عودتها ليأخذها لقمة سائغة للمسلمين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق ويصل الى علم أبى سفيان نبأ هذا الخطر الذى يتهدد تجارة قريش فيرسل رسولا الى مكة لتهب على بكرة أبيها لتحمى تجارتها ، وتدافع عن أموالها ، وبينما هى فى هذا الفزع والاستعداد للخروج ولقاء أبى سفيان كانت القافلة

قد وصلت الى مكة سالمة لم يصبها سوء لأنها غيرت طريقها فلم يدركها محمد صلى الله عليه وسلم ... الا أن خروج محمد بنفسه ليقطع الطريق كان له مغزاه البعيد جدا عند قريش لأنه يعني على الأقل أن الأمر من الجدية بدرجة عظمى ، وأن على قريش أن تحسب حساب هذه الجدية ... وقد أخذ أهل مكة يفكرون فيما يجب أن يأخذوا به ، فمن قائل ان الغرض الذى من أجله كنا نتهيأ للخروج الى لقاء محمد لنرده عن عدوانه ، ونمنعه من تطاوله قد أصبح لا غيا ، والحروب ليست من السهولة بحيث يستجيب الناس اليها بهذه السرعة ، ومن قائل لا نترك محمدا يطمع فينا ، ويستهين بالعدوان علينا ، ولو أن الخلاف كان مجرد تعارض آراء لهان عليهم أن يختلفوا لكنه تحول الى ناحية حساسة فى صلة الفرد بالفرد والجماعة بالجماعة ، تلك الناحية الحساسة هي القرابة والنسب الذى كان يربط بين أهل مكة والمسلمين الذين آمنوا بمحمد وهاجروا معه ، وهذا خلاف - أو اختلاف - اذا انتهى بالخروج الى محمد واللقاء له وجها لوجه . واعلان الحرب عليه ، كان معناه أن يقتل الرجل أخاه أو أباه أو ابن عم أو خال له ، لأن هؤلاء المهاجرين قد تركوا فى مكة أهلا وذوى قرابة . ورحما موصولة ، من الصعب أن يريقوا دماءهم ، أو يزهقوا نفوسهم ، لذلك فان الذين تحدثوا عن القعود عن القتـــال ، ولم يستقبلوا فكرة الخروج الى محمد ، ما دامت العير قد نجت . والتجارة قد وصلت سالمة ، لم يقابلوا بالرضا والارتياح من كثير من المتحمسين للقتال بحجة أنهم يتفادون قتال من تربطهم بهم قرابة أو نسب من أصحاب محمد ... على أن هنالك جماعة أخرى من المثبطين عن الخروج كانت ترى أن محمدا وأصحابه انما يأخذون بحقوقهم ، ويثأرون لأنفسهم ، لأن المعاملة التى عوملوا بها ، والتى انتهت بهجرتهم من مكة كانت غير كريمة ، وأن الظلم الذى وقع عليهم ، والغبن الذى لحق بهم . هو الذى دفعهم الى هـــذا الصنيع الذى يصنعونه مع قريش فى تجارتهـــا وقوافلها التى تغـدو وتروح ، وكل هذا كان من حقه أن يستبعد عن الأذهان فكرة الخروج الى محمد والحرب له ... ولولا أن فريقا آخر بحكم النخوة الجاهلية كان متحمسا للخروج والحرب ، وتأديب هؤلاء الذين يقطعون الطريـق على التجارة أو يحاولون أن يظهروا بمظهر الهزيل الضـــعيف أمام محمد وأصحابه ، تمسكوا بالحرب والدعوة اليها ، واعتبروا أن الذين يصرفون الأذهان عنها ، أو يقابلونها بالفتور والبرود ، لا يجرى فيهم الدم العربى ، وكان على رأس هؤلاء أبو جهل الذى كان موقفه دائما أبدا من النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه موقف العداء والكراهية وكان منهم كذلك عقبة بن أبى معيط ، وقد جاء هذان الرجلان بمجمرة فيها بخور ومرود ومكحلة لأمية بن خلف وقالا له استجمر وتكحل فانما أنت من النساء

لأنه كان يرى أنه لا داعى لقتال محمد ما دامت العير قد نجت ووصلت الى مكة سالمة لم يصبها أذى ، وكان على رأس أصحاب هذا الرأى أبو سفيان نفسه الذى كان على رأس هذه العير الا أن رأى أبى جهل الذى كان يدعو للحرب قد تغلب ... وكان عتبة بن ربيعة ممن لا يرون حرب محمد وأصحابه موافقة للصواب ، وكان يقول « يا معشر قريش انكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ... والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فان أصابوه فذلك الذى أردتم وان كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون فلما بلغ ذلك أبا جهل ذهب الى عامر الحضرمى — وهو أخو عمرو الحضرمى الذى قتل فى سرية عبد الله بن جحش — وقال انظر ماذا يقول حليفك ... والى هنا كانت فكرة خروج قريش الى الحرب قد نضجت ولم يبق أحد من أهل مكة الا وقد أعد نفسه للخروج أو أرسل من ينوب عنه الا بنو زهرة التى نزلت على رأى زعيمها الأخنس بن شريق الذى كان يرى عدم الحرب ... وانتهى الأمر بتجميع قريش التى أعدت نفسها لحرب محمد وأصحابه بالعدوة القصوى ... وقد كان خبر هذا التجمع قد انتهى الى النبى صلى الله عليه وسلم والى أصحابه . وكان لابد له أن يأخذ رأيهم فى ذلك فكانت موافقتهم عامة لم يشذ منهم أحد ، وقال المقداد بن عمر يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ولا نقول لك ما قال بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون ولكننا نقول اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ، وسكت الناس بعد ذلك فلم يتكلم أحد فقال النبى صلى الله عليه وسلم أشيروا على أيها الناس وكأنما كان يعنى الأنصار لأن الوضع الذى كان بينهم وبينه أن يحموه مما يحمون منه نساءهم وأبناءهم وكان معلوم أن ذلك فى داخل المدينة فقط . ومعنى هذا أن يقفوا معه موقف المدافع لا المهاجم — والحرب هجوم — وفى هذا الوقت تصدى له سعد بن معاذ سيد الأوس وقال له كأنك تعنينا يا رسول الله ، فقال له الرسول أجل . فقال سعد قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا فامض لما أمرك الله به ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معك . وما نكره أن تلقى عدونا غدا ، انا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك . فسر على بركة الله ، فأشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال أبشروا والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم .. وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد بعث عيونه يلتمسون له خبر قريش ليعرف مدى استعدادهم للحرب . فجاء اليه على بن أبى طالب والزبير ابن العوام وسعد بن أبى وقاص بغلامين من قريش قالا له ان قريشا وراء

الغيب بالعدوة القصوى فسألهما النبى صلى الله عليه وسلم عن عدد مقاتليهم فأجابا انهما لا يستطيعان أن يقطعا فى ذلك بقول ، فقال لهما كم يذبحون من الابل كل يوم فقالا له أن ذلك يتراوح بين تسعة أو عشرة من الابل فعلم أن عدد الجيش يتراوح بين التسعماية أو الألف .. كما جاء اليه أيضا اثنان من هذه العيون يقولان له ان قريشا ترد بدرا غدا أو بعد غد ، وكان ذلك بناء على أن جارية كانت تطالب أختها بدين عليها ، فقالت لها غدا أو بعد غد تأتى العير وسأعمل لها وأؤدى لك حقك ... وكان صلى الله عليه وسلم قد نزل بعيدا عن البئر المسماة بدرا ، فقال له الحباب بن المنذر بن الجموح بأبى أنت وأمى يا رسول الله أهذا منزل أنزلك الله اياه لا نستطيع أن نتحول عنه ، أم هو الرأى والخداع والحرب ، فقال له هو الرأى والحرب والخداع ، فقال له يا رسول الله ان الحرب والخداع والرأى تقضى أن تنزل على الماء نتحكم فيه ونأخذ منه ، ونذود سوانا عنه ، فاستراح النبى صلى الله عليه وسلم لهذا الرأى . وانتقل المسلمون اليه ، وبنوا حوضا عليه ، وظلوا يمنعون عنه من تحدثه نفسه بالاقتراب منه ، وكان أخذ النبى صلى الله عليه وسلم برأى واحد من أصحابه ارتياحا لضمائرهم ، وسرورا لأنفسهم ، واعلانا عن احترام المشورة والأخذ بها ، وأنه لا ينفرد وحده بتنفيذ الأمور ، وابرام القضايا .. ولما انتهى المسلمون الى وضع أيديهم على ناصية البئر والاقامة حولها ، والاطمئنان الى أن مصيرها بأيديهم ، اقترح رئيس الأوس سعد بن معاذ أن يبنى للنبى صلى الله عليه وسلم عنده عريشا يأوى اليه ، وتجعل الى جانبه ركائبه ، فاذا قاتل المسلمون كان هو بعيدا عن الخطر ، أو بمنجى من الشر ، فان انتصر المسلمون عاد معهم باليمن والظفر ، والا بقى للدعوة يتمم ما بعثه الله به ، وأرسله من أجله . فليس هو فردا وانما هو أمة وتاريخ وتحويل لمجرى الحياة كلها ..

غزوة بدر الكبرى

كانت قريش من غير شك تقف موقف التحدى من النبى صلى الله عليه وسلم ، اذ أنها تعلم أنه خارج لا محالة للقاء عيرها التى يقودها أبو سفيان والتى كانت تحمل ما تقدر قيمته بخمسين ألف دينار ـ كما يقول المؤرخون وهو تحد أرادت به أن تضع حدا فاصلا لهذه المناوشات التى يقوم بها أصحاب محمد ليجعلوا طريق تجارتها غير آمن • وقد كانت ترى أن هذا الحد الفاصل هو الذى يسدل الستار على الفصل الأخير من الرواية ، وربما كان المسلمون أيضا يريدون أن تكون هذه المعركة هى الحد الفاصل لكن قلة المسلمين لا تدل على أن هذا الموقف بينهم وبين قريش سيكون هو الحد الفاصل لأنهم كانوا قلة متهافتة فى حين كان المشركون ثلاثة أمثالهم فى العدد •• الا أن عناية الله سبحانه وتعالى بالمسلمين كانت تلفت النظر • وتجعل العقل لا يتردد فى أن النصر للمبادىء التى يؤمن بها أصحابها ، وللعقيدة التى تعمر بهـا نفوسهم ، والتى تصورها الآية القرآنية الكريمة « اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم انه عليم بذات الصدور واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا والى الله ترجع الأمور » ولم يكن واحد من الذين خرجوا مع محمد صلى الله عليه وسلم يضع فى اعتباره قلة وكثرة ، وانما كانوا يرون أنهم خرجوا لحماية العقيدة التى يؤمنون بها • والدين الذى اختاروه لأنفسهم • وقد كانوا يشعرون بهذه القلة لا محالة لكنهـا لم تزرع فى نفوسهم التردد ، ولا فى قلوبهم الرعب ، وبخاصة بعد تلك الطاقة التى زودهم بها صلى الله عليه وسلم وهو يقول لهم قبل أن ينزلوا الى ميدان المعركـة « أما بعد فانى أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهـاكم عما نهاكم عنه ، فان الله عظيم شـأنه ،

يأمر بالخير ويحب الصدق ، ويعطى الخير لأهله على منازلهم عنده ، وانكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد الا ما ابتغى به وجهه ، وان الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى بـه من الغم . وتدرك به النجاة في الآخرة . فيكم نبى الله يحذركم ويأمركم . فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمركم يمقتكم عليه ، فان الله يقول « لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم » وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمرا تستوجبوا به الذى وعدكم من رحمته ومغفرته ، فان وعده حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديد ، وانما أنا وأنتم بالله الحى القيوم ، اليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، واليه المصير ، يغفر الله لى ولكم وللمسلمين » .. وقـد كانت الحرب فى أول الأمر مناوشة ابتدأت بالأسود بن عبد الأسد المخزومى الذى اخترق صفوف المسلمين الواقفين على بدر ليهدم الحوض الذى بناه المسلمون عليها فتقدم اليه حمزة بن عبد المطلب فأصابه فى ساقه فأرداه ، وهنالك تقدم عتبة ابن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد ودعوا الى المبارزة فخرج اليهم فتيان من الأنصار فأبوا أن ينازلوهم وقالوا نحن نريد أكفاءنا من قومنا ، ثم نادى عتبة يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا فنادى النبى صلى الله وسلم يا عبيدة بن الحارث يا حمزة بن عبد المطلب يا على بن أبى طالب فأجهزوا عليهم وتركوهم قتلى . وأقبلت قريش بعد ذلك بعددها الضخم لتبتدىء الزحف الساحق ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم كثرتها الكثيرة ، أخذ يقول للمسلمين والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة ، وكان يتابع المعركة وهو فى عريشه يبتهل الى الله ويدعوه وكان يقول فيما يقول اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها فى الأرض ، اللهم نصرك الذى وعدتنى ، اللهم أرعب قلوبهم ، وزلزل أقدامهم ، وكان أبو بكر يقول له هون عليك يا رسول الله فان الله منجزك وعده ، ، وأخذته صلى الله عليه وسلم سنة من النوم قام بعدها يقول أبشر أبا بكر هذا جبريل آخـذ بعنـان فرسـه يقوده على ثنايا النقع . ونزل الى أصحابه يشد عزائمهم ، ويبشرهم بنصر الله ، ويقول لهم شدوا شدوا « سيهزم الجمع ويولون الدبر » .. ولما نظر المشركون الى ما حل بكبارهم وزعمائهم أمثال عتبة وشيبة استولى عليهم الهلع والخوف ولاذ من لاذ بالفرار ومن لم يستطع وقع فى أسر المسلمين ، وهنا موقفان يأخذان بتفكير الأريب أو الأديب .

الأول ما كان من سعد بن معاذ سيد الأوس فانه لما رأى المسلمين تتهلل وجوههم لوضع أيديهم على الأسرى تغير وجهه ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم لكأنك يا سعد تكره ما يصنـع القوم فقـال أجل

يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك . فكان الاثخان في القتل أحب الى من استبقاء الرجال .. وهو يعلن عن مبلغ سروره بقتل المشركين واستئصال شأفتهم وانتكاس رايتهم وذلة نفوسهم وأنهم بعد هذا الذى حصل لهم لا يستطيعون أن يتعرضوا للدعوة ، ولا يمكن أن يصدوا عنها ، أو يقفوا في وجه محمد صلى الله عليه وسلم بعد هذا الهوان الذى لحق بهم ، والهزيمة التى أصابتهم ، وأن اللغة التى كانوا يخاطبون بها المسلمين ستتغير منذ هذه اللحظة .

الثاني ما كان من النبى صلى الله عليه وسلم وقد أحس أن زمام الموقف في أيدى المسلمين لا المشركين فمشى يقول لهم انى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد سيقوا الى القتال كرها وهم لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن رأى أبا البخترى فلا يقتله ، وكان أبو البخترى هذا ممن يكفون الأذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وهو أحد الذين وقفوا موقفا كريما في نقض الصحيفة . ونحن لا نفسر موقف الرسول من بنى هاشم الا أنه موقف الدم والقرابة .. لكن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة قال له أيقتل آباؤنا واخواننا وعشيرتنا ونترك بنى هاشم والله لئن لقيت العباس ابن عبد المطلب لألقمنه السيف . فتغير النبى صلى الله عليه وسلم وشكى أبا حذيفة الى عمر ، وقال له أما سمعت قول أبى حذيفة أضرب وجه عم رسول الله بالسيف ، فقال له عمر والله لقد نافق . مرنى يا رسول الله لأقتله . وكان أبو حذيفة يحدث عن نفسه فيقول ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلتها وأرجو أن تكفرها عنى الشهادة .. ومات شهيدا في موقعة اليمامة في خلافة أبى بكر رضى الله عنه ... وأبو حذيفة هذا حين قتل أبوه قال له النبى صلى الله عليه وسلم آلمك قتل أبيك يا أبا حذيفة فقال له لا يا رسول الله ولكنى كنت أرجو وفيه رجاحة عقل ، وبعد نظر ، وحسن تفكير ، أن يهديه الله الى الحق ، ويبصره بالصواب ، ويوجهه الى الخير ، لكنه آثر الكفر ، وطريق الغواية ، وذهب الى جهنم من أوسع أبوابها ..

ولما انتهت الحرب وفر من فر من قريش وأسر من أسر كان عدد قتلاهم سبعين كلهم من الصناديد الذين كانوا يديرون المعركة وتعتمد عليهم جبهة الكفر ، وترتبط بهم الى حد بعيد المناوشات التى تواجه بها الدعوة ، والخصومات التى يعانى منها محمد صلى الله عليه وسلم في أداء رسالة ربه ، وقد كان اهتمام النبى صلى الله عليه وسلم في تفقد القتلى ومعرفة الذين خروا صرعى أن يطمئن الى ان أبا جهل في هؤلاء جميعا وكان قد اشترك في قتله ثلاثة ضربه معاذ في قدمه . وضربه معوذ كذلك ، وضربه ابن مسعود فقطع رأسه وقضى عليه . ولم يسر

الرسول لموت أحد كما سر لموته ، وكانت نشوة فرحه صلى الله عليه وسلم بهذا النصر لا تعادلها نشوة أخرى بيوم آخر ، لأن هذا اليوم كان بحق حدا فاصلا بين قريش وبين النبى صلى الله عليه وسلم • كما كان حدا فاصلا أيضا بين الكفر والايمان •• وكان من ارتياح النبى صلى الله عليه وسلم لما حدث في هذا اليوم أنه كان يمشي ومعه أبو بكر يتفقدان جثث القتلى فيقول « نفلق هاما من رجال أعزة » فيقول أبو بكر « علينا وهم كانوا أعز وأكرما » لكننا نعجب من قصة أبى البخترى الذى أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بالابقاء عليه وعدم قتله فانه قد انتهت حياته بالقتل • وذلك أن أحد المسلمين أراد أن يطمئنه على أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالابقاء على حياته ، فقال له أبو البخترى أنا وحدى ، أم أنا وصاحبى فلان ، فقال له أنت وحدك ، أما صاحبك فانى قاتله . فقال أبو البخترى لا تتحدث نساء قريش بخيانتى لصاحبى ، اما الحياة لى وله ، واما الموت لى له ، وأحس المسلم بالغدر الذى يبيته أبو البخترى فضربه ضربة قضت عليه ، وجاء الى النبى صلى الله عليه وسلم يخبره خبره •• وقد كانت غزوة بدر مليئة بكثير من الصور التى تنضح بعطفه صلى الله عليه وسلم على بنى هاشم وابقاؤه على حياتهم وان كانت قلوبهم قاسية وطباعهم جافة ، وأفئدتهم متحجرة ، الا أن هذه الغزوة على كل حال كانت كفيلة أن تغير سياسة المعارضة التى كانت تحمل رايتها قريش لتأخذ من جديد فى أسلوب آخر غير هذا الذى تعامل به محمدا صلى الله عليه وسلم الذى تدين له العرب ، ويخضع له هذا السواد الذى يستطيع به أن يكسب المعارك • وينتصر فى المواقع ، ويقوم به المعوج ، ويصحح به الأوضاع ، ويؤدب به من يخرج على طاعته ، أو يكذبه فى دعوته • لكنها مع ذلك ظلت حربها قائمة ، وعداوتها دائمة ••

طرف من بدر

كان فى صفوف المشركين فى غزوة بدر « أمية بن خلف » وقد وقع فى أيدى المسلمين أسيرا هو وابنه وأراد عبد الرحمن بن عوف أن يحميهما من عدوان من تحدثه نفسه بالقسوة عليهما ، أو النيل منهما ، لكن بلالا الحبشى مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عبدا مملوكا لأمية هذا وقد لقى منه من ألوان الهوان ، وصنوف الايذاء ، بسبب اتباع محمد ، واعتناق دين الاسلام ، ما لا يتصوره العقل البشرى الا فى فظائع الطباع ، وقاسى القلوب .. وكثيرا ما كان يتركه فى الرمضاء المحرقة متجردا من ثيابه . لتلفحه النار ، ويؤذيه اللهب ، ثم لا يكتفى بذلك حتى يلقى بالحجر الثقيل على بطنه ، رجاء أن يحمله ذلك التعذيب والايلام على المروق عن الاسلام ، والبقاء على وثنية الكفر ، وضلالة الشرك ، وعبادة الطاغوت ، والسجود للأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تحس ولا تدرك .. وما ان وقعت عينا بلال بن رباح على طلبته التى كان يرجوها ، وضالته التى كان ينشدها ، حتى هجم عليه ليشفى غليله منه ، ويقتص لهذا الذى لقيه من جبروت المالك ، وعسف المتسلط ، وبطش الجاهلى ، وكبرباء الأحمق . فلما زجره المرة بعد المرة عبد الرحمن بن عوف نادى بأعلى صوته رأس الكفر أمية لا نجوت ان نجا ، وكان أمية مما أصاب عبد الرحمن من مغانم الحرب ، فقال له عبد الرحمن هو أسيرى ، ومالى ، ولكن بلالا تمادى فى صوته ، وألح فى طلبه ، ورأى أن حجة عبد الرحمن بن عوف لا تحول بينه وبين ثأره القديم ، وأحاط الناس بأمية وابنه فى يدى ابن عوف وسبقت من بلال ضربة لهذا ثم لهذا وصارا فى خبر كان الناقصة .. ويظهر أنه الى هذه اللحظة لم تكن الأمور قد تكشفت فى شأن الأسرى ، ولا عرف المسلمون ما الذى يجب أن يؤخذ به فى معاملتهم ، وكان من هؤلاء الأسرى من كانت لهم سوابق سيئة فى

معاملة المسلمين بمكة ، ولذلك لم يقبل المسلمون منهم الفداء ، وأبوا الا قتلهم ليكون ذلك أدعى الى شفاء غليلهم ، وارضاء نفوسهم ، وقد صنع النبى صلى الله عليه وسلم بالنضر بن الحارث وعقبة ابن أبى معيط ذلك بنفسه وهو عائد مع المسلمين الى المدينة ، نظر الى النضر نظرة اشتف منها أنه قاتله فقال لمصعب بن عمير وكانت بينهما مودة أنقذنى من صاحبك فانه نظر الى نظرة تدل على أنه قاتلى لا محالة ، فأخذ يذكره بمساوئه السابقة واحدة واحدة ·· وكان من طريف أخبار هؤلاء الأسرى أن جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم شاعر يدعى « أبو عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحى » وقال لى خمس بنات ليس لهن شىء فتصدق بى عليهن ، ولك على أن لا أقاتلك أو أعين عليك · فلما أطلق سراحه ، نكث عهده ، وأخلف وعده ، وخرج لحربه وحرب المسلمين فى أحد ، فوقع فى أيدى المسلمين وانتهى أمره بالقتل ·· ومن الصور التى تفيض بالحنان والعطف فى أسرى بدر أن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت فى الأسرى « العاصى بن الربيع » وكان زوجا لها ثم فرق النبى بينهما لاختلاف الدين ، وقد أخذتها عاطفتها القديمة ، وصلتهما السابقة ، وكانت تملك قلادة كانت أمها خديجة أهدتها اياها ليلة زفافها اليه ، وقد حملت هذه القلادة وذهبت لتقدمها للنبى صلى الله عليه وسلم ليأخذها فداء للعاصى بن الربيع فرق قلبه صلى الله عليه وسلم لها وقال للمسلمين « هل لكم أن تردوا عليها قلادتها وتطلقوا لها زوجها » وقد خلى المسلمون سبيله وعاد الى مكة وخرج على رأس عير فى تجارة لبعض أعيان مكة ، وفى عودته من الشام التقى به جماعة من المسلمين فأخذوا ما معه ، وهنالك التجأ الى زينب ليرد المسلمون اليه ما أخذوه منه ، وعملت زينب بكل ما تملك من الوسائل ليعود اليه ماله ، وقد كان أجيرا لا يملك من الأموال الا حق الرعاية والصيانة والحفظ ، ولما رد اليه المال وذهب الى مكة ليدفعه الى أصحابه عاد الى المدينة ليعلن اسلامه ولتعود اليه زوجته التى كان نبل أخلاقها · وكرم معدنها ، وحسن وفائها · حاملا له على أن يقوم سيره ، ويصحح منهجه ، ويعدل سنته ، ويلتزم جادة الصواب والحق ؛ واستأنف معها فى ظلال الاسلام عيشا أرغد ، وحياة أهنأ · وصلة أقوى مما كانت · ولعل السبب فى تمسكه بها · وحدبه عليها ، وترامى عاطفته نحوها الى هذا الحد · لا ترجع الى رابطة الزوجية وكفى ، ولكن الى أنها ابنة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم · وأنها كذلك ابنة خالته ، لأن أمه هالة بنت خويلد الأسدية أخت خديجة رضى الله عنها ·· وكان العاصى هذا ممن عرفوا فى مكة بالأمانة والاستقامة وحسن الخلق ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يثنى عليه · وكثيرا ما حاول المشركون أن يحملوه على ترك زينب فلم يتركها وازداد

تعلقا بها وحرصا عليها .. وكان من الصور التى تفيض بالانسانية المهذبة ، والمروءة النادرة ، أن قتلى المشركين الذين لم يجدوا من قومهم وذويهم من يدفن جثثهم ، أو يهيل التراب على أجسامهم ، صنع المسلمون معهم صنيع الانسانيـة والمروءة ، اذ جمعوا أشلاءهم المتناثرة وعظامهم المتفرقة . فى قبر يواريهم ، وجدث يضمهم ، وهو ما يسمى بالقليب - البئر - وقد ظل المسلمون بعد أن انتهت المعركة يوما كاملا وليلة كاملة فى مكان المعركة لا يغادرونه ، وبينما هم بالليل مع سكونه وهدوئه ، يستغرق فى نومه من أتعبه العمل ، وأنهكته حركة الكر والفر ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم واقفا على القليب الذى يضم جثث الهلكى قائلا « يا أهل القليب .. يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة - يا أمية ابن خلف يا أبا جهل بن هشام .. يا فلان يا فلان - يذكر من فى القليب واحدا واحدا - هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فانى وجدت ما وعدنى ربى حقا » قال المسلمون يا رسول الله أتنادى قوما جيفوا ؟ . فقال عليه الصلاة والسلام « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى » ...

ولقد كانت هذه الجولة الحاسمة بين المشركين والمسلمين ، من الأيام الحالكة السواد على دولة الكفر ، والجماعة المناوئة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، اذ حشدوا لها كل ما يملكون من العدد والعدة ولكنهم كانوا مع ذلك كله كأنما تعنيهم الآية « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون » ... ولقد كان أبو لهب الذى فضحه الله فى السورة التى تلعنه وتهتك عرضـه ، من الذين استأجروا من ينوب عنهم فى الخروج الى قتال المسلمين ، فلما انتهى اليه نبأ هزيمة دولة الباطل ، وجيش الشرك ، وأصحاب دعوة الشيطان ، دارت به الأرض الفضاء ، وأصابه مرض حاد لم يمهله سوى أيام معدودات مات بعدها حزنا لما لحق به وبقومه من الزحف الجديد الذى لم يستطع أن يصده أو يرده ، ولم يكن هو وحده الذى وقع عليه نبأ الانتصار كالصاعقة ، فان كثيرا منهم كان يقول اذا كانت هذه الحرب قد أكلت صناديد قريش أمثال فلان وفلان ممن برزت عداواتهم لمحمد والكيد له « فان بطن الأرض خير من ظهرها » .

ويقول الدكتور هيكل « هـذه غزوة بدر التى استقر بهـا الأمر للمسلمين من بعد فى بلاد العرب جميعا ، والتى كانت مقدمة وحدة شبه الجزيرة فى ظلال الاسلام ، ومقـدمة الامبراطورية الاسـلامية المترامية الأطراف ، والتى أقرت فى العالم حضارة ما تزال ولن تزال ذات أثر عميق فى حياته .. ولقد تعجبه اذ تعلم أن محمدا على ما كان عليه من تحريضـه أصحابه ، وما كان يرجو من استئصال عدو الله وعدوه ، قد

طلب الى المسلمين منذ اللحظة الأولى من المعركة ألا يقتلوا أحدا من بنى هاشم ، وألا يقتلوا بعض رجال من سادت قريش • مع أنهم اشتركوا في قتال المسلمين ، ومع أنهم كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله ••• ولا تحسب أنه في ذلك أراد أن يحابى أهله أو أحدا ممن يمتون له بصلة القربى ، فنفس محمد أسمى من أن تتأثر بمثل هذا ، وانما ذكر لبنى هاشم منهم اياه مدى ثلاثة عشر عاما من يوم مبعثه الى هجرته ، حتى كان عمه العباس معه ليلة العقبة ، وذكر لغير بنى هاشم من قريش من قاموا وهم على الكفر يطالبون بنقض الصحيفة التى اضطرته بها قريش أن يلزم هو وأصحابه الشعب وأن تقطع بهم كل صلة ، فهذا المعروف الذى تقدم به هؤلاء وأولئك قد اعتبره محمد حسنة يجزى من قدمها بمثلها • ولذلك كان شفيعا لهؤلاء وأولئك عند القتال ، وان أبى بعض هؤلاء القرشيين أن يستظلوا بهذا العفو على نحو ما فعل أبو البخترى الذين كان لهم دور بارز فى نقض الصحيفة » ••• والواقع أن هذه الصورة البشرية الانسانية التى بدت من النبى صلى الله عليه وسلم كانت مذهلة ، لأنه ان كان أراد أن يحتفظ لهؤلاء بأياديهم السابقة • فان هذا الاحتفاظ بالقديم لا معنى له مع هذا الموقف الحاضر ، وقد جاؤا لقتله وقتل أصحابه معه ، وان كانت وشيجة القربى هى التى تشده اليها • فان هذه مواقف تقطع الأواصر ، وتلغى الروابط ، ولا يستطيع أحد أن يفسر ذلك الا بأنه معنى آخر غير القرابة ، و غير الاحتفاظ بالأيادى السابقة ، هذا المعنى الآخر الذى يتناسب مع رسول الانسانية محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان يقض مضجعه ، ويتعب خاطره ، أن تراق قطرة من الدم ، أو تقطع الحياة على انسان ، وكان ميله الى السلم ، ورغبته فى الهدوء والاطمئنان ، هو كل ما يرجو أن يكون ، وأن الحروب التى خاض غمارها لم تكن نابعة من رغبة فى الشر ، وميل الى القتل ، وحب للهتك والفتك ، انما كانت بعد درء لها • وعمل على تلافى أسبابها ، وسد الطرق الموصلة اليها ، فلما لم يفلح شيء من ذلك قبلها على الرغم منه ليدفع بها شرا مبيتا ، أو خطرا مدبرا ، أو عدوانا كان يراد من ورائه أن تموت كلمة الحق ، أو يسكت صوت العدل ، أو تسود دولة الباطل ••

غنائم الحرب

لم يكن خروج النبى صلى الله عليه وسلم الى بدر بهذه القلة القليلة من أصحابه يعنى أنه يتهيأ لحرب أو يقصد الى لقاء عدو قد انعدم التكافؤ بينه وبينه فى العدد والعدة ، وانما كان مناوشة كالذى تعوده من قبل مع أهل مكة على غرار ما كانت سرية عبد الله بن جحش وغيره من الذين كانوا يقومون بقطع الطريق واشاعة الهلع والخوف فيه • لتتيقظ قريش الى أنها كان عليها أن تفكر فى توفير الأمن لقوافلها التى تغدو وتروح بتجارتها من مكة الى الشام ، أو من الشام الى مكة • ولهذا كان الانتصار عندهم أمرا غير مترقب أو شيئا غير منظور ، والى جانب كونه مباغته سارة ـ هكذا ـ فقد كانت معه غنائم سلبوهـا من أعدائهم ، وأسلاب اغتصبوها من خصومهم ، وفى هذه النشوة التى أصابتهم من جراء هذا الانتصار لم يكن يدور بخلدهم أن معـارك أخرى تنتظرهم ، ومجابهـة لخصومهم سوف تكون لا محالة •• وفى الطريق الى المدينة وهم منصرفون من المعركة كان الذى يعنيهم ، ويستولى على تفكيرهم هو هذه الغنائم التى جعلها الله فى قبضة أيديهم • ومن يكون صاحب النصيب الأوفر منها • ولم يكن هنالك مبدأ مقرر ، ولا تشريع متبع ، ولا عرف معمول به ، يمكن أن يكون فيصلا فى ذلك ، وكان المسلمون فى هذه الحرب طوائف ثلاث •• جماعة المطاردة التى كانت تلاحق العدو وهو لائذ بالفرار حتى لا يتغفلها ويعود للكر عليها ، والتمكن منها •• وجماعة المقاتلين الذين وقفوا فى الميدان وجرعوا العدو كأس الهزيمة ، وكانوا يصارعون الموت ، ويتلقون الضربات من هنا وهنالك •• ثم الجماعة التى كانت على رأس النبى صلى الله عليه وسلم تصد عنه العدوان ، وتدفع عنه ما عسى أن يناله من خصومه الذين كان هدفهم الأكبر أن يظفروا به ، فأى هـذه الطوائف يأخذها وحده أو يعود منها بنصيب الأسد ، قامت هذه الشبهة

برأس المسلمين وزعم كل فريق أنه صاحب الحق الذى لا ينازعه فيه أحد ، ولما كان هذا الخلاف يشتد ، ويصبح وحده علة العلل . كان لابد أن يحسمه الله بينهم ، وهنالك نزل قوله جل جلاله « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » ليفهم المسلمون أن القصد الأول والأخير هو اعلان صوت الحق ، ورفع راية التوحيد . وتمكين دعوة الاسلام . ثم تبع ذلك فيما بعد بيان توزيعها على أربابها الذين يستحقون لهـا ،ويأخذون منهـا « واعلموا أنمـا غنمتم من شيء فان لله خمسـه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » فكان عليهم أن يجعلوا الخمس لهذه الجهات التى حددتها الآية الكريمة . ثم يوزع الباقى بعد هذا الخمس كمـا يرى القـائد العـام للجيش .. وقد كان التوزيع على هذا النحو للراجل نصف ما يأخذه الفارس .. وللورثة حصة شهيدهم .. وكذلك لاحظ التوزيع من أسهم فى المعركة دون أن يحضرها .. ومن كلف بأمر خاص بعيدا عن ميدانها .. أما الأسرى فان حالهم كان موزعا بين الفداء الذى كان يتراوح بين الألف الى عشرة آلاف درهم أو الترك كل الترك اذا كان الأسير لا يملك ما يفدى نفسه به « فاما منا بعد واما فداء » وربما كان فداؤه أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة .. ولم يكن هذا الرأى فى الأسرى هو الفكرة الأولى ، فان النبى صلى الله عليه وسلم حينما عرض الرأى بادىء ذى بدء على أصحابه كان رأى عمر القتل والابادة ليكون فى هذا الصنيع الردع والزجر .. وكان من رأى أبى بكر الفداء لما بينهم وبين المسلمين من الرحم والقرابة . وقد كان الرأى الذى انتهى اليه الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحد الوسط .. وقد أخذ المسلمون الفداء ممن استطاعه ، وتركوا من لم يقدر عليه ولم يستطعه .. وفى بعض الأحايين كانوا شفاء لغليلهم . وذهابا لغيظهم ، يرون أنه لا بديل من القتل . فيقرهم النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ولا يعارض فيه .. وقد أخذ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بوثائق العباس بن عبد المطلب وشدد عليه فظل العباس يئن ليلة كاملة فتألم الرسول له أشد الألم .. فبلغ ذلك الأنصار فعملوا على حل وثاقة من غير فدية فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن يسوى بينه وبين غيره من الأسرى ، وقال له افد نفسك وابنى أخيك ـ عقيل ونوفل فاشتكى اليه الحاجة وأنه لا يجد ما يدفعه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ادفع من الذى تركته لأم الفضل عند خروجك من مكة ، فقال له ومن أخبرك به ، قال أخبرنى الله ، فقال أشهد أنك رسول الله ، ودفع عن نفسه مائة أوقية وعن كل واحد من ولدى أخيه ثمانين ،

وجرى في خاطر العباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرهقه بهذا الذى دفعه فأنزل الله فى شأنه « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسري ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم » فسر بذلك العباس ولم يعد بعد ذلك الا جنديا مخلصا من جنود الاسلام يدافع عنه ، وينادى به ، ويرغب فيه ، ويبذل له ، ويقف الى جانب رسوله وقوف المؤمن الصادق الذى جرى الدين فى لحمه ودمه ، وخالط روحه ، وامتزج به ، ومن طريف ما يروى فى أخبار بدر أن أول من قدم مكة ــ قبل أن تترامى اليهم أنباء المعركة ــ كان هو الحسيمان الخزاعى ، فلما سألوه عن أنبائهم وأخبرهم أن الهزيمة حلت بهم ، وأن من القتلى فلان وفلان استعظموا أن يحدث ذلك ، وكادوا ينكرون عليه كل الانكار وكان أدهى من ذلك أن سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب حينما أخذ يهون عليهم من شأن هذه الهزيمة ويقص عليهم أن رجالا بيضا على خيل بلق كانت تقاتل فى جيش محمد لا يقوم لها شيء . وكان أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع الى هذه القصة فقال هى والله الملائكة ، الا أن هذا القول من أبى رافع لم يرق فى نظر أبى لهب فأخذ بتلابيبه وطرحه على الأرض وبرك فوقه يريد أن يقتله ، فقامت اليه أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب وأمسكت بعمود وانهالت عليه تضربه ضربا مبرحا شجت به وجهه فلم يعش بعدها غير سبع ليال ، وقد تركه ولداه ــ معتب وعتبة ــ ميتا حتى انتن فحفروا له حفرة وواروه بها دون أن يعلم بذلك أحد ... وقد كانت هذه الحادثة صورة من صور البلبلة النفسية التي أصابت أهل مكة فجعلتهم يخرجون عن طورهم ، ويتجاوزون حدودهم ، وربما كان شبيها بها ، أو قريبا منها ، ما حصل من عمير بن وهب مع صفوان بن أمية فى الحجر ــ بالكعبة ــ وكان وهب بن عمير له ولد فى الأسرى ، وقد أخذا يبديا أسفهما لما حل بقريش من الهزيمة وما أصابها من فقد رجالاتها ، وموت صناديدها ، وقال صفوان والله ما فى العيش خير . وهنالك رد عليه عمير وقال له صدقت .. والله لولا دينى وعيالى لركبت الى محمد لأقتله ، فقال صفوان على كل ذلك . وعليك أن تذهب الى محمد لقتله .. قال عمير أفعل ثم انطلق الى المدينة فرآه عمر فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له أدخله على ، فلما دخل عليه ... قال له ما الذى جاء بك يا عمير .. قال جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم .. قال له فما بال السيف الذى فى عنقك .. قال قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا .. ثم قال له النبى صلى الله عليه وسلم انك لم تجيء لهذا يا عمير ، ولكنك قلت كذا وكذا ورد عليك صفوان بن أمية بكذا وكذا ، قال عمير أشهد أنك رسول الله حقا وصدقا .. وعاد عمير الى مكة وكان من خير الداعين الى الله وأسلم باسلامه خلق كثير .

وحصل هذا في مكة معسكر الكفر • ومعقل الشرك ، ومكان تجمع خصومه ، فهل كانت المدينة ، وهي منطلق الدعوة ، ومركز القيادة ، ومكان تكتل أنصاره صورة أخرى •• بعث النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة رجلين يسبقان مقدمة اليها ليبشرا المسلمين بما أفاء الله عليهم من نصر ، وما منحهم اياه من عزة ، وما آزرهم به من قوة ، ليكون ذلك أعدى الى أن ترتفع رؤوسهم ، ويستقر وجودهم • هذان الرجلان هما زيد بن حارثة الذى كان يركب القصواء ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله بن رواحة ، وقد سر المسلمون لهذا النصر وخرجوا من دورهم يهللون ويبتهجون • لكن المنافقين واليهود وهم الذين وقع عليهم نبأ هذا الانتصار موقعا شديدا شككوا الناس في الخبر وزعزعوا ايمانهم به وقالوا لو كان ذلك صحيحا ما رجعت القصـــواء من غـير صاحبها •• وتدل كتب السيرة على كل حال على أن معسكر الكفر في مكة ، وكذلك معسكر النفاق في المدينة ، قد تحول كله الى جبهة حامية الوطيس لا حديث لها الا في الثأر وتأديب محمد وأصحابه ولهذا فقد اجتمعوا في دار الندوة ليقرروا من جديد ما يمكن أن يواجهوا به الموقف الجديد الناجم عن هذا الانتصار الذى أحرزه المسلمون •• وكانت الخطوة الأولى هي التنازل عن أرباح القافلة التى كان يقودها أبو سفيان بالتجارة من الشام والتى كانت هي السبب المباشر في غزوة بدر •• وقد أخذوا يتصـــلون بحلفـائهم من الأحابيش ليضمنوا دخولهم معهم لقتال محمد وأصحابه •• وقد كانوا مطمئنين الى أن اليهود في جانبهم لا يتخلون عنهم ولا يتركونهم ، وفاتهم مع ذلك أن حالهم مع محمد قد تغيرت وأنه لم يعد رائد جماعة ، أو قائد طائفة ، ولا رئيس قوم يعدونهم على الأصابع • وانما هو سيد دولة متماسكة البنيان ، قـد عاهدوه لو خاض البحر لخاضوه معه • لا يسألونه لماذا ولا ما هو السبب ولا ما هي العلة التى تحملنا على ذلك • وأنه سيفتح بهم مغاليق الأرض ، ومن الحمق الوقوف في وجوههم ، أو التصدى لهم ، وقد نذورا نفوسهم لله •

حديث أحد

كان ما أصاب المشركين فى بدر حافزا قويا لأن تتجمع قلوبهم ، وتتلاقى أهواؤهم ، ويبذلوا كل ما يملكونه ليتعادل ميزان القوى ، ورد الاعتبار الذى كان لهم من قبل ، وكان أول شىء تناولوه بالتفكير أن تباع العير التى كان يسوقها أبو سفيان بالتجارة من الشـــام ، والتى كانت الشرارة الأولى فى غزوة بدر ، ثم يجعل ثمنها فى تجهيز جيش جـــرار للقضاء على شوكة المسلمين ، ووقف زحفهم على طريق التجارة ، والحد من محاولاتهم النيل من أهل مكة ، أو العدوان عليهم ، وبخاصة بعد هذا الذى حصل لسادتهم ، وكبار القادة منهم ، الذين عرفوا فيما بعد بأهل القليب ، والذين يمكن أن يكون قتلهم اغراء لمحمد وأصحابه بغزو مكـة نفسها ، أو تطهيرها من أشرافها وأرباب البيوتات فيها ، ولم يمض شهر واحد حتى كان أبو سفيان قد اتصل بحلفاء قريش فى كل جهة ليعدوا أنفسهم للقاء محمد والقضاء عليه ، وعلى من يقفون الى جانبه من المؤمنين بدعوته ، المتفانين فى السير على دربه ، وساعده على هذا الاستبسال والمضى الجاد فيما يدعو اليه من تكوين جبهة قوية للخروج الى القتـــال أن ظهر على المسرح العنصر النسائى من أمثال هند بنت عتبة بن الوليد وغيرها من زوجات وأخوات كبار الرؤوس فيهم .. وكانت هند بالذات من العوامل القوية فى اذكاء الحماسة ، واشعال نيران الحمية والغيرة ، وكان من ضحاياها فى بدر أبوها وعمها وأخوها ، فهى موتورة من غـــير شك ، ومن حقها أن تجزع وتفزع ، وأن تحزن وتبكى ، وأن تبحث عما يشفى غليلها ، ويسكن لوعتها ، وكذلك كان جبير بن مطعم بن عدى قد فقد عمه طعيمة بن عدى .. وكان الغلام الحبشى وحشى قد اشتهـــر بالاقدام والجرأة ، وأنه لا يخطىء مقتل فريسته ، واتفقت هند وجبير ابن مطعم مع وحشى هذا على أن يغتال لهما الحمزة بن عبد المطلب ومناه

كل منهما بجزاء مفر اذا هو حقق لهما هـــذه الأمنية ، ونفذ لهما تلك الرغبة ، وكان الاتفاق على الحمزة بالذات لأنه حبيب الى النبى صلى الله عليه وسلم وموته ايلام له ، وتنغيص لصفوه ٠٠ وكان العباس بن عبــد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم بمكة يرسل الى ابن أخيه أنبــاء تحركات قريش خطوة خطوة لا يخفى عليه من أمرها شيئا ، حتى لا يؤخذ على غرة ، أو يفاجأ بما لم يكن فى خلده وحسبانه من قبل ٠ وقد عرض الرسول الأمر على أصحابه ولم يشأ أن ينفرد بالرأى من دونهم ، ولكنــه أراد أن يشركهم فى الخطة التى يأخذ بها ٠ والأسلوب الذى يسلكه ، ويسير عليه ويقف به الموقف الذى يتناسب مع تلك المواجهة التى يدبرها له أبو سفيان مع معسكر المشركين فى مكة وغيرها ٠ من رؤساء الكفر ٠ وطواغيت الجهل ٠ للنيل من تلك الدعوة التى يحمل رايتها هو وأصحابه ٠٠ وكان كثير من كبار الرجال من أصحابه صلى الله عليه وسلم قد رأوا أن الخطة المثلى التى يمكن أن يواجهوا بها هذا الغزو المترقب ، أو الزحف المنتظر هى التحصن بالمنازل والبيوت فى المدينة ٠ حتى اذا ما جاء الجيش الزاحف بقيادة أبى سفيان وغيره ووجه فى المدينة من الصبيان والنساء والرجال من داخل المنازل وأسطح البيوت ومن الشوارع بما يشبه حرب العصابات ، وتزعم هذا الرأى رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ولاقى رأيه هذا قبولا وارتياحا عند المحنكين من ذوى الأسنان الذين لم يكن فى عقيدتهم ريب ولا شك الا أن جماعة ممن فاتهم شرف الاشتراك فى بدر من الشبان والمتطلعين الى الاستشهاد ألحوا فى الخروج وملاقاة العدو بعيدا عن المدينة ، حتى جاء بعضهم الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله ان ابنى أصابته القرعة فخرج فى بدر وكان من الشهداء فى جوار الأنبياء والصديقين ٠٠ وقد رأيته فى النوم ينعم فى الجنة ، وكان مما أوصانى به أن أسارع فى اللحــاق به لأكون معــه فى الجنة « وان الدار الآخرة لهى الحيوان » وأنا أرجو يارسول الله أن أموت فى سبيل الله لألحق به فى الجنة ٠٠ وكانت فكرة الخروج وملاقاة العدو هى الفكرة التى انتهى اليها رأى الأغلبية العظمى ، فلم يسع الرسول صلى الله عليه وسلم الا أن ينزل على هذا الرأى غير متحول عنه ، وما هو الا أن دخل بيته ولبس لامته استعدادا لخوض المعمعة المقبلة ، ثم خرج الى قومه ليعلن اليهم أنه جاد فى أمره ، حتى استقبله بعض أصحاب هذا الرأى بما يفيد الرجوع عنه ، قائلين له اخلع لامتك فاننا سنبقى فى داخــل المدينة نرمى عدونا من أسطح المنازل وداخل البيوت ٠٠ وقد ظنوا أنهم بهذا يبالغون فى مرضاته بالرجوع الى الرأى الذى كان مستريحا اليــه أولا ، ولكنهم فوجئوا منه بالامتعاض والغضب وقوله لهم « ما ينبغى لنبى لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ٠ انظروا ما آمركم

به فاتبعوه ، والنصر لكم ما صبرتم » ثم عقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير • ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ، ولواء الأوس لأسيد ابن حضير ، وخرج من المدينة بألف رجل فلما وصلوا رأس الثنية نظر صلى الله عليه وسلم الى كتيبة مقبلة فسأل عنها فقيل له هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي من اليهود فردهم وقال نحن لانستعين بكافر على مشرك ، واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة ... وعلى حرسه الخاص ذكوان بن قيس ، وسار حتى اذا كان بالشوط بين أحد والمدينة رجع عبد الله بن أبي بثلاثمائة من أصحابه احتجاجا على أنه صلى الله عليه وسلم لم يأخذ برأيه وأخذ برأى الأحداث ... وقد أحدث رجوعه هذا بلبلة في صفوف المسلمين فهمت طائفتان من المسلمين أن تفعلا مثل ما فعل فعصمها الله وعاودهما صوابهما بعد ذلك ، وسار الجيش بعد ذلك حتى نزل الشعب من أحد ، وجعل ظهره للجبل ، ووجهه الى المدينة ، وكان على ميمنة جيش المشركين خالد بن الوليد ، وعلى ميسرته عكرمة بن أبي جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية •• فجعل عليه السلام الزبير بن العوام بازاء خالد ، وجعل آخرين أمام الباقين • واستحضر الرماة وكانوا خمسين رجلا يرأسهم عبد الله بن جبير الأنصارى وجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل وأوصاهم ألا يبرحوا أماكنهم ولولاح النصر للمسلمين ، وابتدأ القتال بالمبارزة ثم الالتحام بعد ذلك ، وقد كان الهجوم العنيف من المسلمين سببا فى أن يولى المشركون الأدبار تاركين وراءهم أسلابهم وغنائمهم وهنا بدأ الرماة يجمعون الأسلاب وهم مطمئنون الى أن عدوهم لا يمكن أن يعود اليهم • وأن ظهورهم لا تزال محمية باخوانهم الذين جعلوهم فوق الجبل ولكنهم أخطأوا الظن ، فان الفوضى التى لحقت بهم حين جعلوا الغنائم هى الهدف لحقت بغيرهم كذلك •• كل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم من وراءهم يدعوهم الى الثبات والبقاء فى أماكنهم قائلا الى عباد الله الى يافلان الى يافلان أنا رسول الله « اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم » وانتهز الشيطان هذه الفرصة فأخذ يملأ قلوب المسلمين بالشبه والظنون التى كان منها أن محمدا قد مات ولا معنى لاستمرار الحرب بعد « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفاين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » وعلى كل حال فقد ابتدأت المعركة حامية الوطيس على الرغم من عدم تعادل القوتين ــ لولا هذا الخلل الذى حدث ــ وكان أبو دجانه قد أخذ سيف الرسول صلى الله عليه وسلم وجعل يحصد الرؤوس • وهو رجل

قد اشتهر بالشجاعة والاقدام . والجرأة والفروسية ، وكان هو وحمزة يمثلان في جيش المسلمين القوة التي لا تقهر . ولا يستطيع أحد أن يردهما ، أو أن يقف في طريقهما ... واذا كانت الانتصارات والهزائم في الحروب تتوقف على النظام والطاعة . والايمان والعقيدة ، وأن شيئا واحدا من هذه قد يكون سببا قويا في نهاية محمودة أو غير محمودة فان النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي لا ينطق عن الهوى ، قد رسم للمسلمين وهو لا يشك في صدق ايمانهم الدستور الصحيح للنظام والطاعة ، وهو يعلم مدى الفائدة التي تنجم عنهما . وفي هذه الكلمات البسيطة التي يخاطب بها الرماة – الخمسين – ما يدل على مقدار بصره الدقيق بالتكتيك الحربي الذي لا يعرفه الا كبار القواد والساسة . فان الهزيمة لم تحل بالمسلمين في أحد الا بسبب هذه المخالفة ، حيث بدرت بوادر النصر فترك هؤلاء وهؤلاء أمكنتهم وسارعوا الى جمع الغنائم وانتهابها، وكان كشف هذه الثغرة تمهيدا لالتفاف جناح جيش العدو بقيادة خالد ابن الوليد حول المسلمين واعمال السيف فيهم بعد أن انضم اليهم الفارون من أهل مكة ، وبذلك أصبح جيش محمد صلى الله عليه وسلم هدفا ميسورا للمشركين ينالون منه ، ويقبضون على ناصيته ، وبفرار المسلمين ، وانطلاق الصوت المغرض « ان محمدا قد مات » كان جيش المسلمين على الحال التي تدعو الى الرثاء والأسف . اذ كان كبار المسلمين من أمثال أبي بكر وعمر وعلي قد نفضوا أيديهم من نصر الله لهم . ولم يكن لهم تفكير الا في النجاة من الموت أو الأسر ... ومن خلال تلك السحابة الدكناء التي اشتبه فيها الحق والباطل تبين « كعب بن مالك » وجه محمد صلى الله عليه وسلم . فنادى بأعلى صوته « يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله بيننا » فأشار اليه الرسول صلى الله عليه وسلم أن اسكت . لكن المسلمين لم يلبثوا أن تبينوا حقيقة الأمر . ففرحوا به ، والتفوا حوله ، ووقفوا الى جانبه يدافعون عنه ، ومن حوله أبو بكر وعمر وعلي والزبير بن العوام ، ورهط كثير غيرهم ، وكان أبو دجانة الترس الواقي الذي وقف الى جانبه صلى الله عليه وسلم يتلقى عنه الرميات ، ويصد الهجوم . وقد تقدم اليه أبي بن خلف يريد قتله ، مطمئنا الى أنه سيصيبه قائلا لا نجوت ان نجا محمد . وقد أراد بعض المسلمين أن ينحيه فأشار النبي عليه أن يتركه وهنالك ضربه ضربة ظل يشخب منها الى أن مات على فرسه وهو في الطريق الى مكة ..

وانجلت هذه المعركة عن شدائد عاناها الرسول صلى الله عليه وسلم واصابات بالغة لقيها ، وطارت قريش بنصرها سرورا وفرحا ، حتى قال أبو سفيان « يوم بيوم بدر وموعدنا العام المقبل » وكان قد وقر في ذهن أبي سفيان أن النبي صلى الله عليه وسلم في القتلى هو وأبو بكر

وعمر وعلى وكبار الصحابة . فلما تبين له أنهم لا يزالون على قيد الحياة حزن حزنا شديدا وأيقن أن الشر لا يزال يلاحقه ، والمصائب ستواتيه ، وأنه مقبل على أيام سود لا يساوى هـذا النصر الى جانبهـا شيئا ...
ولما خلا الميدان من المشركين ، وأخذ المسلمون طريقهم الى المدينة خرج النبى صلى الله عليه وسلم الى ساحة المعركة ليتفقد قتلاه ليأمر بدفنهم ، وهنالك راعه أن عمه الحمزة في القتلى وقد مثل به لأن هند كانت قـد طلبت من وحشى أن يأتيها بكبده لتلوكها . فلما رأى صلى الله عليه وسلم ما رأى غضب وأقسم لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلا منهم . فأنزل الله جل وعلا عليه « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهـم ولاتك فى ضيق مما يمكرون » فهدأ جأشه ، وسكن روعـه ، واطمأن خاطره ، وقال أصبر وأحتسب ولم يبالغ النبى صلى الله عليه وسلم فى تعنيف المسلمين وتقريعهم لما حدث منهم من مخالفة كان من أثرهـا ما كان ، وانما ترك ذلك لضمائرهم ، وكأنما أراد أن تعلمهم الحوادث . وتؤدبهم المواعظ ، حتى لا تتكرر تلك المأساة ، أو تتجدد تلك المخازى والعدو يتربص بهم الدوائر ، فى كل مبارزة يتاح لهم أن يلتقوا به فيها ولذلك فانه لم يعرف عن المسلمين أن تكررت لهم هذه المأساة فيما بعد ، وربما كان من أحسن العظات التى أخذها المسلمون من هـذه الهزيمة ، وبخاصة بعد شماتة المنافقين واليهود بهم اطمئنانهم الى أن الأيام دول . وأنه ليس من الحتم لصاحب الحق أن يكون النصر حليفه دائما أبدا . والحق تحميه العقيدة أكثر مما تحميه القوة ، وأن القوة ليست فى كثرة العدد ، ولا فى وفرة السلاح ، وانما هى فى اتحاد الرأى ، واتحـاد الصف . واتحاد الغاية والانقياد الأعمى للقائد . والالتزام بما اجتمعت عليه الكلمة . وهذا هو السر فى أن النظم الحربية دائما أبدا تمجـد الطاعة العمياء ، وما يسمى بالتسليم المطلق . ولا سيما فى الميدان وحينما تدور المعركة ، وربما استساغوا المناقشة للأوامر أو الاعتراض عليها فى بعض الأحايين لكن ذلك انما يكون قبل المعمعة ، أما بعدها فلا يجوز بحال من الأحوال . وعلى هذا فاننا نستطيع أن نقول ان المسلمين لم يلتزموا أوامر القائد الأعلى . ولم يحملوها على القداسة والاحترام ، ولهذا أصابهم ما أصابهم نتيجة المخالفة التى يتحتم على الجندى ألا يرتكبها أو تحدثه نفسه بها ..

قاتل حمزة

كان خروج المشركين الى أحـــد مسبوقا بحوافز كثيرة ، وتصميم أكيد ، واستعداد تام لغسل العار الذى لحق بهم من جراء الهزيمة التى حلت بهم يعد بدر ، ولذلك فانهم تأهبوا لها بكل ما يمكن أن يتأهبوا به من عتاد ومال ورجال ولم يكن ذلك قاصرا على الرجال وحدهم ، وانمــا شاركت المرأة الرجل ، وكان الصراع بينها وبينه قويا على هذا الخروج ، فالرجال يرون أن الميدان لهم ، والحرب تبعة يتحملونها ، ومن العيب أن تحمل المرأة السلاح الا اذا فنى الرجال ولم يبق من يذود عن العرض ، ويأخذ بالثأر ، ويذب عن الحمى ، ويدافع عن الحريم ... والمرأة تريد أن تشفى غليلها ، وتثأر لقتلاها ، وترى مصارع أعدائها ، وبعد صراع فى الرأى ، ومحاولة استعملت المرأة فيها أسلوبها الخداع ، وعواطفها المشبوبة ، وفؤادها الملتاع ، خرجت هند بنت عتبة ، ومعهــا عدد من النساء لا يقل عن خمس عشرة ، وحملن معهن صنما على جمل ليبارك نواياهن ، ويجعل التوفيق مقترنا بسعيهن ، ويكون النصر لهن على العدو ، وكان هؤلاء النسوة ومعهن هند يرددن الأناشيد الحماسية التى تلهب فى قلوب الرجال نيران الاستبسال والاقدام والشجاعة والفداء ، حتى لا يتردد أحد فى اقدامه وكره ، واغارته على العدو اغارة تزلزل كيانه .. واذا كان لكل واحدة منهن ثأر تطلبــه ، فان هند وحدها كان لها أكثر من ثأر ، لأنها كانت تندب أباها وأخاها وعمها ، ولهذا كانت أكثر النساء الحاحا فى الخروج الى المعركة ، مع العلم بأنها لم تكن من السوقة ، ولا النساء اللائى ينطلى عليهن التبذل ، والاختلاط بالرجال فى ميدان كروفر .. الا أن المصائب لا قانون لها ، ولا يمكن لدستور أن يتحكم فيها ، أو يوجه خط سيرها ، لذلك كان خروج من خرج منهن الى ميدان المعركة فى

أحد خارجا عن القانون ، مغايرا للمألوف الذى تعارف الناس عليه ..
وقد ساعد هند الى جانب مصابها الفادح أن تيسر لها أن تضع يدها على
فتى مفتول الذراعين ، حديد النظر ، جرىء القلب ، غير هياب ولا جبان ،
طمعت أن تغريه بالمال ليأخذ بالثأر الذى يشفى غليلها ، ويروى ظمأها ،
ويمسح دموعها ، ويريح نفسها ، وكان ذلك الفتى هو الغلام الحبشى
« وحشى » عبد جبير بن مطعم بن عدى . وهو فارس لا تخطىء ضربته ،
ولا يخيب قصده ، ولا ينبو سيفه ، ولا ينجو منه طالبه ، وقد اطمأنت
كل الاطمئنان لأنه وعدها أن يشفى غليلها . ويقتل عدوها اللدود حمزة
ابن عبد المطلب ، وكان وحشى هذا قد وعده كذلك سيده جبير بن مطعم
أن يعتقه ان هو قتل حمزة ، وعلى هـــذا فان وحشيا الحبشى يهزه الى
الحرب ويغريه بقتل حمزة عاملان قويان ، المال الذى وعدت به هند ،
والعتق الذى وعده به سيده .

.. لكننا قبل أن يأخذ حديثنا عن وحشى نهايته نقف وقوفا قصيرا عند
حمزة الذى تحاك له هذه المؤامرات كلها لنرى هـــل كان يستحق من
خصومه كل هذا الاهتمام . وتلك العناية .. وفى الحق أنه لم يكن مجرد
انسان فى صفوف محمد صلى الله عليه وسلم ، وانما هو عمه أولا وقبل
كل شىء يغار على دينه . ويدافع عنه ، ويحارب خصومه ، ويرد عنه كيد
عدوه . وهو الى جانب هـــذا من أصحاب القلوب النقية . التى كانت
تحيطه بالود . وتخصه بالرعاية والعنـــاية ، وكان منذ نشأته ملازمـا
للرسول صلى الله عليه وسلم لا يفارقه الا على نية أن يعود اليه ، وكان
مع هذا من الفرسان المغاوير الذين تهتز لموتهم الجبهة الاسلامية كلهـا ،
ويحدث خلوها منه اهتزازا يتصدع له جدار الدعوة ، والتركيز على اختفاء
وجهه من الميدان الى جانب كونه ايلاما بالغا لمحمد ثغرة واسعة . وفجوة
فسيحة فى الصف اليثربى وبخاصـــة بعد ما تبين بلاؤه فى بدر . وقتله
لرجالات قريش الذين كان قتلهم الجرح الذى لا يندمل ، وقد صدق ذلك
فجيعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتهديده اذا نصره الله على قريش ،
وأمكنه منهم أن يمثل بثلاثين رجلا فى مقابل المثلة بحمزة وحده ، وكذلك
جاء فى قصة اسلام وحشى الذى طلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم أن
يقص عليه كيف كان قتله لحمزة فلما أنبأه نبأها قال له صلى الله عليه
وسلم هل تستطيع أن توارى وجهك عنى فانى لا أحب أن أراك فى حين
أنه حدثه هذا الحديث بعد أن أسلم والاسلام يجب ما قبله ... وقـد
اتفقت كتب السيرة والتاريخ على هذا الحديث الذى يحكيه وحشى عن قتله
لحمزة اذ سأله النبى صلى الله عليه وسلم . كما سأله غيره كذلك « قال
عبد الله بن عدى سألت أنا وآخر وحشيا ، قلت جئناك لتحدثنا عن قتلك

حمزة كيف قتلته . قال وحشى أما انى سأحدثكما كما حدثت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألنى عن ذلك .. كنت غلاما لجبير بن مطعم وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر . فلما سارت قريش الى أحد . قال لى جبير ان قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق . فخرجت مع الناس - وكنت عبدا حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة . قلما أخطىء بها شيئا . فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره ، حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق ، يهد الناس بسيفه هدا ، ما يقوم له شيء ، فوالله انى لأتهيأ له أريده وأستتر بشجرة أو حجر ليدنو منى ، اذ تقدمنى اليه سباع بن عبد العزى . فلما رآه حمزة قال له هلم الى يا بن مقطعة البظور ، فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه ، وهززت حربتى حتى اذا رضيت منها دفعتها عليه ، وذهب لينوء نحوى فغلب ، وتركته واياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتى ، ثم رجعت الى العسكر فقعدت فيه . ولم يكن لى بغيره حاجة ، وانما قتلته لأعتق ، فلما قدمت مكة أعتقت ، ثم أقمت حتى اذا افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة هربت الى الطائف فمكثت بها . فلما خرج وفد الطائف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلموا تعيت على المذاهب . فقلت ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد . فوالله انى لفى ذاك من همى اذ قال لى رجل ويحك انه والله ما يقتل أحدا من الناس دخل فى دينه ، وتشهد شهادة الحق ، فلما قال لى ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فلم يرعه الا بى قائما على رأسه أتشهد بشهادة الحق فلما رآنى قال أوحشى ؟ قلت نعم يارسول الله . قال اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة . فحدثته كما حدثتكما . فلما فرغت من حديثى قال ويحك غيب عنى وجهك فلا أرينك . فكنت أتنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان لئلا يرانى ، حتى قبضه الله ، فلما خرج المسلمون الى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم ، وأخذت حربتى التى قتلت بها حمزة ، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائما فى يده السيف وما أعرفه ، فتهيأت له وتهيأ له رجل من الأنصار فضربه بالسيف ، فربك أعلم أينا قتله ، فاذا كنت قتلته . فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قتلت شر الناس .

ومن هذه القصة يظهر لنا أن الرجل الذى يتمكن الشر من نفسه ، ويتمكن الانحراف من طبعه ، لا يلبث اذا خالطت الهداية قلبه ، أن يكون صلبا فى الحق . مؤمنا به . مستميتا فيه ، مدافعا عنه ، لا يتزحزح الى غير جانبه ، وفى حرص وحشى أن يرضى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن يزيل من نفسه ما كان عالقا بها من الكراهية له - مع كونها كراهية

صورية لا تتعلق بنقص فى دينه أو انحراف في عقيدته وانما هي بشرية فى النبى صلى الله عليه وسلم لم يستطع أن يكتمها ، أو يتغلب عليها ـ دلالة على أن عقيدته راسخة ، وايمانه ثابت • وربما كان وحشى نفسه أول المؤمنين بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقل له ذلك القول بخسا لايمانه ، أو نقصا فى دينه ، أو شكا فى عقيدته ، وانما هو التصوير لكامن اللوعة التى كانت فى نفسه صلى الله عليه وسلم من أجل فقد عمه الذى كان الى جانبه يدافع عنه وينصره وكان من حوله يملأ فراغ آلاف الرجال • ومثل حمزة بن عبد المطلب تظهر بموته الفجوة الواسعة ، وحزن النبى صلى الله عليه وسلم الى هذا الحد ليس بعجيب ولا غريب •• وهذا الموقف الذى وقفه صلى الله عليه وسلم من رجل هو صورة لألم عاناه ، أو مصيبة قاساها • أو عدوان وقع عليه ، ليس سوى معنى البشرية التى لم يتجرد عنها ، والتى كان هو نفسه يعلنها فى أكثر من مناسبة ، والفرق بين بشريته صلى الله عليه وسلم وبشرية الناس أن بشريته لا تنزل به الى مستوى مرذول ، أو معنى حقير ، أما أبناء آدم وبنات حواء فان بشريتهم تنزل بهم الى حيز الاسفاف ، وتتعرض للنقد واللوم ، أما هو صلى الله عليه وسلم فان عصمته تصونه عن الصغائر ، وتمنعه من النزول ، وتصوره دائما أبدا فى صورة الكمال •

بين أحد والأحزاب

على الرغم من صمود النبي صلى الله عليه وسلم في نهاية معركة أحد والمسلمون قد انفضوا من حوله بعد أن شعروا أن مقاومتهم للعدو ضرب من العبث . ولون من ألوان الانتحار . ليس من العقل الاستمرار فيه . ولا البقاء عليه ، حتى لقد كاد صموده هو أيضا بعد ذلك يكون من هـذا القبيل أيضا ، لأنه بعد انفضاض المسلمين وانصرافهم كان يعرض نفسه للموت من غير ثمن ، ويتصدى للهزيمة بدون جدوى . وقد كان الأجدر به وقد حل بالجيش ما حل به أن يهيء نفسه للفرار كما فعل كثير من الصحابة ابقاء على روحه التي لم يكن ليملكها وحده . ولكنها كانت ملكا للبشرية التي يعمل لها . ويكدح لانقاذها ، ويعيش ليأخذ بيدها . ويكافح للنهوض بها . وتوجيهها الى مستقبل أفضل ، وحياة أكمل ، وسلوك أمثل . الا أنه أراد أن يضرب المثل للناس على أنه وهو يحمل الرسالة ، أو مسئولية الدعوة الى الله جل وعلا . لا يعنيه أن يكون الى جانبه قوة من الناس تسانده ، وجيش من المحاربين يعاضده ، أم يكون هو وحده . لأنه لا يود أن ينتصر بالسيف . ولا أن يغلب بالقوة . ولا أن يظهر بالبطش . ولا أن يعلو بالعدد والعدة ... وهو الذى يعتمد على المنطق . ويدعو الى الحق ، ويقود الانسانيـة الى التى هى أقوم ، ومثله لا يثقل ميزانه أن ينتصر فى معركة ، أو يغلب فى جولة ، أو يضطر خصمه معه الى أن ينزل على حكم القوة ، أو ارادة التسلط والنفوذ . لأن هذا هو أسلوب المفلسين من الحجة والبرهان . والصواب والحق .

على أن انصراف خصومه عنه مع هذا النصر الساحق الذى أصابوه كان من المعجزات التى أيده الله بها ، والخوارق التى سخرها له ، فلقد

وقفت له قلة قليلة تناوشه ، ونفر ضئيل يحاربه ، فنال منه بعض الذى يحب ، لا كل الذى يحب ، أما بقية الجيش فانها كانت على يقين من أنه قتل ، وليس هنالك بعد الذى كان ما يدعو الى حرب شاملة ، أو معركة حامية ، فلما تبين لهم بعد الانصراف من الميدان أن محمدا لا يزال على قيد الحياة ندموا أشد الندم أنهم لم يتخلصوا منه ، ولم يقضوا عليه القضاء الأخير ، ولذلك كثرت دراستهم لهذا الموقف ، وحطوا رحالهم وهم فى طريقهم الى مكة دون أن يتريثوا وأجمعوا الرأى على أن يأخذوا طريقهم الى يثرب لتأديب محمد ومن معه بعمل حاسم يحملهم على ألا يفكروا فى الوقوف فى وجه أهل مكة أثناء مرورهم بالتجارة من الشام أو اليها ..

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يشك فى أن الانتصار الذى حصلت عليه قريش ، وبخاصة بعد قول أبى سفيان فى نهاية المعركة « يوم بيوم بدر والموعد فى بدر أخرى فى العام المقبل » سيحملها على التمرد والطغيان والغرور ، وأن ذلك سيسوقها لا محالة الى الطمع فى الدخول الى يثرب التى يتحصن بها محمد والمسلمون معه لقطع الطريق على المارة من مكة أو الى مكة بالتجارة ، ولهذا فانه صلى الله عليه وسلم لم يرد أن يظهر بمظهر المقهور الذى خرج من المعركة مثخنا بالجراح حتى لا يزداد طمع عدوه فيه ، ولكنه أقام فى الطريق من غير أن يواصل السير الى المدينة . وظل بحمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة ، وكان أبو سفيان على بعد سبعة وثلاثين ميلا ـ بالروحاء ـ وبعد أن لامته قريش على انصرافه دون أن يقضى على محمد وأصحابه القضاء الأخير ..

وقد أراد صلى الله عليه وسلم ببقائه على الطريق أياما أن تفهم قريش أنه لايزال على أتم الاستعداد للقائهم . لم يدب الوهن اليه ، ولم يتسرب اليأس فى نفسه .. وقد حاولت جماعات متفرقة من المشركين الالتقاء ببعض جماعات من المسلمين كان نصيبها من تلك اللقاءات الفرار والهزيمة وكان ذلك مضافا الى تنكيل محمد باليهود واشاعة الهلع والفزع فى نفوس المنافقين عاملا قويا فى أن تعاود قريش واليهود والمنافقون تأليب خصوم الاسلام . واستعراض عضلاتهم جميعا فى مبارزة جديدة عرفت فيما بعد ذلك بغزوة الاحزاب أو غزوة الخندق .

ويقول الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » فلما كان الغد من يوم أحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أذن مؤذن النبى فى المسلمين بطلب العدو ، واستنفرهم لمطاردته على ألا يخرج الا من حضر الغزوة ، وخرج المسلمون فوقع فى روع أبى سفيان أن أعداءه جاؤا من المدينة بمدد جديد فخاف لقاءهم . وبلغ محمد حمراء الأسد وكان أبو سفيان وأصحابه بالروحاء ، فمر به معبد الخزاعى وكان قد مر بمحمد ومن معه

فسأله عن شأنهم فأجابه معبد وكان لا يزال على الشرك ان محمدا قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط . وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه . وكلهم اشد ما يكونون عليكم حنقا ، ومنكم للثأر طلبا » على أن أبا سفيان فكر من جانبه فيما يكون لفراره من محمد ، ومن عدم مواجهته اياه بعد انتصاره عليه من الأثر .. أفلا تقول العرب في قريش ما كان يود أن تقوله في محمد وأصحابه ؟ ولكن هبه رجع الى محمد فهزمه المسلمون اذا ليكونن ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبدا ، فلجأ الى الحيلة فبعث مع ركب من بني عبدالقيس يقصدون المدينة يبلغون محمدا أنه قد أجمع السير اليه والى أصحابه ليستأصل بقيتهم ، فلما أبلغ الركب الرسالة الى محمد بحمراء الأسد لم يتضعضع عزمه ، ولم تهن قوته . بل ظل في مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة ، ليدل قريشا أنه على عزمه . وأنه منتظر رجعتهم ... وأخيرا فترت همة أبي سفيان وقريش وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد وعادوا أدراجهم ميممين مكة ، ورجع محمد الى المدينة ، وقد استرد كثيرا من مكانته التي تزعزعت على أثر الهزيمة في أحد » .

وفي هذا الموقف الذي وقفه المسلمون مع النبي صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد وغيرها لارهاب العدو وتخويفه نزل قوله جل وعلا ثناء عليهم « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو الفضل العظيم » ولم يمض عام واحد على أحد حتى كان الموعد الذي هدد به أبو سفيان أن يلقى المسلمين ببدر قد حان فخرج أبو سفيان الى بدر وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أكد أنه لا يتخلف عن الخروج ولو أدى ذلك الى أن يخرج وحده ، وكان لهذا التأكيد ـ أو التهديد ـ أثره البالغ في حماسة المسلمين واقدامهم ، بعد أن كان فيهم فتور وتردد ، وقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم ثمان ليال ينتظر أبا سفيان لكن أبا سفيان بدا له أن يرجع بحجة أن العام كان مجدبا . وقال يامعشر قريش انه لا يصلحكم الا عام خصب ، ترعون فيه الشجر ، وتشربون اللبن ، وان عامكم هذا عام جدب فارجعوا ، فرجع الناس . أما المسلمون فانهم قد اتجروا في سوق بدر وعادوا بربح عظيم لعله هو المقصود من قوله جل جلاله « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل » ويقول المؤرخون ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يرجع الى المدينة بعد هذه الرحلة الميمونة التي كانت الى بدر الثانية والتي انقلب المسلمون بعدها بنعمة من الله وفضل الا وقد صنع من التطهير العام في الطريق ، واشاعة الرعب والفزع في نفوس المتمردين ، ما لم يكن له

أن يصنعه في سنوات ، وكان أبرز هذا الذى صنعه هو جلاء بنى النضير الذين كانوا مراكز تجمع اليهودية • كلهـــا حينئذ ومنهم كانت تندلع شرارات الفتن والمؤمرات ، وكان جلاء بنى قينقاع قد سبق ذلك فأحدث هذان الجلاءان ذعرا وفزعا فى صفوف أعدائه صلى الله عليه وسلم لا نظير له ، ثم كانت بعد هذه الضربات كلها غزوة الخندق ـ أو الأحزاب ـ التى لم يجن من ورائها المشركون الا تفكيك أوصالهم ، وضعف قوتهم ، وذهاب ريحهم ، والقضاء على البقية الباقية من حلفائهم الذين كانوا يعولون عليهم وهم بنو قريظة ، وبذلك أصبحت قوى الشر التى تقف للدعوة أو تناوىء الرسول صلى الله عليه وسلم عرضة لأن تعصف بها عاصفة يكون فيهـــا حتفها والقضاء عليها ، وسنرى من مجريات الحوادث فيما بعد أن راية قريش سوف يعتريها الهبوط والنزول شيئا فشيئا حتى لم يجد حماتها والحاملون لها بدا من أن تخضع رقابهم عن طواعية واختيار لمحمد الذى كانوا يطاردونه ويحاربونه ويبالغون في الكيد له والصد عن سبيله ، ذلك لأن الحق له الغلبة والفوز • مهما صارعه الباطل ، أو قاومه الطغيان ، أو حاربه الشرك ، ولو أن خصومه صلى الله عليه وسلم حكموا المنطق ، واعتصموا بالعقل ، وتركوا جانبا سفه الرأى ولجاجة الباطل ، لمـا حاق بهم هوان الهزيمة ، لكنه سبحانه أراد أن يكونوا عظة للتاريخ ، وعبـرة للأيام ، وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ••

غزوة بنى المصطلق

منذ غزوة بدر التي قصم الله بها ظهور المشركين ، وزاد في خذلانهم وخزيهم ، وأعلن بهـا عن مذلتهم واحتقارهم ، والحقد يأكل نفوسـهم ، ويشعل النار فى أفئدتهم ، ويقض عليهم مضاجعهم ، فلا يهنأ لهم حال ، ولا يصفو لهم عيش ، ولا يقر لهم قرار ، مؤمنين أن حياتهم لاقيمة لها ، مادام محمد والمسلمون معه يرون أن استئصالهم شـهادة ، وجهـادهم عبادة ، والقضاء عليهم هو الحسنى وزيادة لذلك لم يكن لهم شغل يستنفد أوقاتهم ، اويحرك وجدانهم ، ويملك عليهم شعورهم ، الا أن يضعوا حدا لهذا الخطر الذى يقف لهم بالمرصاد ، وذلك الشر الذى يتحين الفرصـة تلو الفرصة لصيرورتهم تاريخا يرويه الرواة ، وكان تفكيرهم في الحرب وخوض غمراتها لا ينتهى ، والمشركون واليهود والمنافقون على السواء فى كراهيتهم له صلى الله عليه وسلم والعمل على أن يؤلفوا جبهـة واحـدة تواجهه وتقضى عليه وتسكت صوته رجاء أن يخلو لهم الجو ، ويصفو لهم الحال ، وتزول من طريقهم تلك العقبات التى طالما اصطدموا بها ، وكانت لهم حجر عثرة ، واليهود الذين كانوا يتطاولون بحصونهم وأموالهم وثرواتهم قضى عليهم صلى الله عليه وسلم ونفاهم عن مواطنهم وأموالهم ، وكانوا يظنون أن أحدا لايستطيع أن ينال منهم أو يتطاول عليهم ، أو يحدد لهم المصير الذى يراه ، وهم شعب الله المختـــار ، وأصحاب كتاب منزل من عند الله كالقرآن الذى يعتمد عليه محمد ويفاخر به ، ولهذا المصير الذى صاروا اليه وكان عليهم ألا تنام أعينهم ، أو تطمئن جنوبهم ، حتى يثأروا لأنفسهم من محمد وأصحابه ، وهم دائما أبدا يؤلبون المشركين على محمد وأصحابه و يعلنون اليهم أنهم معهم عليه ، لأنه العدو المشترك ، ولا تزيد حربهم له على هذه الوعود التى يبذلونها ، وكانت غزوة الخندق أو الأحزاب

صورة لهذه التحيزة ، الا أنهم استطاعوا أن يجعلوا المشركين فى أيديهم كلعبة الصبى التى يحركها فى يده كما يشاء ، وطالما هم المشركون بالخروج للمسلمين ورد الله كيدهم فى نحورهم لم ينالوا خيرا وكم هزت النخوة رجالا منهم رجعوا بخفى حنين ، وغزوة بنى المصطلق هذه صورة من هذه الصور المتكررة لا أكثر ولا أقل ، وقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أنهم يجمعون جموعهم ، ويدبرون أمورهم ، ثم يعسكرون بالمريسيع على ماء لخزاعة ، لينقضوا عليه هو ومن معه من المسلمين ، وكان ذلك بقيادة زعيمهم وسيدهم الحارث بن أبى ضرار أبو جويرية بنت الحارث التى صارت فيما بعد زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما انتهى الى النبى علم هذا التجمع ، وأخبره المارون من هنالك ، ندب أصحابه لملاقاتهم ، وقد استجاب اليه خلق كثير حتى المنافقون ، ولما انتهى أمر ذلك الى معسكر الحارث بن أبى ضرار زعيم بنى المصطلق ذهل وترقب لنفسه الخذلان والخزى ، ورجع كثير ممن كانوا معه خوفا على أنفسهم من الموت أو الوقوع أسرى فى أيدى المسلمين ، الا أن ذلك لم يثنه عن الحرب ، أو يقلل من عزمه عليها ، وقد جعل صلى الله عليه وسلم لواء المهاجرين لأبى بكر ، ولواء الأنصار لسعد بن عباده ، ونزل المسلمون قريبا من موقف المشركين الذى كان بالمريسيع ، وأخذوا يتراشقون بالنبال ، وأمر النبى أصحابه أن يحملوا حملة رجل واحد فما أفلت منهم انسان ، وانما وقعوا جميعا فى قبضة أيديهم ــ رجالا ونساء وأطفالا بعد قتل عشرة منهم ، وكان الأسرى أكثر من سبعماية ، والابل ألفين ، والنساء خمسة آلاف ، ولم يقتل من المسلمين الا رجل واحد على طريق الخطأ حيث ظنه أحد المسلمين من جيش العدو فقتله ويقول الشيخ الخضرى وكان فى نساء المشركين برة بنت الحارث بن أبى ضرار ــ سيد القوم ــ وقد أخذ قومها جميعهم أسرى ، وعددهم مايتا بيت وزعت على المسلمين ، وهنا يظهر حسن سياسة النبى صلى الله عليه وسلم ومنتهى كرمه ، فان بنى المصطلق من أعز العرب ، وأسر نسائهم بهذه الحال صعب لايحتملونه ، لذلك رأى صلى الله عليه وسلم أن يجعل المسلمين يمنون عليهم بالجزية ، وكانت برة بنت الحارث بن أبى ضرار ــ جويرة فيما بعد ــ من نصيب ثابت بن قيس من الغنايم فكاتبته على نفسها ثم جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقالت يا رسول الله أنا جويرة بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء مالايخفى عليك ، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبته على نفسى وجئتك أستعين بك على هذا المال الذى كاتبته عليه على أن يكون ذلك المال مهر زواجى منك ، فقال صلى الله عليه وسلم قد فعلت ، ولما علم المسلمون بهذا الزواج فكوا اسار الأسرى الذين كانوا بأيديهم

وقالوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم لاينبغي أن يكونوا أسرى في أيدينا ، ودخل بنو المصطلق جميعا فى الاسلام ، غير أن هذا النصر الباهر لم يخل من تنغيص يحيط به ، وفتن تلاحقه ، وهفوات تأتي بعــده ، اذ بينا الناس على هذا الماء الذى كان عنده التراشق والتلاقي ، اختصم غلام لعمر بن الخطاب من بنى غفار مع سنان بن وبر الجهنى حليف بني عوف من الخزرج ، وتصايح المتخاصمان ، غلام عمر يدعو المهاجرين ، والجهنى يدعو الأنصــار ، وكاد الفريقان يقتتلان ، لولا أن ذلك قد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم فتداركه بحكمته ، وقال دعوا هذه الكلمة فانها فتنة ، أما عبد الله بن أبى بن سلول فانه أراد أن ينتهزها فرصة يخب فيها ويضع ليثير الفتنة ، ويوقظ الاحنة ، وينفخ في الرماد ، فقال ما رأيت كاليوم مذلة ، أو قد فعلوها ، نافرونا في ديارنا ، والله مانحن مع المهاجرين الا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك ، أما والله « لئن رجعنا الى المدينــة ليخرجن الأعز منها الأذل ثم التفت الى من كان معه ، وقال هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بايديكم لتحولوا عنكم الى غير دياركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضا للمنايا دون محمد ، فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده ٠٠ وكان على مقربة من عبد الله بن أبى شاب مسلم حديث السن قوى الاسلام ، هو زيد بن الأرقم فذهب الى النبى صلى الله عليــه وسلم ليخبره بما تفوه به هذا المنافق ، وما أرسله من القول دون ما مبالاة ولا حذر ، فتغير وجهــه صلى الله عليه وسلم ، وقال ياغلام لعلك قد غضبت عليه فتقولت قولا لم يحدث ، فقال والله يارسول الله لقد سمعته ، قال النبى لعله أخطأ سمعك ، وهنا قال عمر يارســول الله مرنى أو مر أى أحــد لقتل هذا المنافق ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، وكيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، ثم أمر صلى الله عليه وسلم بالرحيل ، والحر شديد ، والسفر شاق ، ليقطع على الناس أمر الاشتغال بهذه الفتنة والخوض فيها ، وجاءه أسيد بن حضير ، وقال له ما الذى دعاك يارسول الله ، أن ترتحل فى هذا الوقت الشديد الحرارة ، فقال له أو ما بلغك مايقول صاحبكم ، زعم أنه ان رجع الى المدينــة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال أنت والله يارسول الله تخرجه ان شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، وجــاء عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول وكان مسلما صادق الايمان ليقول للنبى صلى الله عليه وســلم مرنى يارسول أن أقتل أبى حتى لا تأمرنى النفس الأمارة بالسوء أن أقتل قاتله ، فأكون قد قتلت مسلما فى كافر ، وأذهب بذلك الى جهنم ، ويرد عليه النبى صلى الله عليه وســلم قائلا

لاتقتله ولاتقتله مادام بينننا ، وينتهى ذلك كله الى ابن أبى فيجىء الى النبى صلى الله عليه لينفى عن نفسه ذلك الخبر ، ويحلف بالله العلى العظيم لم يصدر عنه شىء من ذلك ، وهنا تفضحه سورة المنافقين . وفيها قوله سبحانه « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون » وبهذا كله احتقره قومه ، وازدراه أصحابه ، وكانوا لايستجيبون له ، واطمأنوا الى أنه يمثل رواية مفضوحة ، تزرى به وتجعله أحقر من لا شىء فى العدد .

حديث الافك

كانت غزوة « المريسيع » أو بنى المصطلق احدى العمليات الحربية التى أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائها أن يثبت لأعدائه من المشركين والمنافقين أن هزيمة أحد لم تفت فى عضده ، ولم تضعف من شوكته ، ولم تهز عوده ، لكن المنافقين الذين أصبحوا يخافون قوته ، ويرهبون بأسه ، لايزالون يعملون من طريق الاشاعات المغرضة على تشويه سمعته ، وتلفيق الأكاذيب له ، وامتلاء الجو من حوله بالضباب والدخان، لتكون هذه الحرب النفسية تقويضا لبنائه الضخم ، وتلويثا لتاريخه الناصع ، وقد أمكنتهم الفرصة المتاحة أن يصلوا الى غرضهم المنشود ، وأملهم المطلوب ، من أيسر الطرق ، وأهون الأسباب ، حينما انقطعت عائشة رضى الله تعالى عنها عن الركب لداع ضرورى ، وقد أركبها راحلته رجل كان هو قد تأخر عن الركب كما تأخرت هى ، وكان هذا ذريعة للافاضة فى حديث غير كريم ، والخوض فى عرض لم تدنسه ريبة ، ولم يكدر صفوه غبار ، وهكذا تتيقظ الفتن ، وتمشى برجليها المحن ، ويقع الناس فى حيص بيص .

والقصة ـ كما ترويها صاحبتها ـ « عن عائشة رضى الله عنها .. قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين أزواجه فايتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فأقرع بيننا فى غزاة غزاها . فخرج سهمى فخرجت معه بعد ما أنزل الله الأمر بالحجاب ، فأنا أحمل فى هودج ، وأنزل فيه ، فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت

شأني أقبلت الى الرحل فلمست صدرى ، فاذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع • فرجعت فالتمست عقــدى ، فحبسنى ابتغاؤه ، فأقبل الذين يرحلون لى فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساء اذا ذاك خفافا ، لم يثقلن • ولم يغشهن اللحم ، وانما يأكلن العلقة ـ القليل ـ من الطعام • فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجئت منزلهم وليس فيه أحد ، فأممت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون الى ، فبينا أنا جالسة غلبتنى عيناى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلى فرأى سواد انســان نائم ، فأتانى وكان يرانى قبل الحجـــاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته ، فوطىء يدها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين فى نحر الظهيرة • فهلك من هلك وكان الذي تولى الافك « عبد الله بن أبي بن سلول » فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرا ، والناس يفيضون فى قول أصــحاب الافك ••

ويريبنى فى وجعى أنى لا أرى من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللطف الذى كنت أرى منه حين أمرض •• انما يدخل فيسلم فيقول كيف تيكم ؟ لا أشعر بشىء من ذلك حتى نقهت ، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع ـ متبرزنا ـ لا نخرج الا ليلا الى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العــرب الأول فى البرية ، أو فى التنزه ، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبى رهم نمشى ، فعثرت فى مرطها ، فقالت تعس مسطح ، فقلت لها بئسما قلت ، أتسبين رجلا شهد بدرا ؟ فقالت يا هنتاه •• ألم تسمعى ما قالوا ؟ فأخبرتنى بقول أهل الافك •• فازددت مرضا على مرضى ، فلما رجعت الى بيتى دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال كيف تيكم ؟ فقلت ائذن لى الى أبوى •• قالت وأنا أريد حينئذ أن أستيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتيت أبوى فقلت لأمي ما يتحدث الناس به • فقالت يا بنية هونى على نفسك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها ، فقلت ســبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت فدعا ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على بن أبى طالب وأســامة بن زيد ، حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله ، فأما أسامة فأشار عليه بالذى يعلم فى نفسه من الود لهم ، فقال أســامة أهلك يا رسول الله ، ولا نعلم الا خيرا •• وأما على فقـــال يارسـول الله

لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير • وسل الجارية تصدقك • فدعا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بريره •• فقال يا بريرة •• هل رأيت فيها شيئا يريبك ، فقالت بريرة لا والذى بعثك بالحق • ما رأيت منها أمرا أغمصه عليها ــ أى أعيبه ــ قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتى الداجن فتأكله ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى أهلى • فوالله ما علمت على أهلى الا خيرا ، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا وما كان يدخل على أهلى الا معى • فقال سعد بن معاذ يا رسول الله ، أنا والله أعذرك منه ، ان كان من الأوس ضربنا عنقه ، وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك ، فقال سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلا صالحا ، ولكن احتملته الحمية ، فقال كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على ذلك •فقام أسيد بن الحضير • فقال كذبت لعمر الله ، لنقتلنه ، فانك منافق تجادل عن المنافقين • فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على المنبر• فنزل فخفضهم حتى سكتوا وسكت ، وبكيت يومى لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم •• فأصبح عندى أبواى وقد بكيت ليلتين ويوما حتى أظن أن البكاء فالق كبدى •• قالت فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى، اذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى • فبينما نحن كذلك اذ دخل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فجلس ولم يجلس عندى من يوم قيل لى ما قيل قبلها •• وقد مكث شهرا لا يوحى اليه فى شأنى بشىء •• قالت فتشهد ثم قال يا عائشة لقد بلغنى عنك كذا وكذا ، فان كنت بريئة فسيبرئك الله ، وان كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه ، فان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه .. فلما قضى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مقالته قلص ــ انقطع ــ دمعى حتى ما أحس منه قطرة • وقلت لأبى أجب عنى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقلت لأمى أجيبى عنى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيما قال قالت والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قالت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن •• فقلت والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس • ووقر فى أنفسكم وصدقتم به •• ولئن قلت لكم انى بريئة والله يعلم انى لبريئة لاتصدقونى بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم انى لبريئة لتصدقننى ، والله ما أجد لى ولكم مثلا الا أبا يوسف اذ قال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون •• ثم تحولت على فراشى وأنا أرجو أن يبرئنى الله • ولكن والله ما ظننت

أن الله ينزل فى شأنى وحيا يتلى ، وأنا أحقـــر فى نفسى من أن يتكلم بالقرآن فى أمرى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها ، فوالله ما رام مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليـــه الوحى فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى يوم شات ٠٠ فلما سرى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لى يا عائشة أحمدى الله فقد بـــرأك الله ٠٠ فقالت لى أمى ٠٠ قومى الى رسول الله — صلى الله عليـــه وسلم — فقلت لا والله لا أقوم اليه ولا أحمد الا الله ٠ فأنزل الله عز وجل « ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم الآيات » فلما أنزل الله عز وجل هذا فى براءتى قال أبو بكر الصديق رضى الله عنـــه ، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه « والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد ما قال لعائشـــة » فأنزل الله عز وجل « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى ٠٠ الى قوله والله غفور رحيم » فقال أبو بكر بلى والله انى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع الى مسطح الذى كان يجـــرى عليـــه ٠٠ وكان رسول الله ٠ صلى الله عليه وسلم — ســـأل زينب بنت جحش عن أمـــرى فقال يا زينب ما علمت ؟ ما رأيت ؟ فقالت يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى ٠ والله ما علمت عليها الا خيرا ٠٠ قالت وهى التى كانت تسامينى ٠٠ فعصمها الله بالورع » ٠

وفى هذه القصة عظات وعبر لا تخفى على ذهن اللبيب الأريب ٠٠ منها أن الشدائد كانت تلاحقه صلى الله عليه وسلم فى كل خطوات دعوته الى الله سبحانه وتعالى فى نفسه وفى أهله كذلك ، وفى سبيل اعلان هذه الدعوة وابلاغها الى الناس ، ومع ذلك كله فانها لم تستطع أن تثنى عزمه ، أو تصرف جهده ، أو تعوق خطوه ، أو تشيع اليأس فى نفسه ، أو تنال من ثقته فى ربه ، أو ايمانه به ، أو تقف فى وجهه ليتحول عن السنن الذى هو ماض فيه ومنها — كذلك — ان مع العسر يسرا — كما يقول الله سبحانه وتعالى ٠ فان عائشة رضى الله عنها لما شـــهدت لهـــا السماء ، وبرأها الوحى ٠ ونوهت بها الآيات ، صار الايمان بطهرها عقيدة يؤمن بها المسلم ، ورميها بالزنا كفرا — والعياذ بالله — « ولولا اذ ســـمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين » ٠

ومنها أن المولى جل وعلا لا يتخلى عن أوليائه فى أحرج الأوقات ، وأحلك الظروف ، مهما كانت قوى العدوان تلاحقهم ، وعناصر الشر تحاربهم ، والخصوم يكيدون لهم ٠٠ وقد كان مسطح الذى روج لهذه

الفتنة ، وعبد الله بن أبى الذى تولى كبره ، ومن أخذوا عنهما هذا البهتان يظنون أنهم أصابوا من محمد صلى الله عليه وسلم مقتلا ، أو كشفوا فيه ناحية ضعف ، ولكن الله الذى يحيطه بعنايته ، ويرعاه بعين رعايتـه ، كان بجانبـه يدافع عنـه ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا « ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم » ولو علم هؤلاء الذين رموا عائشة رضى الله عنها أنها ستحصل على هذه الشهادة من رب الأرباب ، بنزاهة عرضها • وطهارة ساحتها ، وشرف قدرها ، وعلو منزلتها ، لما كان منهم الا الخرس • ولكنـه الحمق الذى جعلهم كالساعى لحتفه بظلفه ، فقد باؤا بالخزى الأبدى •

ومنها ـ وهى أهم من ذلك كله وأعظـم ـ أن الذى يهتم بكشف الأستار ، وافتضاح الأعراض ، يتخبط فى منطقه ، ويلتوى فى سيره ، ولا يبالى أن تمشى به رجله الى حتفه ، وتنتهى به الى خاتمة لا يرضاها • وغاية لا يحمدها ، أم انها ستصل به الى شاطىء الأمان ، وموطن السلامة والعافية ، فان هذا الرجل الذى اهتم به مروجو هذه القالة • وجعلوا منه بطلا لتلك الأسطورة ، ظهر من مجريات الحوادث والأمور ـ فيما بعد ـ أن اسناد دور البطولة اليه فى هذه الخرافة الملفقة ، أو الفرية المصنوعة ، لم يصادفه التوفيق ، ولم يقترن به الصواب والســـداد ، لأنه رجـل عزهاة ، كما تقول كتب المعاجم لا يرغب فى النساء ، ولا يتوق اليهن ، لأنه يفقد الفحولة ، ولا يمكن أن يحن الى المرأة أو يطلبها •• ولذلك فان عبد الله ابن أبى وهو المقصود بقوله تعالى « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » لم يؤمن بأنه شفى غيظ نفسه من محمد وأصحابه بهذا الافك حتى راح يؤلب النفوس ، ويثير القلوب ، ويقدم للفتنة وقودا آخر وآخر مصورا ذلك كله فيما سجله القرآن الكريم من حزازات ساخنة ، واحن حامية • وحقد لايمكن أن يفارقه ، ولكنه يملى عليه ألوانا من الكيد ، وأنواعا من الايلام ، يظن أنها تشفى صدره ، أو تسكن لوعته ، فلما أفرغ جعبته لم يجد ما تبقى له الا ما يحكيه عنه سبحانه « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن الســـماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » وهكذا عاش هذا الرجل حربا على نفسه التى كان يأكلها الحقد ، ومع ذلك كان يرجو أن يضعوا له التـاج فوق مفرقه ، وغاب عنه أن الحقود لايسود الا فى غفلة الزمن وفى وسط الغوغاء •

غزوة الخندق أو الأحزاب

مع تلك المجابهات الكثيرة التى كانت بين المشركين والمسلمين ، والذعر الذى بدأ يدب فى قلوب خصوم محمد صلى الله عليه وسلم من مواقف البطولة التى كانوا يرونها غير مرة من أصحابه رضوان الله عليهم • فان العداوة التى كانت بادية فى سلوكهم معه ، ونواياهم نحوه ، لم تكن لتنقطع بوادرها ، أو تخفى ظواهرها ، أو تنتهى نتائجها المتكررة فى كل يوم ، وفى كل مناسبة •• وكانت غزوة الخندق أو الأحزاب هذه هى أبرز تلك المسرحيات التى تجلى فيها بشكل واضح تيقظ مؤامراتهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ووضح وضعهم الشاذ بالنسبة له ، حين تيقظت خصومتهم المتمثلة فى تحركاتهم المريبة هنا وهنالك لحشد الجيوش، واتخاذ العدة ، واشعال نيران الحرب ، واعلان النفير العام ، على هذا الذى جعل الآلهة الها واحدا ، ويقول المرحوم الشيخ محمد الخضرى « لم يقر لعظماء بنى النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم ، وارث المسلمين لها ، بل كان فى نفوسهم دائما أبدا أن يأخذوا ثأرهم ، ويستردوا بلادهم ، فذهب جمع منهم الى مكة • وقابلوا رؤساء قريش • وحرضوهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنوهم بالمساعدة ، فوجدوا منهم قبولا لما طلبوه ، ثم جاؤا الى قبيلة غطفان وحرضوا رجالها كذلك ، وأخبروهم بمبايعةقريش لهم على الحرب ، فوجدوا منهم ارتياحا ، فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن ابى طلحة العبدرى ، وعددهم أربعة آلاف ، وتجهزت غطفان يرأسهم عيينة بن حصن الذى جازى احسان الرسول اليه كفرا ، فانه أقطعه أرضا يرعى فيها سوائمه ، حتى اذا سمن خفه وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم

عليه ، وكان معه ألف فارس ٠٠ وتجهزت بنو مرة برأسهم الحارث بن عوف المرى ، وهم أربعماية ٠٠ وتجهزت بنو أشجع يرأسهم أبو مسعود بن رخيلة ٠٠ وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس وهم سبعماية ٠٠ وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدى وعدة الجميع عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبو سفيان ٠٠ ولما بلغه صلى الله عليه وسلم أخبار تلك التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع ، أيمكث فى المدينة ، أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار خارجها ٠٠ وقد أشار عليه سلمان الفارسى بعمل الخندق ، وهو عمل لم تكن العرب تعرفه ، فأمر صلى الله عليه وسلم المسلمين بعمله وشرعوا فى حفره شمالى المدينة من الحرة الشرقية الى الحرة الغربية ، وهذه هى الجهة التى كانت عورة يمكن أن تؤتى المدينة من قبلها ، أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لايتمكن العدو منها ، ولايمكن أن يحارب من جهتها ، وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة فى حفر الخندق لأنهم لم يكونوا فى سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل ، وعمل معهم عليه الصلاة والسلام ويقول الأستاذ أحمد الشريف فى الاعداد الذى سبق غزوة الأحزاب هذه « اختمرت فكرة تأليب العرب على المسلمين فى يثرب فى نفوس اليهود من بنى النضير الذين لجأوا الى خيبر بعد اجلائهم عن المدينة وأرادوا لها أن تكون محاولة نهائية ، ومعركة حاسمة يخوضونها ضد محمد ، وفى سبيل ذلك لم يدخروا جهدا من حيلة أو مكر أو مال ٠٠ وتنفيذا لهذه الفكرة خرج نفر منهم من بينهم حيى بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق وأخوه كنانة ، ومعهم جماعة من يهود خيبر حتى قدموا على قريش مكة ، وقد بدأوا بقريش لأنها التى تحمل لواء المعارضة ، ولأنها القوة المعادية للمدينة ، وهى التى بينها وبين المسلمين حرب معلنة لم تنته ٠٠ لكن قريشا كانت قد بدأت تمل الحرب ، وبدأت جبهتها الداخلية تتضعضع ، وأخذ الحصار الاقتصادى يؤثر فيها تأثيرا كبيرا ، جعلها تفكر فى اعادة النظر فى موقفها تجاه هذه الدولة الجديدة التى نشأت فى يثرب وأخذت عليها طرق تجارتها ، وأثبتت حتى الآن أنها قادرة على الثبات والنمو ، لذلك بدت مترددة غير واثقة ، فليس بينها وبين محمد خلاف الا على الدعوة التى يدعو بها ، وليس بعيدا أن يكون على حق ما دامت كلمته تزداد كل يوم رفعة وسموا ٠٠ وأرادت قريش أن تستوثق من خطة اليهود فسألت حييا عن قومه من بنى النضير فقال تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم الى محمد وأصحابه ، وسألوه عن بنى قريظة فقال أقاموا بالمدينة مكرا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم عليه ٠٠ ومازال بقريش يسهل لهم الأمر ويرغبهم حتى أخذ معهم موعدا بعد

أشهر يكون قد جمع لهم فيها الأحزاب من كل قبائل العرب .. بلغت أنباء هذه المسيرة محمدا والمسلمين معه فى المدينة ففزعوا وقد رمتهم العرب كلها عن قوس واحدة ، واذا كانت قريش قد انتصرت فى أحد ولم تكن فى أكثر من ثلاثة آلاف فماذا يصنع المسلمون لمقابلة هذه القوة التى تبلغ أكثر من ثلاثة أمثال قوة قريش حينئذ ، لم يكن من سبيل سوى التحصن بالمدينة ، ولكن هل يكفى التحصن أمام هذه القوة الساحقة . ثم ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يريد المغامرة ، وليست البطولة هى التى يحرص عليها ، فالحرب عنده وسيلة لا غاية ، وهو وان كان سريع النهضة لضرب العدو ، دقيق التنظيم ، ماهرا فى القيادة ، فانه ليس على مثال قواد الحرب وأربابها يسعى وراء تحقيق مجد حربى ، وانما هو نبى يريد سيادة مبدأ ، وتحقيق رسالة ، ويحرص على السلم مادام له عن القتال مندوحة .. وقد أقبلت قريش وأحزابها وهى ترجو يوما كيوم أحد ، ولكنها لم تجد جيش المسلمين ينتظرها فى ساحة مكشوفة مثل يوم أحد ، وانما ووجهت بتنظيم جديد ، وفاجأها الخندق ، فأخذها العجب ، اذ لم تكن تتوقع مثل هذا النوع من الدفاع المجهول . وكان الوقت شتاء ، والجو باردا ، والرياح شديدة ، وأدركت قريش وأحزابها أنهم مقيمون أمام الخندق طويلا ، يتعرضون لهذا الجو القاسى الذى تعجز خيامهم عن حمايتهم منه . ومحمد وأصحابه مجتمعون بخندقهم ، ولديهم الميرة ، ومساكنهم وراءهم . فهم يستطيعون الصبر طويلا .. أفليس الخير للأحزاب أن يعودوا أدراجهم .. لكن جمع هؤلاء العرب لحرب محمد مرة أخرى ليس بالأمر الهين ، قدر اليهود هذا كله ، وخاف حيى بن أخطب مغبته ، فقال لزعماء الأحزاب انه سيقنع بنى قريظة بنقض عهدهم مع محمد والانضمام اليهم ، ومتى منعت معونتها عن محمد انقطعت عنه الميرة ، وفتح الطريق أمام جيش الأحزاب ، وسرت قريش بما تعهد به حيى ، وسارع هو الى تنفيذ خطته . فأقنع زعيم بنى قريظة كعب بن أسد بذلك ، وما زال به حتى ثارت يهوديته ، وأعلن نقضه للعهد ، وعاد حيى يبشر الأحزاب لتستعد للهجوم . وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك فبعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير ليقفوا على جلية الأمر . وليحاولوا رد اليهود ان كانوا قد فكروا فى الخيانة .. وهنالك طلب زعيمهم كعب بن أسد أن يردوا اخوانهم من بنى النضير الى ديارهم أن كانوا يريدون منهم أن يلزموا موقفهم الأول ، وأراد سعد بن معاذ أن يقنعهم بالعدول عن هذا الموقف مخافة أن يحل بهم ما حل ببنى النضير ، لكنهم لم يقتنعوا ، وقال كعب من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد ، واشتدت المناقشة ،

وكاد الفريقان يتشاتمان ، ورجع رسل محمد اليه ، واشـــتد البلاء ، وعظم الخوف ، ورأى المسلمون طريق بنى قريظة وقد فتح للأحزاب ، ولما لم يكن من الحكمة مواجهة هذا العدو ، فان الحيلة اذن خير ما يلجأ اليه القائد البصير فى مثل هذا الموقف ٠٠ لذلك بعث النبى صلى الله عليه وسلم الى غطفان يعدها بثلث ثمار المدينة ان هى ارتحلت ، ولما لم يكن لغطفان هدف الا المال فقد بدأت تميل الى هذا العرض ، ثم انه أرسـل نعيم بن مسعود وكان قد أسلم حديثا ولم يعلم الناس باسـلامه ، وكان صديقا لقريش ، كما كان صديقا لليهود ، ليصـل بالحيلة الى تفتيت وحدة الأحزاب ، وكان داهية ذكيا • فأفهـم اليهـود أن غطفان وقريش لا تطيقان البقاء ، وربما انسحبا وظلوا هم وحدهم يواجهـون محمـدا وأصحابه فلا يستطيعون ، ونصح لهم أن يطلبوا من قريش رهنا من رجالهم يكونون بأيديهم ضمانا لهم ألا تتركهم الأحزاب لهذا المصـير ٠٠ وقال لقريش ان بنى قريظة ندموا على نقض عهد محمد وسيأخذون رجالا باسم رهائن يقدمونها لمحمد ليضرب أعناقها ٠٠ فلما طلبت قريش والأحزاب من بنى قريظة خوض المعـركة طلبوا منهم الرهائن ، وعنـدئذ تأكد لأبى سفيان أنهم سيغدرون ، وعـرض أمر الهجـوم السريع على غطفان فترددت • فلما كان الليل عصفت ريح شديدة ، وهطل المطر غزيرا ، وقصف الرعد ، واشتدت العاصفة بما لم ير له مثيل من قبل ٠٠ حتى امتلأت نفوس الأحزاب بالرعب ، وخيـل اليهم أن محمدا سوف يستغل هذه الفرصة فيهاجمهم ويوقع بهم • فقـام طليحة بن خويلد الأسـدى وصاح ان محمدا قد بدأكم بشر • فالنجاء النجاء ، وكان أبو سفيان أول من أجاب النداء ، ولبى داعى الفرار ، وصاح بقريش انى مرتحل أيهـا الناس فارتحلوا فقـد نقضت قريظـة عهدها ، وبدأكم محمـد بشر ما تكرهون ، وهكذا هزم الله الأحزاب • وكفى المسلمين القتال ٠٠ وفى هذه الغزوة ــ كما رأينا ــ لم يكن عدد المسلمين مشجعا على الوقوف فى وجه الأحزاب الذين جاؤا للاجهاز عليهم ، واسكات صوتهم ، وتفـريق شملهم ، وتنكيس رايتهم الى الأبد ، حتى لا تزحم طريقهم هذه الدولة الجديدة ــ فى يثرب ــ وهنالك تمر قوافلهم التجارية • وهم يخشـون الخشية كلها من تعرضها لها • وعدوانها عليها ، الا أن المسلمين مع هذه القلة كان فى قلوبهم ايمان ، وبين جوانحهم عقيدة ، نماها لديهم • وأكدها فى نفوسهم ، تلك الثقة التى لا حد لها فى نصر الله لهـم ، والتى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلنها اليهم ، ويبشرهم بها • ويؤكد لهم أن الله سبحانه وتعالى قد وعده بها ، ولا يخلف الله وعده ، ونحن نستطيع أن ندرك ــ من غير شك ــ أن الرسول صلى الله عليه وسلم أثبت بما لا ريب

فيه أنه قائد حربي محنك استطاع بدهائه وذكائه وعقله الكبير أن يعصف بهذا العدد الضخم الذي حشده عدوه ، وواجهه به خصومه ، وتبين ذلك واضحا كل الوضوح في أمرين اثنين ، كان أولهما استخدام هذا الرجل الحصيف نعيم بن مسعود الذي استطاع أن يجعل الثقة مفقودة بين الأحزاب وبين بني قريظة الى درجة أن فكرت قريش ممثلة في القائد العام أبي سفيان أن تعدل عن الحرب ثم تنجو بنفسها مكتفية بهذا النصر الذي أحرزته في أحد • وقد حصل ذلك بعد حرب الاستنزاف التي صادفتها من البقاء الطويل ، وقيام العواصف التي اقتلعت الخيام وأشاعت الرعب •

وثاني هذين الأمرين تلك المبارزة التي أراد مقتحمو الخندق أن يشيعوا بها الرعب في نفوس أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الا أنها لم تحقق غرضها ، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه صاحب الفضل في أنها خيبت ظنونهم ، اذ تقدم عمرو بن ود في صلف للمبارزة وتقدم علي فقتله ، وكانت هذه هي الضربة الأولى والفضل في الحروب دائما أبدا للضربة الأولى ، وبهذا فهم خصوم محمد أنه صار قوة يحسب حسابها •

قصة زينب

لم تقتصر مؤامرات المشركين ، ودسائس المنافقين ، في الكيد للرسول صلى الله عليه وسلم ، على الحروب الميدانية التي أثاروا عجاجنها ، ورسموا خطوطها ، وأشعلوا نيرانها ، وأراقوا فيها دماء غزيرة ، ولكن هذا الكيد كان يمتد الى أقصى الغايات والأبعاد ، فيتناول العرض والشرف ، والسلوك والعادات ، والطباع والأخلاق ، وأمهات المؤمنين اللائى كن أطهر من ماء السماء ، وأنقى من حبات الندى حين يشرق عليها ضوء الصبح ، وبياض النهار ، ونور الشمس في يوم من أيام الصحو ، وكأنما هو مخطط اجرامى قد رسمت له حدوده وغاياته ، وأعدت لتنفيذه الأوقات الملائمة ، أو الظروف المناسبة ، فقد كانت تتناول الرسول صلى الله عليه وسلم اذا دعت الضرورة الى ذلك ، فيتهم بالسحر والكهانة ، والشعر أو الجنون ، أو أن ما ينزل به جبريل عليه من ربه جل جلاله أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه ، حتى اذا ما تبين لهم تفاهة ما يقولون ، وكذب ما يدعون ، وخرافة ما يتوهمون ، حاولوا أن يتخذوا لهم ميدانا آخر للهجوم ، ومناسبة ثانية أو ثالثة للطعن واللمز ، والتشويه والتشنيع .. وقد كان زواجه صلى الله عليه وسلم بأكثر من واحدة مادة خصبة للحديث القذر ، والانتهاش المفضوح ، والزراية المكشوفة ، والغمز الساقط ، وفي كل مناسبة من المناسبات التى تأخذ الأحاديث طريقها الى الأفواه والأسماع يكون وراءها منافق أو يهودى ، والمستشرقون فى العصر الحديث توارثوا عن المنافقين واليهود ما كانوا يقومون به من الطعن واللمز ، واختلاق العيوب والمزاعم .. وجعلوا من قصة زينب بنت جحش واحدة من هذه المفتريات التى أخذوا على عاتقهم استخدامها فى التجريح للرسول صلى الله عليه وسلم وابرازه

للناس في صورة الانسان الأناني الذي لا يعنيه ، غير نفسه يشبع شهوتها ويلبي رغبتها ، ويستجيب لنزوعها وميولها ، أو الرجل البوهيمي الذي ينسى عقله ورشده ، وتفكيره وخلقه ، ومنطقه وأدبه ، وعرضه ودينه ، لينزل على ارادة الغريزة والطبع ، والهوى والميل ، متناسيا الأعراف والتقاليد ، والدساتير والنظم ، والقصة هكذا ـ كما يرويها المؤرخ الشيخ الخضري ـ « وفي العام السادس الهجري كانت غزوة الأحزاب وبني قريظة والمصطلق ٠٠ وقد تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة ، وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم خطبها له فتأفف أهلها لذلك لمكانتها من الشرف ـ الذي لم يتطاول اليه زيد ـ فان العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالي ، ويعتقدون ألا كفء من سواهم لبناتهم، وزيد وان كان الرسول تبناه ولكن هذا لا يلحقه بالأشراف ٠ فلما نزل قوله تعالى « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » لم يروا بدا من القبول ، فلما دخل عليها زيد أرته من كبريائها وعظمتها مالم يتحمله ، فاشتكاها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ فأمره باحتمالها والصبر عليها الى أن ضاقت نفسه ٠ فأخبره بالعزم على طلاقها وكرر ذلك ٠٠ ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضربا من العبث ، أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسما للنزاع من جهة ٠ وحفظا لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم خشي من لوم اليهود والعرب عليه في زواجه بزوج ابنه ، فقال لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله ٠ وأخفى في نفسه ما أبداه الله ، فبت الله حكمه بابطال هذه القاعدة وهي تحريم الزواج من زوجة المتبنى « لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا » ومن هذا الحين صار اسم زيد « زيد بن حارثة » بدل زيد بن محمد ٠٠ ويقول جهال المؤرخين وذوو المقاصد السافلة منهم في هذه القصة أقوالا لا تجوز الا على من ضاع رشده ، ولم يفقده حقيقة ما يقول ، فانهم يذكرون أن الرسول صلى الله عليه وسلم توجه يوما لزيارة زيد فرأى زوجته مصادفة لأن الريح رفعت ثوبها فأظهرت بعض جسمها فوقعت في قلبه فقال سبحان الله ، فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها ٠ فتوجه وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بعزمه على ذلك فنهاه عن ذلك ٠٠ ويكذب هذا أن نساء العرب لم تكن تعرف ستر الوجوه ، وزينب بنت عمته ، وقد أسلمت قديما ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فكيف لم يرها وقد مضى على

اسلامها عشر سنوات وهو الذى زوجها زيدا ، فلو كان له فيها رغبة عن حب أو عشق لتزوجها هو · ولا مانع يمنعه من ذلك ، ومن منا يتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه انه مرسل من ربه ، ويتلو عليهم صباح مساء « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا » ثم هو يدخل بعد ذلك بيتا لرجل من متبعيه وينظر الى زوجته ثم يشتهى زواجها ، ولو حدث أمر مثله من أقل الناس لعيب عليه ، فكيف بمن أجمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقا وأبعدهم عن الدنايا ·· أما الدكتور هيكل فانه يقول « يكفى لهدم هذه القصة من أساسها أن زينب بنت جحش هذه هى ابنة أميمة بنت عبد المطلب ـ عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وأنها ربيت بعينه وعنايته ، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى ، وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مفاتن أم لا قبل أن تتزوج زيدا ، وأنه شهدها فى نموها تحبو من الطفولة الى الشباب ، وأنه هو الذى خطبها لزيد مولام ·· اذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه مر ببيت زيد ولم يكن هو فيه ، ورأى زينب فبهره حسنها وقال سبحان الله مقلب القلوب ، أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار الذى على غرفة زينب فألفاها فى قميصها ممتدة فانقلب قلبه فجأة ·· ولو أن شيئا من حبها علق بقلبه لخطبها لنفسه لا لزيد ، ويثبت التاريخ أيضا أن محمدا خطب ابنة عمته لمولاه زيد فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون قرشية هاشمية ، وهى مع ذلك ابنة عمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن تكون تحت عبد رقيق اشترته خديجة ثم أعتقه محمد ، ورأى فى ذلك على زينب عارا كبيرا ، وكان ذلك عارا كبيرا عند العرب فلم تكن بنات الأشراف ليتزوجن من موال وان أعتقوا ·· لكن محمدا يريد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة فى النفوس على العصبية وحدها · وأن يدرك الناس جميعا أنه لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هى التى تحتمل هذا الخروج على تقاليد العرب ، وهذا الهدم لعاداتها ، مضحية فى ذلك بما يقول الناس عنها ، مما تخشى سماعه ، وليكن زيد مولاه والذى أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق فى أن يرثه كسائر أبنائه هو الذى يتزوجها · فيكون مستعدا للتضحية التى أعدها الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتخذوا أبناء فلما سارت زينب الى زوجها لم يسلس قيادها ولا لان اباؤها ، واشتكى زيد الى النبى ذلك وطلب طلاقها · وقال له النبى أمسك عليك زوجك ، الا أن زيدا لم يطق فطلقها ·· وكان الشارع الحكيم قد أراد أن يبطل ماكانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بانسابهم ، ومن

اعطاء الدعي جميع حقوق الابن .. ولكن كيف السبيل الى تنفيذ هذا . ومن من العرب يستطيعه ، وينقض به تقاليد الأجيال السابقة ، ان محمدا نفسه على قوة عزيمته ، وعميق ادراكه لحكمة الله فى أمره قد وجد على نفسه من الغضاضة فى تنفيذ هذا الحكم ، بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيد اياها ، ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس فى خرقه هذه العادة القديمة المتأصلة فى النفوس ، لكن محمدا كان قدوة فى كل ما أمر الله به، وما طلب منه أن يبلغ رسالته ، فليخش ما يقوله الناس . فذلك لاشىء الى جانب خشية الله بتنفيذ أمره ، وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبنى والادعاء . هذه رواية التاريخ وفى كتب المستشرقين اسفاف كثير من هذه الناحيــة لا نحب أن ننقله ولا أن نسترسل معه ولكننا نود أن نقول انه كلام يتجافى كل المجافاة مع الحقائق المقررة عن عفته صلى الله عليه وسلم وزهده وطهارته وعصمته وماضيه الناصع وسيرته العطرة التى تسامت عن المستوى الترابى الحقير الذى ينزل الناس اليه حينما تتدلى بهم الحيوانية الطائشة . والبهيمية النازلة ، فلا يعنيهم شيء وراء شهوة البطن والفرج .. ونحن نعلم أنه صلى الله عليه وسلم مرت به فترة الشــباب وهو أكمل ما يـكون قوة ، وأنضج ما يكون حيوية ، وأقصى ما يكون جنسا ، وأعظم ما يكون فراغا ، ثم لم يعرف عنه هذا الميل الذى يجعله أســير شــهوته يجرى وراءها ، ويبحث عنها ، وينسى فى سبيلها كرامته وخلقه ، شأن أولئك الذين كانت المرأة تقودهم . وتتحكم فيهم ، وتطغى على سلوكهم ، وتملك عليهم كل شعورهم .. ولقد طلبته خديجة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وهى فى الأربعين ، وسعت اليه دون أن يسعى اليها .. وفى الوقت الذى جرت فيه حوادث قصة زينب لم يكن فى فراغ جنسى حتى يتصور العقل أن يكون عنده هذا الشبق الأهوج ، أو الميل الأحمق فقد كانت تحتــه حفصة الشابة الجميلة فى الثمان عشرة من عمرها ، وعائشــة الصغيرة الغريرة التى كانت تملأ جوانب قلبه كلها ، فأى شيء كانت تزيده زينب التى كانت ميسورة له منذ الطفولة حتى هذه اللحظة المزعومة ، وهى مع ذلك كله ابنة عمته .. لم يبق بعد ذلك كله الا أن تكون المســألة منهجا سماويا خاصا أراد به صاحبه أن ينفذ على شكل لا يحمل على التردد.، ولا يكون شاقا على الناس . ولا يمثل قصته على خشبة المسرح الا أشخاص لا يدخل فى روع المجتمع أنهم من السوقة أو ممن لا يصح أن تكون لهم قيادة الجماعة الانسانية التى يعيشون معها ، ولو أن أصحاب هذا الدور التشريعى الذى أريد به أن يكون انتقالا بالمجتمع من سلوك الى ســلوك كانوا غير الرسول صلى الله عليه وسلم وزيد بن حارثة مولاه وصــفية

وموضع سره وثقته وزينب ابنة عمته لكان لهذه الثورة على هذا الوضع البغيض شأن آخر فى ارتياح الناس لها ، وقبولهم اياها ، وتركهم لها ، واقلاعهم عنها ، ولكن القضاء عليها بهذه الصورة كان حزما فى الأسلوب، وحكمة فى التشريع ، وصـــوابا لا يعدله صواب ، ولهذا فانه لم يثبت أن أحدا قد غضب من أجل أن تنحل منه هذه البنوة المزورة ، أو هذا النسب الملصيق ، أو هذه الوشيجة المكذوبة ، وانما قابلوا هذا الصنيع بالارتياح كل الارتياح « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الا أن الخصومة حين تخرج عن طور العقل ، وأسلوب المنطق ، وسنن الصواب ، تتجاوز معايير السداد والحكمة ، والذوق والأدب والحق والواجب ، والعدل والانصاف ، وتجعل صاحبها عرضة لزراية الناس له ، وعتبهم عليه ، ورميهم له بكل نقيصة . ولهذا كان على العاقل أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره .

الحديبية والرضوان

الى هنا كانت سنوات ست قد مضت على المناوشات الحادة بين قريش ومعها حلفاؤها من العرب والمنافقين واليهود ، وبين النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وكانت قريش الى هذه اللحظة قد أنهكتها الحروب ، وقلمت أظافيرها الهزائم التى لحقت بها ، فلم يعد لديها من سلاح تواجه به محمدا الا الحقد الذى تغلى به مراجلها . وتتأجج به جوانحها ، ونوايا الشر التى تخفيها فى ضمائرها ، حتى لقد جلس أبو سفيان يوما ما من الأيام فى نادى قومه والغيظ يكاد يفيض منه ، فقال ألا رجل يأخذ محمدا على غرة فى مسيره الى السوق ، أو الى دار بعض أصحابه ، أو الى المسجد ، فيضربه ضربة تقضى عليه ، ليريحنا منه ، ومن خطره علينا ، بعد تلك الدماء التى أريقت من قومنا وأهلينا وذوى المكانة فينا ، فتقدم اليه رجل وقال له أنا ذلك الذى تنشده وهنالك أعطاه أبو سفيان من المال والزاد والراحلة ما يعينه على أن يحقق له هذه المهمة . وفى صباح اليوم السادس من هذه الرحلة كان ينحنى على النبى صلى الله عليه وسلم ليضربه بخنجره الذى سقط من يده المرتعشة ، فلم يستطع أن ينال من الرسول مكروها ، ولما وجد أن قدرته قد ذهبت ، وأن خنجره قد هوى ، وأن قلبه قد امتلأ بالفزع والرعب ، وأن رجليه لاتحملانه ، وأن الأرض موشكة أن تبتلعه . وأن أسيد بن الحضير يجذبه جذبة تنخلع لها نفسه ، أعلن ندمه لما بدر منه ، وأسفه لما أقدم عليه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أصدقنى حديثك ، وخبرنى خبرك ، فلم يخف الرجل عنه شيئا ، وأنبأه أنه موفد من قبل أبى سفيان الذى أمده بالمال والزاد والراحلة ليقتله ، وأنه يعترف له صلى الله عليه وسلم

أن أبا سفيان وقومه على الباطل ، وأن الرسول على الحق ، وقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم رجلين من أصحابه ليقتلا معـــا أبا ســفيان هما عمرو بن أمية الضمرى وكان من فتاك العرب فى الجاهلية ، رسلم بن أسلم ، وقد عرف أبو سفيان عمرا وهو يطوف بالبيت فاستعدى عليه أهل مكة فهرب هو وصاحبه ، وقتل فى طريقه وهو فار رجلا من تيم ، ورجلا من بنى الديل ، ولقى آخرين بعثتهما قريش يتجسســـان على محمـــد وأصحابه فقتل أحدهما وعاد بالآخر أسيرا الى المدينة ، وكأن الله سبحانه وتعالى قد أراد أن يبقى أبو سفيان على قيد الحياة حتى يسلم بيديه مفتاح الكعبة لمحمد صلى الله عليه وســـلم فيما بعـد لتذهب كبرياؤه وتذوب غطرسته ٠

ولم تكن هذه السنوات الست بالأمـر الهين اليســـير على نفوس المسلمين الذين فارقوا البيت الحـرام ومكة التى تضـــم أهليهـم وذوى قرابتهم واخوانهم ، بل لم يكن النبى صلى الله عليه وســـلم أكثر منهم جلدا ، وأقوى احتمالا ، أو أقل شوقا الى أن يجد نفسه وقد مكنه الله من الأرض العزيزة عليه ، ومن البيت الحبيب اليه ، حتى لقد بلغ من حنينه وشوقه ، وشدة تعلقه بهذا المكان الذى بزغت شمســه قبـــل أن تطلع الشمس ٠ وتنشر ضياءها على هذه الدنيا ، أن رأى فى منامه صلى الله عليه وسلم أنه دخل مكة ، ولم يكد يذيع فى أصـحابه ذلك النبـــأ ٠ ويبشرهم أنه سبحانه سوف يحقق لهم هذا الحلم « لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوســكم ومقصرين » حتى وثبت أفئدتهم من بين الضلوع تطوف بالبيت ، وتتملى بنوره ، وتملأ خياشيمها من رائحته ، ثم ظلوا يتحينون الفرصة ، ويترقبون الوقت ، ويرجون أن يحقق الله لهم تلك الأمنية الحبيبة ، الا أنهم كانوا على يقين أن قريشا لا تفتح لهم أبواب مكة يطوفون بالبيت الحرام عن رضا نفس ، وطيب خاطر ، وسوف تصدهم صدا ، اذا علمت أنهم سيدخلونها عليهم بحكم السيف ، وسلطان الحرب ، وقد كانت قريش لاتفكر فى حرب محمد صلى الله عليه وسلم لأنها لا تزال تعانى من حروبها الماضية ، وتقاسى مما جرته عليها من وبال فى العتاد والرجال ، وكذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم لايرغب فى حربها ، ولا يميل لمناوشتها ، ولا يهيىء نفسه لمواجهتها ، الا أنه كان مع ذلك كله ينتظر أن يحقق الله له وعده الذى وعده به ، والذى لا يشك فى أنه منجزه اياه ، وكان يرجو أن يصل الى غرضـــه باللين والرفق ، والسياسة والحكمة ، والكياسة والحزم ٠ ويقول الدكتور هيكل « انهم لمجتمعون بالمسجد ذات صـــباح اذا أنبأهم النبى بمـــا ألهم فى رؤياه

الصادقة ، ذلك أنهم سيدخلون المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون فما كاد القوم يستمعون الى رؤيا رسول الله حتى علا بحمد الله صوتهم ، وحتى انتقل نبأ هذه الرؤيا الى سائر أنحاء المدينة فى سرعة البرق الخاطف ، ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام ، أيحاربون فى سبيله ، أيجلون قريشا عنوة عنه ، أم تفتح قريش طريقه صاغرة مذعنة ·

اذن محمد فى الناس بالحج ، وطلب الى القبائل من غير المسلمين الخروج معه ، فأبطأ عليه كثير من الأعراب ، وخرج فى أول ذى القعدة أحد الأشهر الحرم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب يتقدمهم على ناقته القصواء ، وكان عدد الذين خرجوا ألفا ونصفا ، وساق معه الهدى وسبعين بدنة ، وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لا يريد قتالا ، فلما بلغ ذا الحليفة عقص الناس الرؤوس ، ولبوا بالحج ، وعزلوا الهدى ، ومن بينها بعير أبى جهل الذى أخذوه فى بدر · ولم يحمل أحد سلاحا الا ما يحمله المسافر من سيف مغمد ، وبلغ قريشا أمر محمد فامتلأت بالمخاوف ، وجعلوا يقلبون هذا الأمر على وجوهه حتى لقد حسبوه حيلة أراد بها محمد أن يحتال لدخوله مكة ، ولم يثنهم ما علموا من احرام خصومهم بالعمرة ، واذاعتهم فى أنحاء الجزيرة أنهم لا تحركهم الا العاطفة الدينية عن أن يقرروا الحيلولة دون محمد ودخول مكة بالغا ما بلغ ذلك الثمن الذى يدفعونه ·· لذلك عقدوا لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه مايتين وعسكر بذى طوى ليحول بين محمد وأم القرى ·· أما محمد فانه تابع مسيرته حتى اذا كان بعسفان لقيه رجل فسأله عن قريش ، فقال له لقد سمعت بمسيرتك فخرجوا وقد لبسوا جلد النمور يعاهدون الله تعالى لا تدخلها عليهم أبدا ، فقال صلى الله عليه وسلم يا ويح قريش لقد أهلكتهم الحرب · ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة ، ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع ، انه لم يخرج من المدينة غازيا ، وانما خرج محرما يريد بيت الله ، يؤدى عنده فرض الله ، وهو لم يتخذ للحرب عدتها ، فلعله ان حارب فلم ينتصر جعلت قريش من ذلك موضع فخارها ، بل لعلها أوفدت ابن الوليد وعكرمة قصد ادراك هذه البغية حين علمت أنه لم يخرج مقاتلا ·· وفيما كان محمد يفكر كانت فرسان مكة تبدو على مرمى النظر ، يدل مرآها على انه لا سبيل للمسلمين الى درك غايتهم الا أن يقتحموا هذه الصفوف

اقتحاما ، وأن تدور معركة تقف فيها قريش مدافعة عن كرامتها وعن شرفها وعن وطنها ، معركة لم يردها محمد وانما حملتـــه قريش عليها حملا ، وألزمته خوض غمارها الزاما ، ان المسلمين ممن معه لا تنقصهم الحمية لكنه لايريد الحرب لذلك سلك طريقا لا يلتقى منه بقريش لكن قريشا حين رأوا ما صنع محمد ركضوا راجعين ليقفوا مدافعين عن مكة اذ ادهمهـــا المسلمون ، ولما بلغ المسلمون الحديبية بركت ناقة النبى صلى الله عليه وسلم فقال قائل خلأت القصواء فقال النبى ماخلأت وانما حبسها حابس الفيل والله لا تدعونى قريش الى خطة يسألوننى فيهـــا صـــلة الرحـم الا أعطيتهـــم اياها • ثم دعـا الناس الى النزول فقالوا يارســـول الله ما بالوادى ماء ننزل عليه فأخرج سهما من كنانته وأعطاه رجلا فنزل به الى بئر من الآبار المنثورة فى تلك الأنحاء فغرزه فى الرمال فى قاع البئر فجاش الماء فاطمأن الناس ونزلوا •• ولكن قريشا كانت لهم بالمرصـاد فهل يعدون لها عدة النزال والحرب • وقف المعسكران يفكران فى الخطة التى تتبع ، أما محمد فانه لايزال على خطته فى السلم والجنوح اليه الى أن تهاجمه قريش أو تغدر به ، وهنالك لا يبقى مفر من تحكيم السيف ، وأما قريش فانها ترددت ثم فكرت فى أن توفد اليه من رجالها من يتعرف قوته ويصده عن دخول مكة ، وجاءه بديل بن ورقاء فى رجال من خزاعة يسألونه ما الذى جاء به ، فلما اقتنعوا بأنه لم يأت محـــاربا رجعوا الى قومهم ليبلغوهم ذلك لكنهم لم يصدقوا ، وبعثوا رجلا من بنى عامر فعاد بمثل ما عاد به بديل فلم يصـدقوه كذلك • فبعثوا سـيد الأحابيش الحليس بن علقمة ، فلما رآه النبى مقبلا أمر بالهدى أن تطلق أمامه لتكون تحت نظره دليلا على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم انما جاؤا معتمرين معظمين للبيت الحرام • فأيقن الحليس أن قريشا ظالمة وعاد اليها ليقول لها سبحان الله ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا ، أتحج لخـم وجذام وحمير ، ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب ، هلكت قريش ورب الكعبة • فاسترضوه وطلبوا اليه أن ينظرهم ، وأرسلو عروة بن مسعود الثقفى فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء معاملتهم لمن سبقه من رسلهم فأكدوا له أنه عندهم غير متهم •• وقد خرج الى محمد وذكـر له أن مكة بيضته • وأنه ان نالها بهؤلاء الأوشاب ، كان ذلك العار الخالد ، وكان عروة أثناء الحديث يتناول لحية الرسول ، وكان المغيرة بن شعبة يضرب يده ، ورجع عروة الى قريش فقال لهم ما رأيت ملكا علا فى قومه قط مثل محمد وأصحابه ، وانهم لم يسلموه لشىء أبدا ، فروا رأيكم •• وطالت المحادثات على هذا النحو فرأى النبى صلى الله عليه وسلم أن يرسل من جانبه رسولا يبلغهم رأيه ، لكنهم عقروا جمل هذا الرسول وأرادوا قتـــله لولا أن منعتهم

الأحابيش وهددوا بالوقوف فى وجههم وهنالك خلوا سبيله وعاد الى معسكر المسلمين ، ثم خرج جماعة من سفهاء مكة ــ أربعون أو خمسون ــ يريدون العبث بالمسلمين فأخذوا أخذا وجيء بهم الى النبى صلى الله عليه وسلم فأطلق وثاقهم وعفا عنهم ٠٠ وقد أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يمتحن صبر قريش مرة أخرى فدعا عمر بن الخطاب ليذهب اليهم فاعتذر بأنه ليس له هنالك من ينصره ويحميه من عدوانهم اذا أرادوا الاعتداء اليه ، وقال للنبى ان عثمان أعز بها منى ، فخرج عثمان ولقيه أبان بن سعيد فأجاره ، وأبلغهم رسالته ، فلم يأبهوا به ، ولكنهم أذنوا له فى دخول البيت والطواف به فأبى الا أن يكون مع محمد ، وأجابت قريش بأنها أقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة ، وطال احتباس عثمان هنالك وترامى الى المسلمين أنهم قتلوه غدرا ، ودخل فى روع النبى أن قريشا قتلت عثمان ، فقال لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا أصحابه ووقف تحت شجرة فى هذا الوادى فبايعوه جميعا على الا يفروا حتى الموت ، وكلهم حماسة للانتقام ممن غدر وقتل عثمان ، وهى بيعة الرضوان التى نزل فيها قوله تعالى فى سورة الفتح « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » وبهذه البيعة اهتزت السيوف فى أغمادها ، وتبدى للمسلمين أن الحرب آتية لاريب فيها ، وجعل كل ينتظر يوم الظفر أو يوم الاستشهاد ٠٠ ولم يطل بهم الوقت حتى جاء عثمان ليخبرهم بما قالت قريش واتصل الحديث وعادت المفاوضات مرة أخرى وأوفدت قريش سهيل بن عمرو وقالوا له ، أئت محمدا وصالحه على أن يرجع ليعود فى العام المقبل ٠٠ والى هنا ينتهى جانب من قصة هذا الصراع الذى تسميه كتب التاريخ والسيرة بغزوة الحديبية ، والجانب الآخر منها يتمثل فى الموقف الذى وقفه سهيل بن عمرو المفوض الرسمى من قبل قريش فى ابرام المعاهدة بينها وبين محمد ، وقد كان فيها من الطرافة الكثير ، اذ يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم كاتبه على بن أبى طالب أن يفتتح بالبسملة فيأبى سهيل الا أن يقول باسمك اللهم التى تعودها الناس قبل الاسلام ، ويملى عليه هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله فلا يرضى بذلك سهيل ويقول لو آمنا بك رسولا ما كان بيننا وبينك خلاف ، وانما أنت محمد بن عبد الله ، ويستجيب الرسول لذلك ويأمر عليا أن يكتب كما يملى سهيل ، وتنتهى المعاهدة بعد لأى وأخذ ورد الى تلك النصوص الأربعة ٠

الأول : أن يرجع محمد وأصحابه عن دخول مكة هذا العام على أن يعود فى العام المقبل ليطوف بالبيت ويبقى بمكة ثلاثة أيام ٠

الثاني : أن تعقد بينهما هدنة عدم اعتداء الى مدى عشر سـنوات أو أربع فى بعض الروايات يأمن فيها كل من الطرفين صاحبه .

الثالث : أنه من أراد أن يدخل فى حلف جانب من الجانبين دخل ، ويجرى على الحليف ما يجرى على حليفه من صون حرماته وعدم الاعتداء عليـه ..

الرابع : أن من جاء الى محمد من أهل مكة رده ولو كان مسلما ومن جاء اليهم لا يردونه .

وكان هذا الشرط الأخير هو مشكلة المشاكل لأن كثيرا من المسلمين الذين كانوا يعذبون بمكة جاؤا الى النبى هربا من ذلك الجحيم الذى كانوا يعيشون فيه هنالك فردهم بحكم الوفاء بالعهـد . ولم يجف مداد هذه المعاهدة ، وسهيل لا يزال فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم حتى جاء يرسف فى قيده أبو جندل بن سـهيل بن عمرو هذا فضربه أبوه سهيل وجعل يرده ليرجع معه ، وجعل أبو جنـدل يصرخ وهو يقول يا معشر المسـلمين أأرد الى المشركين وأفتن فى دينى . والنبى يقول له صبرا يا أبا جندل واحتسب فانا لا نغدر ، وان الله جاعل لك ولمن معـك من المستضعفين مخرجا .. ووفد كذلك من مكة الى المدينة أبو بصير فأرسل اليه سيده رجلين ليأخذاه من النبى فلما سلمه اليهما قال له يا رسول الله أتردنى الى المشركين فقال له نحن لا نغدر .. وفى الطريق قتل أبو بصير أحد الرجلين وفر منه الآخر ، وذهب أبو بصـير حتى نزل العيص على ساحل البحر وهو طريق قريش التجارى ، وكان عهد محمد وقريش أن يظل هذا الطريق آمنا . فلما ذهب أبو بصير الى هنالك وسـمع اخوانه بمكة هربوا اليه وجعلوا واياه يقطعون الطريق على قريش ، ويظفرون بكل ما يمر بهم من قوافل . وبذلك أحست قريش بالخطر الذى يتهددها من جراء وجود هذا الشرط فى معاهدة الصلح التى أبرمها محمد معهم ، فذهبوا الى محمد يرجونه أن يعتبر هذا الشرط لاغيا ، وأن يقبل كل من يفر اليه من أهل مكة حتى لا يزداد خطر أبى بصير وعصابته على قوافل تجارتهم التى تمر الى الشام أو تجىء منه ، وهكذا أثبتت الأيام بعد نظر النبى صلى الله عليه وسلم . وأنه لم يكن يأخذ بهذا الشرط الأخير الذى كان مثار اعتراض وسخط عن ضعف منه ، أو عدم بصر بالأمور ، وادراك لعواقبها ، وانما كانت سياسة رشيدة ، ونظرا بعيدا ، وكياسة حازمة ، مهدت له أن يوجه سـياسته من مركز القوة ، وأن يبعث برسـالته الى الملوك والرؤساء وهو مطمئن الى أنه لا يواجه تكتل خصوم ، ولا احتشاد

أعداء ، ولا كيد جماعات لها نفوذ أو سلطان وقد كانت هذه الفترة بالذات فترة تمكن الدولة الاسلامية ، وصلابة عودها ، وارتفاع رايتها ، لأن المعاهدات انما تكون بين قوتين متعادلتين ، وهذا يعنى أن قريشا قد أصبحت ـ من جديد ـ تحسب حساب محمد كأنه ند لها تخاف بأسه ، وتتقى غضبه ، وبهذا يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد اطمأن الى وضعه اطمئنانا يساعده على ألا يتهيب قوة ، أو يخشى جبروتا ، أو يرهب طغيانا ، ولذلك فان الخطوة التى تحرك بها بعد صلح الحديبية فى القضاء على فلول اليهود التى كانت فى خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى دلت على أنه ما كان ليقدم على هذا الصنيع الذى صنعه لو لم تكن الأرض من تحت قدميه مطمئنة ثابتة ، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يؤيده ربه بالوحى ، ويلهمه بالسداد ، ويوجهه الى الحق ويؤيده بالتوفيق ، ولا يتخلى عنه فى صحو ولا نوم ، ولا حركة أو سكون ، وانما كان معه دائما أبدا يأخذ بيده الى التى هى أقوم ..

بعد الحديبية

كان صلح الحديبية بمثابة أعلام النصر فى الطريق أمام محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بهذا الصلح قد صار بمأمن من المؤامرات والخيانات والغدر والتحرش من هنا وهناك ، لأن عداوته كانت متمثلة فى معسكرين قويين يخشى بأسهما · ويخاف مما يعدانه له من كيد وخصومة ، هذان المعسكران هما قريش واليهود ·· أما قريش فانها أصبحت قريرة العين مطمئنة كل الاطمئنان بهذه المعاهدة التى حقنت دماءها ، وأبقت على شبابها ، وكبار القادة منها ، وجعلتها آمنة على تجارتها التى هى شريان حياتها ، ومورد زرقها ، ومصدر ثروتها ·· وأما اليهود فاننا نعلم كيف ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخذهم بالشدة ، وعاملهم بالعنف ، وأشاع فى نفوسهم الذعر والخوف ، وأشعرهم بالذلة التى تليق بهم ، وتمتزج بدمائهم ، وتكون الجزء المهم فى حقيقتهم ، ولم تكن لهم قوة يعتمدون عليها بعد ذلك كله الا فى خيبر والفلول الأخرى التى فرت اليها ، واختارت البقاء الى جوارها ، وقد مر بنا الحديث عنهم تحت عنوان « اليهود فى الطريق » ولسنا بحاجة الى تكرار ذلك مرة أخرى ، الا أن لكل شيء اذا ما تم نقصانا — كما يقول الشاعر الأندلسى — فان المنافقين لا يزالون على المسرح يمثلون دورهم الحقير فى خذلان الدعوة ، واشاعة عوامل الهزيمة ·· ويقول الشيخ عبد المتعال الصعيدى « فلما عقد ذلك الصلح بين المسلمين وقريش هدأ المنافقون لأن قريشا انصرفت عن الحرب الى السلم ، وأخذت تشتغل بأمور تجارتها التى عطلتها الحرب ، لتستعيد ما فقدته من أموال ، وتخرج من الضائقة المالية الشديدة التى وقعت فيها باستمرارها فى الحرب تلك السنين الخمس · وانقطاع تجارتها فيها الى الشام ، وهى أهم مواردها المالية ،

فانقطعت بهذا صلتها بالمنافقين ، ولم تعد محتاجة الى تجسسهم لهـا ، ولا الى ما يدبرونه لها من فتن ومؤامرات ، فسكتوا عما كانوا يدبرونه من قبل • لأنهم كانوا آلات فى يد قريش • لا يتحركون الا اذا حركتهم ، ولا يمكن أن يقدموا على شىء من أنفسهم •• ويقول الأستاذ أحمد ابراهيم الشريف « لقد كان يعادى محمدا قوتان كبيرتان تلتف حولهما كل القوى فى شبه جزيرة العرب •• فأما القوة الأولى فهى قوة قريش فى مكة • بما لها من نفوذ أدبى ومادى •• واما القوة الثانية فهى قوة اليهود بما لهم من علم وذكاء ، وقدرة على الدس والوقيعة ، وقد اتحدت مصالح القوتين على حربه والقضاء عليه ، وقد استطاع محمد أن يثبت أمام القوتين ، وأن يخرج من حربه معهما مجتمعين قويا • حتى لقد أصبح زمام المبادأة فى يده ، وقد استطاع ببعد نظره ، وحسن سياسته ، وما أظهره من مرونة وكياسة أن يعقد مع قريش عهد الحديبية فأمن به قريشا وأمن الجنوب كله ، لكنه لم يأمن ناحية الشمال ، حيث تجمعت فلول اليهود فى خيبر ، وأخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم ومن يهود وادى القرى وتيماء لغزو يثرب ، واذا كانوا قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل فى غزوة الخندق ، فليس ببعيد عليهم ولا ممتنع أن يستعينوا بقبائل الشمال ، أو أن يستعينوا بقوى خارجية فارسية أو رومية لضرب المسلمين ضربة ساحقة نهائية ، واليهود أشد من قريش عداوة لمحمد ، لأنهم أحرص على دينهم من قريش • ولأن فيهم علما ومكرا أكبر مما فى قريش ، وليس من اليسير أن يوادعهم بصلح كصلح الحديبية ، ولا أن يطمئن اليهم • وقد سبقت بينهـم وبينه خصومات لم ينتصروا فى احداها • فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم اذا وجدوا فرصة مناسبة ، أو اسـتطاعوا أن يجدوا لهـم مددا من قوى خارجية ، واذن فلابد من القضاء على قوة هؤلاء اليهود قضـاء أخيرا • حتى لاتقوم لهم من بعد ببلاد العرب قائمة أبدا ، وكذلك فعل فانه لم يقم بالمدينة بعد عودته من الحديبية الا خمس عشرة ليلة حتى أمر الناس بالتجهيز لغزوة خيبر ، على ألا يغزو معه الا من شهد الحديبيـة • وقد حرص محمد على ذلك حتى لا يكون معه أحد غير مطمئن الى قوة نفسه ، وسمو روحه ، وبعد تفكير عن الكسب المادى ، ومحمد لايريد أن يضم الى صفوفه مثل هؤلاء الناس من طلاب الغنائم ، وكانت جموع اليهود فى خيبر من أقوى الطوائف الاسرائيلية بأسـا ، وأوفرها مالا ، وأكثرها سلاحا ، وأعظمها دربة على القتال ، لذلك وقفت شبه جزيرة العـرب كلها متطلعة الى هذه الغزوة ، حتى لقـد كان من قريش من يتراهنـون على نتائجها ، ولمن يتم له الغلب فيها • وكان كثيرون يتوقعون أن تدور

الدائرة على المسلمين ، لما عرف من قوة حصون خيبر ، وقيامهـا فوق الصخور والجبال ، ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال . وكان المسلمون يدركون تمام الادراك ، ويقدرون نتائجه حق التقدير ، لذلك ذهبـوا مستقتلين لا يعرف التردد سبيلا الى نفوسهم وكان النبى يدرك كذلك قيمة هذا الموقف ، ويقدر أنه لو فشل أمام خيبر . فسيتغير ميزان القوى الى غير صالحه ، وربما حدثت نكسة أعادت الى أعدائه قوتهم وحماستهم لقتاله والهجوم عليه .. ثم انه كان يدرك أنه ما بقيت لليهود شوكة فى شبه جزيرة العرب فستظل المنافسة بين دين موسى والدين الجديد حائلا دون تمام الغلب له وحائلا دون تمام الوحدة التى يعمـل لهـا ، والتى يسعى لاقرارها حتى يتم تكوين الأمة التى يريدها نواة لمجتمع انسانى فاضل تحت لواء الاسلام ، وبانتهاء سلطان اليهود خفت حدة البغضـاء التى كانت فى صدور خصوم المسلمين لهم . وتغير الموقف نهائيـا فى جزيرة العرب لصالح المسلمين .. وهكذا كان صلح الحديبية فتحا مبينا أتاح للنبى صلى الله عليه وسلم فرصة احكام خطتـه ، وبدا بوضـوح لأصحابه أنه الرجل العبقرى الفذ الذى اكتملت له بصـيرة القلب الى جانب تأييد السماء » .. ولهذا كان سلوكه حزما ، ونهجه حكمـة ، وتصرفه صوابا ، وعمله سدادا ، ورأيه توفيقـا ، يؤيـده الوحى ، وتؤازره عناية الله ، وهذه هى عقيدة المسلم التى لا يتحول عنهـا ، ولا يرتاب فيها ، ولقد كان وقوفه صـلى الله عليه وسـلم لهذه القوى الجبارة . أو العصابات الفاجرة ، دليلا على أنه لا يقف وحده ، وانما كانت معه ارادة الله التى هى السلاح الذى لا يفل ، والجيش الذى لا يغلب ، ولولا ثقته بهذا الجانب المتين الذى كان ظهره اليه ، واعتماده عليـه . لخانته الأسباب ، وتخلى عنه الصواب ، وكان له تاريخ آخـر غير هذا التاريخ وقد كان لأصحابه فى تلك الأدوار البطولية مواقف رائعة ، وجهد مشكور ، حتى فى غير ميدان الكر والفـر ، وهو ما نسـميه نحن الآن بالحرب النفسية ، كما فعل نعيم بن مسعود فى السـفارة بين قريش وبين بنى قريظة فى غزوة الأحزاب ، وهى السفارة التى كانت سببا فى فقدان الثقة بينهما فقـدانا كان له أثـره البـارز فى هزيمة الأحزاب وانصرافها بالخزى والخيبة ، أو بعبارة أدق فى فشل التجمع الذى أرادت الأحزاب من ورائه الدخول الى المدينة ، والقضاء على محمد وأصحابه حتى لا تقوم له قائمة الى الأبد ، وما كانوا يظنون أنه على الباغى تدور الدوائر ، وليس أكثر من هذا الرعب الذى ملأ قلوبهم . والفزع الذى تحطمت به نفوسهم ، الى درجة أنهم وصل بهم الحال أن يتصوروا الخوف فى كل شىء .. وقد حدث أن النبى صلى الله عليه وسلم لما انتهى العـام الذى

تضمنته المعاهدة ، وخرج مع أصحابه يريد دخول مكة ليقضى العمرة التى ساق لها الهدى فى عامه السابق ، وعلمت قريش بقدومه أخذها الهلع وظنت أنه صلى الله عليه وسلم سيغدر بها ، ويغزوها فى عقر دارها ٠٠ وربما كان سوء الظن الذى يملأ نفوسهم سببا فى أن يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه فى طوافهم بالبيت أن يظهروا من النشاط والحركة ما يعلن عن القوة ، ويوحى بسلامة الأبدان ، ووفرة الصحة والعافية ، لتمتلىء نفوسهم بالرعب والخوف ، فقد روى أنه لما دخل المسجد اضطجع بردائه ، وأخرج عضده اليمنى وقال « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » وكان عدد المسلمين فى هذه العمرة ألفين كانوا فى نشاطهم وطوافهم وقوة تحركهم يمثلون الهول الطارق الذى زلزلت معه أفئدة قريش ٠٠ وقد علا بلال ظهر الكعبة وأذن للصلاة ، وكان هذا المنظر الرائع الذى يملأ قلوب المسلمين بالثقة والاعتزاز مغريا لعبد الله بن رواحة أن يقذف فى وجه قريش بصيحة الحرب لولا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له مهلا يابن رواحة ، وقل لا اله الا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وخذل الأحزاب وحده ، فنادى بها ابن رواحة رافعا صوته ، ورددها المسلمون بعده ، فتجاوبت بأصدائها جوانب مكة ، وارتفعت رهبتها الى قلوب الذين كانوا بالجبال هربا من هذا المشهد الذى كان يثير فى نفوسهم الحقد والكراهية ، وكانت أم الفضل زوجة العباس ابن عبد المطلب قد قدمت أختها ميمونة التى أحبت الاسلام وآمنت به ، ورغبت الى النبى صلى الله عليه وسلم أن يتزوج بها ، كما رغب عمه العباس كذلك ، وأثنى عليها بما يميل قلبه صلى الله عليه وسلم نحوها ٠ فلما تقدم اليه صلى الله عليه وسلم سهيل بن عمرو صاحب المعاهدة أن يغادر مكة بعد الأيام الثلاثة قال له ماذا عليكم لو أعرسنا بينكم وأولمنا وأشركناكم معنا فى طعام ، فقال له لا حاجة لنا بطعامكم ٠٠ الا أن هذه الأيام الثلاثة التى أقامها صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه بمكة كانت نموذجا طيبا للسلوك القويم ، والخلق الكريم ، والأدب الرفيع ، والمعاشرة الحسنة ، حملت كثيرا من العقلاء أن يعلنوا دخولهم فى دين محمد ، حتى لقد وقف خالد بن الوليد فارس قريش ، وأحد أبطالها المغاوير ينادى فى بطن مكة قائلا « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس بشاعر ولا ساحر وأن كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذى لب أن يتبعه ، وأسلم باسلام خالد عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وكثيرون غيرهم وكان لاسلام هؤلاء جميعا الأثر البارز فى أن مكة أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الفتح الأكبر الذى تدك فيه معالم الشرك ، وحصون الكفر ، وتتهاوى فيه الأصنام على وجوهها ،

ويصبح من المألوف الى حد بعيد أن تكون هنالك عقيدة عنوانهـا « لا اله الا الله محمد رسول الله » ولهذا كان المسلمون مطمئنين كل الاطمئنان الى أن الزمن في صالحهم ، وأن ساعة النصر مقبلة لا محالة ، وأن المعاهدة القائمة بينهم وبين قريش اذا كانت تجعل الهدنة طويلة المدى تحتم على الطرفين أن يتجمد موقفهما فلا يدخل محمد مكة ولا تحدثه نفسه بهـا فان الأذهان قد تفتحت لدعوته ، والقلوب قد تهيأت للاصغاء اليـــه ، واستجابة الناس له أصبحت من أيسر الأمور ، ورجحان كفتـه صـــار مما لا شك فيـه ، ولا يكون له في الأيـام المقبلة الا ما يرضى خاطره ، ويطمئن فؤاده ٠

حديث أبي سفيان

بعد رجوع المسلمين من الحديبية في أواخر السنة السادسة كان همه صلى الله عليه وسلم أن ينتقل بدعوته الى خارج نطاق الجزيرة العربية في الروم وفارس ومصر وغيرها من البلاد النائية عنه ، وكان من هؤلاء الكثيرين الذى كتب اليهم يدعوهم بدعاية الاسلام ملك الروم ، وكان نص الخطاب الذى أرسله اليه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فانما عليك اثم الأريسيين ـ الفلاحين ـ ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .. ولما وصل الكتاب الى قيصر ملك الروم هذا أراد أن يتقصى الحقيقة وأن يتأكد من المصير الذى يمكن أن يصير اليه حتى اذا ما استجاب للداعي ، ودخل في هذا الدين ، واختط لنفسه طريقا جديدا ، كان قويما سليما لا غبار عليه ، ولا التواء فيه ، وهذا هو الشأن في الرجل الذى تتفتح نفسه للحق ، وقلبه للنور ، وروحه للهداية ، حينما يتجه للصواب ، ويرحب بالخير ، وينظر الى معالم الطريق الذى يسلكه ، ولقد قال هذا الرجل لمن حوله « انظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه ، وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة ، فجاءت رسل قيصر لأبي سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ، ولما قدموا عليه في القدس ، قال لترجمانه .. سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟ فقال له أبو سفيان أنا ، لأنه لم يكن في الركب من بني عبد مناف غيره .. فقال

قيصر ادن منى ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره . ثم قال لترجمانه قل لأصحابه انما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، وقد جعلتكم خلفه ، كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه اذا كذب ، ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم . قال هو فينا ذو نسب ، قال هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله ، قال لا .. قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، قال لا ، قال فهل كان من آبائه من ملك قال لا .. قال فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، قال بل ضعفاؤهم ، قال فهل يزيدون أم ينقصون ، قال بل يزيدون ، قال هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ، قال لا ، قال هل يغدر اذا عاهد ، قال لا ، ونحن الآن منه فى ذمة لاندرى ماهو فاعل فيها .. قال فهل قاتلتموه ، قال نعم ، قال فكيف حربكم وحربه ، قال الحرب بيننا وبينه سجال ، مرة لنا ومرة علينا ، قال فبم يأمركم ، قال يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .. فقال انى سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب من قومها .. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فزعمت أن لا ، فلو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا ، فقلت ما كان ليذر الكذب على النـاس ويكذب على الله ، وسـألتك هل كان من آبائه من ملك ، فقلت لا ، فلو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، فقلت ضعفاؤهم ، وهم أتبـاع الرسل ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ، فقلت بل يزيدون ، وكذلك الايمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه فقلت لا ، وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل قاتلتموه فقلت نعم وان الحرب بيننا وبينه سجال ، وكذلك الرســل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة ، وسألتك بماذا يأمر ، فزعمت أنه يأمر بالصــلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، فعلمت أنه نبى ، وقد علمت أنه مبعوث اليكم ، ولم أظن أنه منهم فيكم ، وان كان ما كلمتنى به حقا فسيملك موضـع قدمى هاتين ، ولو أعلم أنى أخلص اليه لتكلفت ذلك .. قال أبو سفيان فعلت أصوات الذين عنده ، وكثر لغطهم فلا أدرى ما قالوه ، وأمر بنـا فأخرجنا .. فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر ، ولما سار قيصر الى حمص أذن لعظماء الروم فى دسكرة له ، ثم أمر بأبوابها أن تغلق ، ثم قال يا معشر الروم

هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم ، فتبايعوا هذا النبى ، فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر نفرتهم قال ردوهم على ، فقال لهم انى قلت مقالتى لأختبر بها شدتكم على دينكم ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فغلبه حب ملكه على الاسلام فذهب باثمه واثم رعيته كما قال عليه الصلاةوالسلام •• وهذه وثيقة تاريخية لها تقديرها واحترامها فى تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم لأنها تنطوى فى حوارها وجدلها على السيرة العطرة التى يعتز بها المسلمون اذا ذكرت النبوات والرسالات ، فقد كانت هذه الأسئلة التى وجهها قيصر فى صميم الدعوة والدعاة الى درجة أنها تصلح لأن تكون دستورا ، أو بمعنى أصح ميزانا توزن به أعمال الرجال الذين يتصدون لقيادة الجماهير ، وتوجيه الانسانية ، وانقاذ المتورطين فى سلوكهم، أو المتخبطين فى سيرهم ، ومن هذا الدستور أو الميزان نعرف ان كان الداعى من هؤلاء الذين ينشدون المجد ، ويطلبون الملك ، ويرجون السيادة على الناس ؛ أم انه من أولئك الذين يحملون المصابيح ، ويجعلون من أنفسهم زيتا لها ليضيئو للبشرية سبيل الخير ، وطريق البر ، ويأخذوا بأيديها الى حيث يكون النجاح والفلاح والفوز والنجاة دون أن يترقبوا على ذلك كله أجرا الا رحمة الله الذى له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم •

ونحن ننظر الى هذه الوثيقة من ناحيتين اثنتين ، ناحية أشخاصها الذين أداروا دفة هذا الحوار ، وناحية الحوار نفسه •• أما الحوار فهو ـ كما رأينا ـ لم يترك شبهة تمر بالخاطر ، ولا سؤالا يجول بالذهن ، ولا اعتراضا يمكن أن يطرأ على بال أحد ، الا أشبعه بحثا ، وناقشه من جميع جوانبه وجعل الجواب عنه مسلما لبداءة العقول ، لتصبح النتيجة المترتبة عليه ضرورية لا مفر من التزامها ، ولا ريب فى ترتيبها عليها ، كما تترتب النتيجة على المقدمات فى قانون المنطق السليم ، الا أن رجوع قيصر كان لعمى بصيرته التى غلب عليها حب الفانية على الباقية ، والدنيا على الدين ، والشيطان على الرحمان •• وانحرافه عن السنن ، والتواثه عن القصد ، ولا يطعن فى صحة المقدمات ، وسلامة الترتيب والترتب ، لأن الاعتبارات الأخرى كانت حجر عثرة بين الحق والواجب •

وأما الأشخاص الذين أداروا الحوار • ومثلوا هذا المنطق • فهما أبو سفيان وقيصر ، وكلاهما لايمكن أن يحابى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أن يحابى دينه كذلك • ولهذا كان لرأى كل منهما ميزانه بين الآراء •• وقد كان أبو سفيان من أساطين الكفر ، وكبار المعارضين للدعوة وصاحبها ، وكان يعنيه الى حد كبير أن يقول كلمة مدخولة ، أو رأيا مغموزا ، أو حكما جائرا ، يرسله مثل الصاروخ الموجه لينال به من

محمد أو من أصحابه أو من دينه الذى هز به الدنيا وزلزل به حصون الشرك والطغيان • ولكنه آثر الجانب الذى يتناسب مع رجولته الضخمة • وعروبته الأصيلة ، وبسالته الفذة ، وعقله الكبير ، وشرفه العظيم ، ونسبه النبيل ، ومكانته فى قومه والقاضى أو الشاهد اذا ما تنبه لشرفه فى قومه ، ومركزه فى أهله ، ومكانته فى البيئة التى يعيش فيها ، لم يذكر شيئا فى هذا الوقت الا أن يكون صادق القول • عادل الحكم ، لا تحيط به ريبة ، ولا يعلق بعرضه دنس ، ولا تحل بساحته تهمة ، لأن ذلك يزرى بالمروءة والعرض • والسلوك والأخلاق ، وأبو سفيان مهما كانت خصومته لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أو اختلافه معه فى الرأى ، لا ينسى أنه ذلك الرجل الذى كانت له السيادة فى قومه ، والزعامة فى أهله ، وأن مثله فى وضعه الذى كان عليه لا يليق به الاسفاف ، ولا يجمل به النقص ، ولا ينزل الى مستوى السوقة أو الدهماء ، ولهذا كان جديرا من النبى صلى الله عليه وسلم فى يوم فتح مكة أن يعطيه الأمان وأن يطوقه بهذا الطوق من الفخار والشرف بهذا النداء الكريم « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » وكان هذا سببا فى ذلك الدهش الذى أصاب الناس فى هذا اليوم وهم يزعمون أنه لايزال يتزعم جبهة المعارضة ولم يفهموا أن التيار الجارف لا يعترضه الا الذى يبلغ به الحمق غايته ، وأبو سفيان ليس هو ذلك الرجل الذى يتجرد من عقله وحكمته ، وبصره ورأيه ، وصوابه وسداده ، ليكون كبش الفداء لكفار مكة الذين عميت بصائرهم ، وانحدرت أفكارهم ، وضلت أفئدتهم ، وقد صار من الحمق كل الحمق أن يتجاهل الحقائق ، أو يعترض قافلة الانقاذ ، أو ينكر نور الشمس •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فتح مكة

لا تزال الى هذا التاريخ مسـافة الزمن الذى تضمنته معـاهدة الحديبية ، والتى اتفق بمقتضاها على أن تكون الهدنة بين الطرفين قائمة ، لا يعتدى أحدهما على الآخر ، ولا يعين عليه عدوا ، فان اعتدى حليف على حليف كانت غير سارية المفعول ، وكان ذلك فسخا للتعاقد القـائم بينهما ... الا أن غزوة مؤتة التى جاءت فى أعقاب الحديبية وخرج فيها ماية ألف أو أكثر من الروم والعرب الموالين لهم فى مقابل ثلاثة آلاف فقط من المسلمين كانت نهايتها على خلاف ما يرجو محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ولهذا أغرت هذه النهاية قريشا بالمسلمين من جديد ، وعاد وضعهم ـ أو كاد يعود ـ الى مثل ما كان عليه قبل الأحزاب ، وكان من نصوص معاهدة الحديبية ـ كما نعلم ـ أن من أراد الدخول فى حلف أحد الطرفين المتعاقدين دخل ، وكان من أثر ذلك أن دخلت بنو بكر فى حلف قريش ، ودخلت خزاعة فى حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان بين بكر وخزاعة حزازات قديمة ، وثارات من سالف العهود أثرها وبعث كامن حقدها ما وصل اليه حال معسكر محمد وأصحابه فى مؤتة التى لم يكن لجيشهم فيها من فضل الا فضـل الانسحاب من غير أذى يلحق بهم ، ولا ضرر يلقونه ، ولقد كان من الضرورى أن ينسحب جيش المسلمين لأن عدده ـ الثلاثة آلاف ـ لا يستطيع أن يصمد لجيش العدو البالغ عدده مائة ألف ، أو مايتى ألف على ما ترويه بعض الأخبـار .. ولهـذا أخذت بنو بكر تتحرش بخزاعة وتنال منها على أن حلفاءها قد انهزموا . ووصل ذلك الى حد الاشتباك ، وكانت قريش تساعد حلفاءها ـ بنى بكر ـ بالمال والسلاح متناسية أن ذلك خرق للمعاهدة ، زاعمة أن أحدا لا يعرف

هذا التحرك المستتر الذى تتحركه ·· لكن بعض الأفراد من خزاعة ذهبوا الى النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأخبروه نبأ ذلك النكث ، وهذا الاعتداء ، وناشدوه أن يدرك حلفاءه الذين تعرضوا لعدوان لا قبل لهم برده ·· ويقول الشيخ الخضرى فى كتابه نور اليقين « اذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه ، وأزال موانعه ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يعلم أنه لا تذل العرب حتى تذل قريش ، ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة ، فكان يتشوق لفتحها ، ولكن كان يمنعه من ذلك العهود التى أعطاها قريشا فى الحديبية ـ وهو سيد من وفى ـ ولكن اذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه ، وقد علمت أن خزاعة دخلت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبكرا دخلت فى عهد قريش ، وكان بين خزاعة وبكر دماء فى الجاهلية . كمنت نارها بظهور الاسلام ، فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم على مسمع من خزاعى · فقام هذا الخزاعى وضربه ، فحرك ذلك كامن الأحقاد ، وتذكر بنو بكر ثأرهم ، فشدوا العزيمة لحرب خصـــومهم · واســتعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سرا بالعتاد والرجال ، ثم توجهوا الى خزاعة وهم آمنون ، فقتلوا منهم ما يربو على العشرين · ولما رأى ذلك حلفاء الرسول ـ خزاعة ـ أرسلوا وفدا منهم برياسة عمرو بن سالم الخزاعى ليخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعل بهم بنو بكر وقريش ، فلما حلوا بين يديه وأخبروه قال والله لأمنعنكم مما أمنع منه نفسى » ·

أما قريش فانهم لما رأوا أن ما عملوه نقض للعهود التى أخذت عليهم ندموا على ما فعلوا وأرادوا مداواة الجرح فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب الى المدينة ليشد العقد ، ويزيد فى المدة ، فركب راحلته وهو يظن أنه لم يسبقه أحد ، حتى اذا جاء المدينة نزل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبه ، وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فطوته عنه ، فقال يا بنية أرغبت به عنى ، أم رغبت بى عنه ، فقالت ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس ، فقال لها لقد أصابك بعدى شر · ثم خرج من عندها وأتى النبى فى المسجد فعرض عليه ما جاء اليـه ، فقال عليه السلام هل كان من حدث قال لا فقال عليه السلام فنحن على مدتنـا وصلحنا ولم يزد عن ذلك ، فقام أبو سفيان ومشى الى أكابر المهاجرين من قريش علهم يسـاعدونه على مقصده فلم يجد منهم معينا ، وكلهم قالوا جوارنا فى جوار رسول الله ·· فرجع الى قومه ولم يصنع شيئا ·· فاتهموه بأنه خانهم واتبع الاسلام ، فتنسك عند الأوثان لينفى عن نفسه تهمة الاسلام ·· أما رسول الله صلى الله عليه وســلم فانه تجهز للسفر ، وأمر أصـحابه بذلك وأخبر الصديق بالوجهة التى هو متجه اليها ، فقال له يا رسول الله أو ليس

بينك وبين قريش عهد ، قال نعم ولكنهم غدروا ونقضوا ، ثم استنفر عليه السلام الأعراب الذين كانوا حول المدينة ، وقال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، وطوى عليه السلام الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب ، والرسول صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يقيم حربا بمكة بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرمتها فدعا مولاه جل ذكره وقال « اللهم خذل العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها فقام حاطب بن أبى بلتعة أحد الذين شهدوا بدرا وكتب كتابا الى قريش يخبرهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسله مع جارية لتوصله الى قريش على عجل . فأعلم الله رسوله بذلك فأرسل فى اثرها عليا والزبير والمقداد ، وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها » فانطلقوا حتى أتوا الروضــة فوجدوا بها المرأة فقالوا لها أخرجى الكتاب أو لنلقين عنك الثياب فأخرجته من عقاصها . فأتوا رسول الله ، فقال عليه السلام يا حاطب ما هذا ، قال يا رسول الله لا تعجل على . انى كنت حليفا لقريش . ولم أكن من أنفسهــا ، وكان من معك من المهــاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم فأحببت اذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى ، ولم أفعله ارتدادا عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الاسلام ، فقال عليه السلام أما انه قد صدقكم ، فقال عمر دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال انه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . وفى هذا نزل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقــد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجــون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » ثم سار عليه السلام بهذا الجيش العظيم فى منتصف رمضان بعد أن ولى على المدينة ابن أم مكتوم . وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مقاتل ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشد أعدائه وهما ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شقيق عبيدة ابن الحارث شهيد بدر وصهره عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة شقيق أم المؤمنين أم سلمة وكانا يريدان الاسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما فرحا شديدا وقال « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين وقد قابل عليه السلام فى الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجرا بأهله وعياله فأمره بأن يعود معه الى مكة ويرسل عياله الى المدينة ولما وصل عليه السلام مر الظهران أمر بايقاد عشرة آلاف نار وكانت

قريش قد بلغها أن محمدا زاحف بجيش عظيم لا تدرى وجهته فأرسلوا أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران فاذا هم بنيران كأنها نيران عرفة ·· فقال أبو سفيان ما هذه النيران لكأنها نيران عرفة ، فقال بديل بن ورقاء نيران بنى عمرو · فقال أبو سفيان عمرو أقل من ذلك ، فرآهم ناس من حرس رسول الله فادركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله · وكان العباس قد سمع صوت أبى سفيان وحذره ما يضمره له الرسول اذا لم يدرك نفسه بالاسلام وأخذه الى الرسول فأعلن اسلامه وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يسبقه المنادون بمكة « من دخل داره وأغلق بابه فهـــو آمن ومن دخل المســـجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » وعند دخول مكة أخذ بيده العباس ووقف معه ليستقبلا كتائب الجيش كتيبة كتيبة وكان أبو سفيان يسأل عنها واحدة واحدة ويقول مالى ولها حتى اذا مرت كتيبة الأنصار وحامل رايتها سـعد ابن عبادة قال سعد يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة فشكى أبو سفيان ذلك الى النبى فقال له كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة · وكان يوم الفتح يوم سلام وأمان ، واستقبال حافل توجه النبى صلى الله عليه وسلم فيـه بقوله لهؤلاء الذين كانوا يظنون أنه سيرفع عليهم سـياط الانتقام اذهبوا فأنتم الطلقاء » واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم وآذوا الاسلام وأهله أعظم ألوان الأذى فأهدر دمهم وان تعلقوا بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سـعد بن أبى سرح الذى أسلم وكتب لرسول الله الوحى ثم ارتد وافترى على الله الكذب وكان يقول أن محمـــدا كان يأمرنى أن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم فيقول كل جيد ·· ومنهم عكرمة بن أبى جهـل وصفوان بن أميـة · وكعب بن زهير ·· على أنهم جاءوا بعد ذلك الى النبى صلى الله عليه وسلم وأعلنوا اسلامهم وقبل منهم وعفا عنهم ·· وقد كان لجيش خالد بن الوليد رهبة أشـاعت الذعر والخوف فى قلوب أهل مكة حملتهم على أن يقاوموه ويصدوا زحفه عليهم فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرون · وقتل من جيشه اثنان فقط ·· وأما جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصادف صدا ، ولم يلاق مقاومة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم راكب دابته منحن على الرحل تواضعا لله وشكرا على هذه النعمة ، وكان من الانحناء تكاد جبهته تمس الرحل ، وكان أسامة بن زيد رديفه ، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان حتى وصل الى الحجون موضع رايته ، وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة وميمونة فاستراح قليلا ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى أتى البيت وطاف به سبعا على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه ، وكان حول الكعبة اذ ذاك ثلاثماية وستون صنما ، فجعل عليه السلام يطعنها بعود ويقول « جاء

الحق وزهق الباطل » « وما يبدىء الباطل وما يعيد » ثم أمر بالآلهة التي كانت بها فأخرجت من البيت وفيها صورة اسماعيل وابراهيم في أيديهما الأزلام ، فقال عليه السلام · قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما قط وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة · وبطهارة الكعبة المقدسة من هذه الأدناس سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب ··· والى هنا تكون عصابة الشرك في مكة وغيرها قد تهاوت أعلامها · ودالت دولتها ، ولم يعد في امكانها أن تعامل محمدا بالأسلوب القديم الذى كانت تعامله به ، والذى كان يقوم على العنف والشدة · والقسوة والغلظة · وعدم المبالاة ، وهي الآن تخطب وده ، وتعمل جهدها كله لتكتسب رضاه ، وتقيم علاقاتها معه على المعاهدات المتكافئة ، والعهود المرعية ، فاذا شعرت أنها أخلت بشرط من الشروط بعثت كبيرا من ساستها يرجو محمدا صلى الله عليه وسلم أن يتغاضى عن هفوة المسيء ، وحماقة المعتدى ، ولقد رأينا كيف مادت الأرض من تحت أقدامها ، وتهددتها الأخطار ، وأحاط بها الهلع والفزع ، لأن خيانتها قد تكشفت ، وامدادها لبنى بكر بالسلاح والمال في اشتباكها مع بنى خزاعة قد عرف ، أو وصل أمره الى النبى صلى الله عليه وسلم · فلم تشأ أن تسكت على ذلك أو تصبر وراحت ترسل قائدها لعناد النبي وحربه ليؤكد — من جديد — عهد الحديبية الذى نقضوه وخاسوا به ، فلما لم يجدها ذلك نقيرا ولا قطميرا استسلمت للأمر الواقع ، ودخل محمد عليها مكة دخول الظاهر المنتصر ، فلم تقاوم دخوله ، أو تعترض طريقه ، أو تشهر في وجهه سيفا ، باستثناء تلك المناوشة التى قوبلت بها كتيبة خالد ، ولم يكن دخول جيش محمد وحده في هذا اليوم هو كل شيء ، ولكن الذى كان هو كل شيء ·

أولا : أن يطلب النبى صلى الله عليه وسلم من سادن الكعبة عثمان ابن طلحة مفتاح الكعبة فيعطيه اياه طائعا راضيا دون مقاومة أو تردد ·

ثانيا : أن تتحطم على مرأى ومسمع منهم تلك الأصنام التى كانوا يعكفون على عبادتها من دون الله ·

ثالثا : أن يعلن اليهم أنه في موقف القوة الذى يسمح له بالعفو عنهم اذ يقول اذهبوا فأنتم الطلقاء ·

رابعا : أن تتوافد عليه وفود الرجال والنساء تبايعه على الاسلام والطاعة ، والبذل والفداء بعد أن أدركوا أن في ذلك انقاذا لأرواحهم ، وحقنا لدمائهم ·

وهذه كلها معان تدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يتحدث من موطن القوة لا من موطن الضعف ، وتلك لحظة من اللحظات التاريخية

النادرة عوضه الله بها عن شدة كان يلاقيها ، وكل هزيمة حلت به ، وكل ايذاء أصابه . نصرا عزيزا أرضى خاطره ، وأثلج صدره ، وأراح فؤاده . ورفع رأسه ، وبيض وجهه ، وبوأه مقعد صدق عند مليك مقتدر . ونسي الرسول صلى الله عليه وسلم احن هؤلاء وعدوانهم ، ووضع نصب عينيه أنه الرحمة المهداة للناس .

والقارىء لأنباء هذه الغزوة وأحاديثها يعثر على كثير من الأخبار الطريفة ، والمفارقات الحلوة ، التى تنبىء عن اخلاص المؤمنين لدينهم ، ودعوة نبيهم اخلاصا يفوق حد الوصف .. وربما كان أروع هذه الصور للاخلاص للدين وللرسول صلى الله عليه وسلم ما صنعته أم المؤمنين حبيبة بأبيها أبى سفيان الذى ظن أنه سيجد فى جوارها من الحنان والرحمة ، والاجلال والاحترام ، ما يخفف عنه ما يحمله من هموم . وما لاقاه فى طريقه من عناء ، ولكنه رأى أن أبوته لا قيمة لها . الى جانب ما تحتفظ به لرسول الله صلى الله عليه وسلم من قداسة . وما ترعاه له من حق ، وأن الواجبات التى يمليها عليها الدين لها عند الاعتبار الأول ، وقد قدم لنا أبو سفيان صورة للرجل الكبير الذى يقوم كبرياؤه على الزيف ، ويعتمد على الباطل ، وينحاز الى حزب الشيطان ، ويغتصب جاهه ، وسلطانه من الأوباش والغوغاء ، حتى اذا ما جد الجد ، وانتصر الحق على الباطل تضاءل ذلك الحجم ، وتهاوى ذلك الكبرياء ، وبدت الصورة الصحيحة على حقيقتها أقل من لا شىء فى العدد .. يمر به العباس بن عبد المطلب على نيران المسلمين ليدخل فى نفسه الرعب ، ويعلق هو على هذا المنظر المذهل بقوله انها كنيران عرفة ، ويراه عمر رضى الله عنه فيقول عدو الله أبو سفيان أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد . ويهم بقتله ويمنعه العباس قائلا له انه فى جوارى ، ويدخل به على النبى صلى الله عليه وسلم ليعلن اسلامه حقنا لدمه ، وابقاء على نفسه ، ويبتدره الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله ، أما آن لك أن تعلم ألا اله الا الله فيقول له بلى .. فيقول له وأن محمد رسول الله فيقول له أما هذه ففى النفس منها شىء ، فيقول له العباس قلها قبل أن تضرب عنقك ، فيشهد ويتجه العباس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له ان أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له ذكرا ليظفر منه فيما بعد بتلك الكلمة « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » والى هنا تزول دولة الظلم ، وسلطان الباطل ، ويعود الهاربون من العدالة عكرمة وصفوان ووحشى وعبد الله بن الزبعرى وكعب بن زهير — صاحب بانت سعاد — وآكلة الكبود هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان بعد أن ضاقت بهم الأرض بما

رحبت ولم يجدوا سبيلا أقوم من أن يسلموا رقابهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمن عليهم بالحرية . وتقول هند والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب الى أن يذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب الى أن يعزوا من أهل خبائك .

بعد الفتح

على الرغم من أن المناوشات التي طال مداها بين كفار مكة ومن كان معهم من المشركين وبين النبي صلى الله عليه وسلم . وذلك الخذلان الذى أصابهم الله به فى كثير من المواقف . وأنهم لم يشكوا بعد هذه المسيرة الطويلة انه رسول الله حقا وصدقا . وان فتح مكة كان من حقه أن يسدل الستار على الفصل الأخير من تلك المأساة التى كانوا يمثلونها . وأنه صلى الله عليه وسلم قد صار بيده زمام المبادرة ـ كما يقولون وأن يوم الفتح هذا كان صورة لانتصار الحق على الباطل . وعنوانا على أن عقارب الساعة لا ترجع الى الوراء ، وأن هؤلاء الذين دخلوا فى دين محمد صلى الله عليه وسلم فى هـذا اليوم وألقوا سلاح الحرب والمعارضـة كانوا يبرهنون بهذا الصنيع على أن من الحمق كل الحمق أن يظلوا على هذا الباطل المفضوح . أو الطيش الواضح ، الا أن الاحن القديمة . والعداوات السابقة ، والحسد الذى فتت الأكباد فى أولئك الذين كانوا ينقمون على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخصه الله بهذا الفضل ، وأن يحتظيه دون غيره بهذا التكريم . ويجعل بيده زمام القيادة والريادة ، والحديث باسمه ، والتبليغ عنـه .. وقد بدا ذلك كله فى نفوس هذه الجمـاعات المترامية ـ بعيدا عن مكة ـ فى الجنوب ، اذ كان تحطيم الأصنام وتطهير البيت الحرام قد أصابهم بالهلع والفزع . وظنوا أن الدائرة ستدور عليهم لا محالة . وأنهم لابد أن يستميتوا من جديد فى اسكات هذا الصوت . أو القضاء على ذلك الخطر الزاحف ، والغزو المحقق ، والسلطان المتمكن ، والطوفان الذى سوف لا يبقى ولا يذر ، وأن أهل مكة اذا كانوا قد ألقوا السلاح ، أو كفوا عن الكفاح ، أو سلموا بهذا الدين الوافد ، فلما بينهم وبين الداعى اليه من القرابة والنسب ، أو لأن الدعوة لواحد منهم وذلك تشريفا لهم ، وهذه أمور لا يضعها فى اعتبارهم أهل الجهات الأخرى من

الذين لم يجاوروا البيت الحرام ، لذلك هبت هوازن وثقيف بزعامة مالك بن عوف وانضم اليها كثير من البطون والقبائل وساقوا معهم أموالهم ونساءهم وأطفالهم ، ليكون هذا الذى ساقوه من الأموال والنساء والأطفال داعيا الى الجد ، وباعثا على الاستبسال ، ومشجعا على الاستشهاد ، وكان مالك هذا فى مقتبل شبابه ، يغلى فى عروقه دم البطولة ، ويترقرق فيه ماء النشاط والاقدام ، وقد أمر جنوده أن يقفوا على قمم حنين على شكل العصابات ، وأن يتحينوا مرور المسلمين بالوادى لينقضوا عليهم من كل ناحية ليفرقوا جمعهم ويستولوا على ما بأيديهم من مغانم وأسلاب •• وكان المسلمون فى هذه الآونة لم يمض على فتحهم لمكة • واغتباطهم بهذا الظفر العظيم أكثر من أسبوعين • ولما ترامى اليهم هم والنبى صلى الله عليه وسلم نبأ هذه المؤامرة لم يكن هنالك من بد أن يستجيبوا لهذه المواجهة التى فرضت عليهم ، والتى كان من الضرورى ان يخوضوا غمارها ، ونحن نعلم أن الجيش الذى كان معه صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة كانت عدته عشرة آلاف مقاتل انضم اليهم ألفان من الذين أسلموا بعد الفتح • وبهذا العدد الضخم الذى لم يتوفر له صلى الله عليه وسلم فى وقت من الأوقات واجه المشركين فى حنين ، الا أن المسلمين اندفعوا فى ظلمة الليل لهذا الكر والفر حيث لم يتبين لهم الهدف • ولم يستطع الجندى فى ميدان المعركة أن يميز بين صديقه وعدوه • والى جانب هذا فقد سرى الغرور الى النفوس وخيل اليهم ان هذه الكثرة التى توفرت لهم ستجعل النصر لهم من غير شك ، وهنالك قال قائلهم لن نغلب اليوم لكثرتنا ، ويقول الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » « وساروا حتى بلغوا حنينا والمساء يقبل فنزلوا على أبواب واديها ، وأقاموا بها حتى بكرة الفجر ، هنالك تحرك الجيش ، وركب محمد بغلته البيضاء فى مؤخرته ، على حين سار خالد ابن الوليد على رأس بنى سليم فى المقدمة ، وانحدروا من مضيق حنين فى واد من أودية تهامة ، وانهم لكذلك اذ شدت بامرة مالك بن عوف وأضلوهم عليهم القبائل ••

وابلا من النبال وهم جميعا منهزمين قد أخذ الخوف منهم كل مأخذه حتى أطلق بعضهم ساقيه الى الريح ، والنبى فى المؤخرة تمر عليه القبائل واحدة واحدة مولية الأدبار منهزمة لا تلوى على شىء ، وهو — كما نرى — موقف من أشد المواقف على النبى صلى الله عليه وسلم • لأنه سيعرضه هو وأصحابه للموت وهنالك تذهب أيام كفاحه ، وأصوات دعوته ، وجهوده التى بذلها ، وشدائده التى عاناها ، دون أن يكون لها أثر من الخير ، أو نصيب من الاصلاح ، أو معنى من احقاق الحق ،

وابطال الباطل ، سوى أن يقول التاريخ والناس ، كان هنالك انسان يحمل راية ، وينادى بدعوة ، ويأمر ببر ، ويوجه الى سلوك وينقذ من ترد ، لم يصادفه التوفيق ، ولم يقترن به النصر ، ولم يجد صوته طريقة الى القلوب والأفئدة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان له من قوة ايمانه ، وصدق يقينه ، وعظيم ثقته في الله ، ما جعله مع هذه الشدائد على أمل قوى فى أن الله لا يتخلى عنه ، فجعل ينادى الناس بالثبات على مواقفهم ، والصبر على مقاومتهم ، وثارت به حميته فأراد أن يندفع فى غمار العدو لكن ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب منعه ، وكان عمه العباس قوى الصوت فأخذ يقول يا معشر الأنصار يا معشر المهاجرين ان رسول الله حى فهلموا ، وتجمعوا حوله صلى الله عليه وسلم وكانت المعجزة ، وصورت لهم نفوسهم ما يكون وراء هذه الهزيمة من خذلان لهذا الدين ، أو ضياع لهذه الدعوة • وذل لهذه الجماعة ، فعاد اليهم نشاطهم أقوى مما كان • وكروا على المشركين بالقتل والابادة • وما هى الا لحظات حتى كانوا يحصدون الجموع ، ويخيفون الصناديد ، ويطاردون الجماهير ، ويجمعون الغنائم ، ويأخذون الأسلاب ، والى هذه الصورة من غرور المسلمين بكثرتهم ، وفرارهم من المعركة ، واستهتارهم بالنظام • وعدم اتخاذ الحكمة والحيطة مع العدو ، تشير الآية الكريمة من سورة التوبة « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » • وقد كان هذا الموقف من أشد المواقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ايلاما لنفسه ، ووقعا على قلبه ، واتعابا لخاطره ، وحزنا لفؤاده • هو والمسلمون معه ، لأنهم دفعوا ثمنه غاليا جدا • وهو الى جانب ما أصابهم فيه من خذلان ، كان مسببا فى ازهاق أرواح ، وفناء أنفس ، لا تعد بالأفراد ولا المئات ، ولكنها أكثر من ذلك كله ، وان كان هذا البأس جاء وراءه النصر المبين فيما بعد ؟ اذ أنزل سبحانه جنودا لم يروها كان لها الفضل كل الفضل فى هذا النصر الذى لا يقل فى روعته وحسن عاقبته عن النصر فى بدر الذى كان حدا فاصلا بين الكفر والايمان ، والحق والباطل ، أو العدالة والظلم ، وكأنما أراد الله بهذا الذى كان يوم حنين أن يلقن المسلمين درسا ثانيا ــ بعد هذا الذى كان فى يوم أحد ــ ليعلموا أن الحيطة والحذر ، واليقظة والانتباه ، وامتثال أوامر القائد ، والاعتماد على الله ، والتضحيات التى لابد منها ، من الأمور الضرورية لأصحاب المبادىء ، وأرباب الرسالات ، ومن يحملون راية الاصلاح ، أو الدعوات النبيلة ، وبحسن السبك قد ينفى الدغل ــ كما

يقول ابن الوردى — وقد صح أن مالك بن عوف الذى كان يقـــود هذه المعركة الشرسة قد التجأ الى الطائف وفيها ثقيف ، وفى الطائف وثقيف كان للنبى صلى الله عليه وسلم تاريخ قديم قبل الهجرة لا ينساه ، اذ فر اليهم من ظلم أهل مكة له ، وعنفهم معه ، وقسوتهم عليه ، رجاء أن يجد فى دعوته لهم قبولا ، وفى التجائه اليهم حماية ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأنهم طاردوه ، وأغروا به سفهاءهم ، ورموه بالحجارة ، واذا كان الشاعر الحكيم يقول « لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها » فان هذه الأفعى التى قطع المسلمون ذنبها بهذا النصر الذى أحرزوه يوم حنين كان لابد أن يكون وراءه استئصال للفتنة « ان كنت شـــهما فاتبع رأسها الذنبا » لذلك كان من الضرورى الذهاب الى ثقيف بالطائف ، وكانت حصونها هنالك منيعة يصعب اقتحامها أو الوصول اليها ، غير أن ذلك لم يمنعه صلى الله عليه وسلم أن يذهب اليها ، وأن يحاول النيل منها ، واذلال أهلها ، والتغلب عليهم ، وكسر شوكتهم ، وقد قال أحد الأعراب لرسول الله صلى الله عليه وسلم انما ثقيف فى حصنها كالثعلب فى جحره لا سبيل الى اخراجه منه الا بطول المكث ، فان تركته لم يلحقك منه ضر ، لكنه صلى الله عليه وسلم شق عليه أن يعود أدراجه دون أن يصيب منها شيئا فى طريقه هدم حصنا خاصا بمالك بن عوف ، وأخذ المسلمون بعد ذلك يحرقون كروم الطائف ونخيلهم ، وأمر مناديا ينادى أن من جاء من ثقيف مستسلما فقد نجا بأهله وماله ، فجاء اليه قرابة عشرين أخبروه أن بالحصن من الذخيرة والطعام ما يكفى للبقاء فيه أمدا طويلا ، وهنالك رأى صلى الله عليه وسلم أن طول المكث على هذا الوضـــع سيجعل الملل يدب الى نفوس المسلمين ، وكان الذى بأيديهم من مغانم حنين كثير ، وتوزيعه عليهم سيقوى من روحهـــم المعنوية ويسرى عنهم ، وأنهم بحاجة الى الاستجمام بعد تلك المعاناة ، وكان ذو القعدة قد استهل فأعلن اليهم أنه راجع وأنه سيعود الى اتمام مسيرته الى الطائف اذا انتهت الأشهر الحرم ، وانصرف هو والمسلمون معه الى مكة ولما وصلوا الجعرانة جلسوا لاقتسام الغنائم ، وقد جاء اليه وفد من هوازن وفيهم أبو برقان عمه من الرضـــاعة ، والشـــيماء بنت الحارث بن عبد العزى وهى أختـــه من الرضاعة كذلك ، وطلبوا منه أن يرد اليهم ما أخـــذه منهم من الاموال والأنفس ، وأنهم مسلمون ، فأجابهـــم الى ذلك فى غبطة وارتياح ، وقد سألهم عن مالك بن عوف فأجابوه انه لا يزال بالطائف ، فطلب اليهم أن يبلغوه أنه ان جاء اليه مسلما رد عليه أهله وماله وأعطاه مئة من الابل ، ولم يلبث مالك أن حضر اليه صلى الله عليه وسلم حين بلغه ذلك ، وكانت مغانم حنين هذه قاصرة على المهاجرين والمؤلفة قلوبهم أمثال أبى سفيان ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، وقد دب الى

نفوس بعض الأنصار شيء من الألم لهذا . وقال بعض منهم لقى رسول الله قومه ـ يقصد أنه تعصب لهم . وانحاز الى جانبهم (اذ خصهم بالمغانم ولم يكن صلى الله عليه وسلم يقصد الا أن يكون لهم شيء عوضا عما فقدوه من مال وديار وضياع حين هاجروا وتركوا وراءهم كل شيء ، وهنالك وقف ليخطب فيهم وليقول لهم « ما قالة بلغتني عنكم ، أوجدتم يا معشر الأنصار فى العلالة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ، الا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاه والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ، فو الذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار » وبهذه اللباقة ، وتلك الحنكة والسياسة قضى على الفتنة ، وأخمد نيران العصبية . حتى قال الأنصار حينئذ نرجع برسول الله ، والى هنا يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد قضى على جاهلية العرب ، وأسكت صوتهم ، ولم يجعل للمعارضة سبيلا اليه ، ولا سلطانا عليه ، والعرب بطبيعتهم أكثر الناس سلامة فطرة ، ونقاء سريرة ، وحبا للمنطق ، وميلا الى الأخذ بالتى هى أقوم من السبل السليمة ، والطرق المستقيمة . وقد يكون هذا الذى بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم كافيا فى اقناعهم واقتناعهم بأنه رسول رب العالمين ، ولم يعلم أحد أنه بعد هذا الذى قام به من الدعوة قد ترك مجالا لهؤلاء الذين كانوا يرددون أو يشكون فى صدقه ، وأن الذى كان يتلوه عليهم وحى من عند الله ، لذلك قد انصرف رسول الله صلى الله وسلم الى ما تتطلبه السياسة الحازمة لحكم هذه الدولة الجديدة . وما يقتضيه تدبير شئونها ، من صيانة الحقوق ، ورد المظالم ، وكفالة الأمن ، وسيادة العدل ، وحرية التصرف ، فأرسل من يجمعون زكاة الأموال ، ومن يفصلون فى القضايا ، ومن يعلمون القرآن ، ولم تكن ناحيـة من نواحى الجزيرة تجهل أن عليها سلطانا يفرض عليها الأمن والحق والعدل والاستقامة على الجادة ، فلا يتمرد متمرد ، ولا يتطاول متطاول . ولا يبغى ظالم ، لأن الدعوة فيهم . ولرجل منهم ، وليس فيها ما يجافى العقل أو المنطق ، الا أنه صلى الله عليه وسلم لم يكد يطمئن الى هذه الغاية المحمودة التى كان قد وصل اليها بتوفيق الله ورضوانه حتى ترامى اليه أن الروم تهيىء له جيوشا لغزو الجزيرة من الحدود الشمالية ، فلم يتردد برهة فى القضاء على هذه النزوة ، والاستئصال لهذا الشر ، وذلك هو ما عرف فيما بعد بغزوة تبوك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غزوة تبوك

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة • واذلاله لطواغيت الشرك • وقادة الكفر ، تتهافت القبائل والبطون على مبايعته على الاسلام ودخولهم فى دين الله أفواجا • وتحطيمه للأصنام التى كانت فى الكعبة وغيرها وقد أصبح له شأن دونه شـــأن الأباطرة والأكاسرة • والملوك والسلاطين • وصار زحفه يزداد يوما بعد يوم بحكم نشر الدين ، واعلان العقيدة • وعموم الدعوة الى الناس جميعا • وهنالك دب الخوف الى نفوس الروم والفرس وهما الدولتان الكبيرتان اللتان يتهددهما الغزو الاسلامى حينئذ • وقد بلغه أن الروم تجمع الجموع للوقوف فى وجهه ، والحد من تحركه • والعمل على الا يتجاوز نطاق دعوته من البـــلاد والعباد وراء ما تجاوزته ، لأن ذلك ســـيجعلها فى خبر كان لا محالة • طال الزمان أو قصر ، فأعلن صلى الله عليه وسلم النفير العام فى المسلمين لأنه علم أن الروم لا يناجزونه وحدهم وانما ينضم اليهم من لا يزال على الشرك من العرب والأعراب الذين كان محمد صلى الله عليه وسلم أرغمهم ماداموا لم يختاروا الاسلام على أن يدفعوا له الجزية عن يد وهم صـــاغرون ••• ويقول المؤرخون ان النبى صلى الله عليه وسلم كان مما أخذ به نفسه مع المسلمين اذا أراد الخروج الى غزوة الا يصارحهم بالجهة التى سينتهى اليها مسير الجيش حتى لا يتسرب نبأ ذلك الى العدو فيتأهب ، للقائه ، ولكنه فى هذه المرة قد آثر الاعلان والمصارحة ، والسبب فى هذه المخالفـــة أن السفر شاق ، لأنه الى تبوك فى الشام • والجو حينئـــذ كان حارا ، والثمار على وشك أن تنضج ، وقد تكون هذه الاعتبارات مجتمعة أو منفردة مدعاة الى التعلل بها • وتغليب جانب البقاء على جانب الخروج • ولهذا

كان باب الاعتذار مفتوحا على مصراعيه ، وبدأ النفاق فى أوضح صوره ، وأجلى معانيه ، على الرغم من التهديد الصريح الذى كان القرآن الكريم يقرع به الآذان في مثل قوله سبحانه « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله يهدى القوم الفاسقين » على أن هنالك من المسلمين من أبدى غاية الاخلاص فى الجهاد ، ونهاية البذل فى سبيل الله . مثل عثمان وأبى بكر وعبد الرحمن بن عوف . وأولئك الذين كانوا لا يجدون الظهر الذى يركبونه فجاءوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم ليوفر لهم الظهر الذى يركبونه ، فلما قال لهم لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون . ويظهر من أحداث غزوة تبوك أنها كانت آخر ما طفح به الكيل فى نفوس المنافقين ، اذ ظهرت كراهيتهم لأن ينتصر محمد ، أو يتمكن نفوذه ، ويقوى سلطانه ، بشكل لا التواء فيه ولا خفاء ، فانهم لم يتركوا لونا من ألوان الاعتذار ، ولا أسلوبا يعللون به تخلفهم ، وعدم خروجهم ، الا سلكوه والتجأوا اليه ... وفى سورة التوبة تسجيل لهذه الألوان . وتلك الأساليب فى حين أن الله سبحانه وتعالى لم يطوها عن الرسول صلى الله عليه وسلم وانما أطلعه عليها . وبلغه اياها . وكان ذلك افتضاحا لحالهم . وكشفا لأستارهم . وقد حمل ذلك جماعة من المتخلفين أن يصارحوه صلى الله عليه وسلم أن تخلفهم لم يكن لعذر يلتمسونه التماسا ، أو يزورونه كذبا وبهتانا ، وأنهم لهذا يتركون الأمر له ليقضى فيهم بما يجد أنه يتناسب مع تلك الجريمة ، وقد ربطوا أنفسهم بسارية المسجد . وقاطعهم الناس حتى زوجاتهم ثم نزلت فيهم الآية « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم » ... ويقول الدكتور هيكل « وانطلق الجيش بعد ذلك قاصدا تبوك ، وكانت الروم قد بلغها أمر ذلك الجيش وقوته فآثرت الانسحاب بجيشها الذى كانت وجهته الى حدودها ، ليتحصن داخل بلاد الشام فى حصونها ، فلما انتهى المسلمون الى تبوك ، وعرف محمد أمر انسحاب الروم . ونمى اليه ما أصابهم من خوف ، لم ير محلا لتتبعهم داخل بلادهم ، وأقام عند الحدود ، يتحدى من شاء أن ينازله أو يقاومه . ويعمل لكفالة هذه الحدود ، حتى لا يتخطى اليها بعد ذلك أحد .. وكان يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود قد وجه اليه النبى صلى الله عليه وسلم

وسالة أن يذعن للاسلام أو يغزوه ، فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب . وقدم الهدايا ، وتقدم بالطاعة . وصالح النبى صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية . كما صالحه أهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية . وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم كتب أمن . هذا نص أحدها وهو ما كتب به الى يوحنا « بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله . ومحمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول دون نفسه ، وانه طيب لمحمد أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يردونه من بر أو بحر » .. وايذانا بالموافقة على هذا العهد أهدى محمد صلى الله عليه وسلم الى يوحنا رداء من نسج اليمن ، وأحاطه بكل صنوف الرعاية بعد أن اتفق معه على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلاثمائة دينار كل عام .

وبهذا كله لم يبق محمد صلى الله عليه وسلم بحاجة الى القتال بعد انسحاب الروم ، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود . وبعد أمنه عودة الجيوش البيزنطية من هذه الناحية . لولا خيفة انتقاض أكيدر بن عبد الملك الكندى النصرانى أمير دومة الجندل ، ومعاونته جيوش الروم اذا جاءت من ناحيته لذلك بعث اليه خالد بن الوليد فى خمسماية فارس . وانقلب هو بجيشه راجعا الى المدينة ، وأسرع خالد بالانقضاض على دومة الجندل فى غفلة من مليكها الذى خرج فى ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش ، ولم يلق خالد مقاومة تذكر حتى أخذ حسانا وأخذ أكيدر أسيرين وهدد أكيدر بالقتل اذا لم تفتح دومة الجندل أبوابها . وفتحت المدينة فداء لأميرها .. وساق خالد منها ألفى بعير وثمانماية شاة ، وأربعماية وسق من بر ، وأربعماية درع ، وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بالنبى صلى الله عليه وسلم وهنالك عرض على أكيدر الاسلام فأسلم وأصبح حليفا .. ولم يكن عود محمد صلى الله عليه وسلم على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من حدود الشام بالأمر الهين ، فلم يدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذى عقد مع أمير أيلة والبلاد المجاورة له . ولم يقيموا كبير وزن لما حققه صلى الله عليه وسلم بهذه الاتفاقات من تأمين حدود شبه الجزيرة واقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ، بل كان كل الذى نظروا اليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة ، وتحملوا فى قطعها ما تحملوا من الأذى ، وها هم أولاء يعودون لم يغنموا ولم يأسروا ، بل لم يقاتلوا ، وكل الذى فعلوه أن أقاموا بتبوك قرابة عشرين يوما .

وكأنهم لهذا قطعوا الصحراء فى شدة القيظ فى حين كانت ثمار المدينة قد طابت وآن أن يستمتع الناس بها • وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد • وينقل اليه نبأهم أولئك الذين ملأ الايمان قلوبهم ، فيأخذ المستهزئين بالشدة حينا ، وباللين حينا ، والجيش يسير قافلا الى المدينة ومحمد يحفظ النظام فى صفوفه ، حتى اذا انتهى اليها لم يلبث ابن الوليد أن لحق بها ومعه أكيدر وما حمل من دومة الجندل من ابل وشاه وبرود ودروع ، وعلى أكيدر حلة من الديباج ، موشاة بالذهب بهت أهل المدينة لمرآها •• وهنالك اضطرب الذين تخلفوا عن الخروج معه اضطرابا رد المستهزئين الى صوابهم • وجاء المتخلفون يعتذرون ، وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب ، وأعرض محمد صلى الله عليه وسلم عما صنعوا تاركا لله حسابهم ، لكن ثلاثة صدقوا الله ورسوله فاعترفوا ، وأقروا بذنبهم • هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وقد أمر النبى المسلمين أن يعرضوا عنهم • وظلوا على ذلك خمسين يوما • لا تصل بينهم وبين مسلم تجارة ، ولا بيع أو شراء ، ولا أية معاملة على أى لون من الألوان ، ثم تاب الله على هؤلاء الثلاثة ، ومنذ ذلك اليوم ابتدأ النبى صلى الله عليه وسلم يشتد مع المنافقين شدة لم يألفوها من قبل • وذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطرا يخشى منه ، ولابد من تلافيه وعلاجه ، وهم قد ازدادوا من بعد أضعاف زيادتهم اليوم . وذلك مالم يقم بنفس محمد ريب فيه بعد أن وعده ربه لينصرن دينه ، وليعلين كلمته ، ولقد كان له من قبل حين كان الاسلام محصورا بين المدينة وما حولها أن يشرف بنفسه على ما يجرى بين المسلمين ، أما وقد انتشر الاسلام فى أنحاء بلاد العرب جميعا ، وها هو ذا يشارف الانتقال منها ، فكل تهاون مع المنافقين شر له خطره وضرره وعاقبته الوخيمة • وما أسرع ما يستشرى الخطر اذا لم تجتث جرثومته •• وقد بنى جماعة من هؤلاء مسجدا بذى أوان — على بعد ساعة من المدينة — والى هذا المسجد كان يأوى جماعة من المنافقين يحاولون أن يحرفوا لكلام الله عن مواضعه • وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضررا وكفرا • وطلبت هذه الجماعة الى النبى صلى الله عليه وسلم أن يفتتح ذلك المسجد بالصلاة فيه وكان طلبهم هذا قبل تبوك فاستمهلهم حتى يعود من تبوك • فلما عاد وعرف من أمر المسجد وحقيقة ما قصد اليه هؤلاء من اقامته أمر باحراقه وضرب بذلك مثلا ارتعدت له فرائص المنافقين فخافوا وانكمشوا ولم يكن هنالك من يساندهم ويغريهم بالتمرد والنفاق وحوك المؤامرات الا عبد الله بن أبى الذى مرض بعد تبوك بشهرين مات بعدهما •• وبغزوة تبوك تمت كلمة الله فى شبه

الجزيرة كلها ، وأمن محمد صلى الله عليه وسلم عوادى الخارجين ، وحرب المناوئين ، وكيد المبطلين ، وأقبل الناس من هنا وهنالك يقدمون فروض الولاء والطاعة ، ويعلنون الاسلام • وكانت خاتمة غزواته صلى الله عليه وسلم لتمكين كلمة التوحيد ورفع راية الاسلام ، ولقد كانت سورة التوبة السجل الواعي لأخبار هذه الغزوة ، ولقد عرضت لكل لون من ألوان النفاق الذى تذرع به أولئك الذين كانوا مرضى القلوب ، حينما كان لهم ظاهر وباطن يغاير كلاهما الآخر فى حقيقته المكشوفة • ومعناه المفضوح •• حتى لقد كانت هذه السورة تسمى عند علماء التفسير بالفاضحة لأنها فضحت أعراضهم وهتكت أستارهم ، وكشفت عيوبهم • ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم عنيفا فى معاملهم كما ثبت ذلك مع الذين اتخذوا مسجدا ضرارا ، وكما ثبت كذلك مع الثلاثة الذين خلفوا ، الا أن ذلك كله كان آخر المطاف حين لم يبق فى قوس الصبر منزع ــ كما يقولون ــ والا فان الباب كان مفتوحا لهم على مصراعيه لا فى الاستئذان الكثير الذى عاتبه الله عليه بقوله « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون » •• وعلى الجملة فان هذه الغزوة على الرغم من أنها كانت خالية من المواجهة والمجابهة الا أنها كانت مجابهة لهؤلاء الذين كانوا مرضى بضمائرهم وأفئدتهم اذ ظهروا للرسول صلى الله عليه وسلم ــ وللمسلمين كذلك ــ على حقيقتهم من غير زيف ولا طلاء • وفى الوقت الذى تكامل للدولة الاسلامية نفوذها الذى لا يمكن لأحد أن ينكره كانوا هم قد تكاملت لهم وسائل الانهزام ، وعناصر الضعف ، وألوان الاهتزاز والذبذبة • وكذلك تكون نهاية الموتى ••

وربما تغاضى صلى الله عليه وسلم عن بعض المنافقين فلم يأخذهم بالشدة كما أخذ غيرهم ارضاء لذويهم أو بعض قرابتهم وكان عمله هذا من صميم الحزم والكياسة •• وقد كان هذا واضحا تمام الوضوح فى عبد الله ابن أبى رأس المنافقين الذى طالما هم بعض المسلمين أن يقتله فلم يرض الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يشجع عليه • وحين وفاته صلى عليه صلاة الجنازة ارضاء لابنه الذى كان من خيار الصحابة ، وان كان صلى الله عليه وسلم قد نهى بعد ذلك عن مثل هذه الصلاة « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » وقد كان لهذه الصلاة وقع طيب فى نفوس الخزرج الذين كانوا يحبون عبد الله ويعترفون له بالفضل •• ومهما كان الحال بين اللين والشدة

في معاملة المنافقين فان أحدا لا يشك فى أنهم أصبحوا منذ تبوك يعاملون بالعنف ، ويؤخذون بالشدة ، ويجعلون مع المشركين فى قرن واحد ٠٠ وقد كان المشركون أنفسهم يتنفسون الصعداء الى ما قبل تبوك لكنهم بعدها أخذوا يشعرون بالغربة والذلة والمهانة والضعف ، ويشعرون بأن الأرض تميد من تحتهم وقد أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر فى أخريات ذى القعدة من السنة التاسعة ليحج بالناس ولم يشأ أن يخرج هو بنفسه لأنه كان غير راض عن حج المشركين الى بيت الله الحرام مع أن ذلك كان مألوفا فى الجاهلية وقد سبق له صلى الله عليه وسلم أن استنفرهم للحج فى غزوة الحديبية ، ولهذا نزلت الآيات فى سورة التوبة تنبذ اليهم عهدهم ، وتمنع أن يدخل البيت مشرك « يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم » وذهب على بن أبى طالب ممثلا رسميا للنبى صلى الله عليه وسلم ليعلن ذلك الانذار الرسمى « وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » وبهذه المرحلة من القوة والعزة والنفوذ والسلطان التى وصل اليها الاسلام كان فى الوضع الذى يسمح له بأن يصدر أوامره ونواهيه من مركز القوة التى يحسب لها الناس ألف حساب ٠ فلا يستطيع أحد أن يعارضها أو يقف فى وجهها الا اذا تجرد من العقل ، أو كان مقامرا بروحه التى بين جنبيه ، وهيهات أن يكون هنالك شيء من ذلك كله الا عند المجانين الذين جردهم الله من العقل والادراك ٠٠

بعد تبوك

غزوة تبوك لم تكن غزوة بمعنى الكلمة يواجه فيها فريق فريقا ، أو جيش جيشـــا ، لأن الروم قد فروا الى داخل بلادهم ، ولم يرق لهم أن يواجهوا محمدا صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه ، الا أن نبأ هذا الانسحاب كان له وقع على البقية الباقية من العرب الذين كانوا لا يزالون على وثنيتهم ورأوا أن الأليق بهم وقد صار لمحمد صلى الله عليه وسلم هذا السواد العظيم من الأتباع والأنصار . وقد انسحبت من وجهه هذه الدولة العظمى التى كان لها نفوذ واسع عليهم وعلى غيرهم أن يبادروا الى الاستجابة لدعـوة محمد قبل أن يجدوا أنفسهم أمام الأمر الواقع ــ كما يقولون ــ لذلك وفدت عليه الوفود ، وجاءت اليه الجماعات ، تعلن دخولها فى دينه ، وانضمامها الى معسكره وكانوا أكثر من سبعين وفدا .. ومن حسن المصـادفات أن ثقيف بالطائف ، وهى صاحبة الثأر القديم مع النبى صلى الله عليه وسلم التى واجهته أسوأ مواجهة حين التجأ اليها من عسف قومه بمكة ودعاها الى الله . وقد ردته أسوأ رد كانت من الذين بادروا الى الاسـتجابة وان كانت قد ترددت طويلا قبل ذلك ، وقد وفد على النبى صلى الله عليه وسلم منهم عروة بن مسعود وأعلن اسـلامه وتعهد للنبى صـلى الله عليه باسلام قومه ، وقد حذره النبى من قتلهم له ، فرد عليه بأنهم يحترمونه كل الاحترام ، ويحبونه ولا يخرجون على طاعته ، لكنه حينما دعاهم رموه بالنبل فمات ، ولما رأوا أن الناس قد أنكروا عليهم ذلك أعلنوا اسلامهم بعد أن بعثوا رجلا منهم يعرض على النبى الصلح معهم هو « عبد ياليل » وظلوا فى ضيافة النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة زمنا طويلا وصاموا رمضان هنالك وكان هو الذى كان يبعث اليهم بالزاد والطعام وهم فى المسجد ثم عادوا الى الطائف ، وقد طلبوا ابقاء صنمهم اللات ثلاث سنوات فلم يجابوا

الى ذلك ، وطلبوا ـ كذلك ـ أن يعفوا من الصلاة فلم يجابوا ، وهـكذا توالت الجماعات والطوائف للدخول في دين الله أفواجا ، ولم يبق من يناوىء محمدا صلى الله عليه وسلم الا نفر قليل ممن كانوا يظنون دعوته دعوة ملك وسلطان وقد أخذوا يعرضون عليه أن يشـاركوه النفـوذ ، ويقاسموه السلطان ، وهو يرد عليهم بأن ذلك الذى يدعو به ، صلة بالله ، وعبادة له ، وفناء فى ذاته ، وعقيدة يجب امتلاء القلب بها ، من هؤلاء عامر بن الطفيل الذى ذهب مع قومه اليه للدخول في دينه ، فلما مثـل بين يديه طلب منه أن يكون ندا له فى الرسالة ، ودعوى نزول الوحى عليه ، فلما أنكر عليه النبى ذلك ، انصرف من عنده وهو يقول له لأملأن عليك الأرض خيلا ورجالا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم اكفنى عامر بن الطفيل فأصابه الطاعون وهو فى الطريق فالتجأ الى بيت سلولية فمات به ، وحين حضرته الوفاة قال يعجب من أمر نفسه ، غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية ، وكذلك فعل صاحبه أربد بن قيس الذى أبى وعاد الى بنى عامر فهبت عليه صاعقة أحرقته وهو محمول على جمل خرج به الى السـوق ليبيعه •• وفى هذا العام الذى كثرت فيه الوفود مقبلة على رسول الله تعلن اسلامها ، وتدخل فى طاعته ، أمر النبى صلى الله عليه وسـلم أن يخرج أبو بكر رضى الله عنه الى البيت الحرام حاجا ومعه المسلمون ولم يشأ أن يخرج هو صلى الله عليه وسلم لأن كثيرا من عادات الجاهلية الأولى كانت تسيطر على أعمال الحج ، كطواف الناس عرايا ، ودخول المشركين جنبا الى جنب مع المسلمين • ولا يمكن لأحد أن يمنعهم للعهود القائمة بينهم وبين المسلمين حينئذ ، وهنالك نزلت سورة التوبة وفيها التحلل من هذه الارتباطات ، وتلك العهود ، والنهى عند ذلك الطواف ، ومنع المشركين من دخول البيت لأنهم نجس وبراءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلمـوا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعـذاب أليم الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهـدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين فاذا انسلخ الأشـهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم •• وهكذا الى الآية الأربعين من السورة » وهى كما نرى فى ألفاظها وقوة ردعهـا ، وعظيم تخويفها ، كقذائف المدافع ، ليس فيها مهادنة ولا لين ، مما يدل على أن فترة ارخاء الحبل ، أو ترقيع الفتق ، أو الأخذ بالتى هى أحسن • قد انتهت

الى غير رجعة ، وأن الخطاب مع هؤلاء قد أصبح من مصدر القوة لا مصدر الضعف ، وأن أسلوب المعاملة اليوم غيره بالأمس ، وأن الاسلام الذى كان يعفو أن يصفح صار يأخذ بالصرامة ويعامل بالشدة ويجازى على السيئة بمثلها ، وذهب على رضى الله عنه والناس يؤدون مناسكهم بمنى ليعلنها ثم يقول من مصدر القوة أيها الناس انه لا يدخل الجنة كافر · ولا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان · ومن كان له عهد عند رسول الله فهو الى مدته ، وبنهاية هذا الموسم عن الحج انتهت هذه الأمور كلها وصار البيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا أنقى من ماء المزن ، وأطهر من قلوب التوابين الأوابين ، لا يدخله الا من تأدب بأدب الاسلام ، وتجرد من أرجاس الدنيا ، وأدناس الشرك ، وعبادة غير الله ، وبهذا الموقف القوى الذى أعلنته « براءة » كان الحد الفاصل بين الدولة الناشئة الصغيرة التى كان يمثلها محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من حوله فى المدينة ، وبين الدولة القوية التى يمثلها هذا السواد العظيم لا فى المدينة وحدها ولكن فى مكة والطائف واليمن وكل الأطراف هنا وهنالك ممن ينطقون الضاد وغيرها ويرون أن سلامة أرواحهم · واستقرار أحوالهم ، واطمئنان نفوسهم ، واستقامة سلوكهم ، وطهارة أعراضهم ، وضمان حقوقهم ، انما هى فى هذا الدين الذى يعلنه محمد صلى الله عليه وسلم وينادى به ، وقد كان خروجه صلى الله عليه وسلم الى الحج فى العام الذى بعد هذا العام ، ودعوة المسلمين للخروج معه فى هذه الكثرة الكثيرة وخطبته الجامعة المانعة التى رسم فيها الخطوط والمعالم ، بمثابة الشكر لله الذى أسبغ عليه نعمته ، وأتم رسالته وهى فى الوقت نفسه اعلان عن هذه القوة الجارفة التى لا يقف فى وجهها الا الحمقى أو المجانين ، وكذلك يكون النصر للحق لا للباطل « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ·

حجة الوداع

بعد هذا الاعلان الصارخ الذى تولى اذاعته على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والذى أردفه بأنه لا يدخل البيت مشرك • ولا يطوف به عريان ، كان لابد لهؤلاء جميعا أن ينكمشوا ، وأن يؤمنوا ايمانا لا شك فيه أن الدولة المسلمة لا حياة فيها الا لمن يدين بدينها ، ويدافع عن حوزتها ، ويبذل جهده كله للدفاع عنها ، وأن وجود غير المسلم مهما اتسع صدر الدولة له ، وأحسنت اليه • وضمنت له البقاء الطيب • والعيش الناعم ، والاستقرار الآمن • فانه فى النهاية أشبه بالواغل المتطفل ، أو الغريب المقحم ، أو الحاقد الموتور ، تحيط به الريبة ، ويكتنفه الشك ، وتترامى حوله الظنون ، ولا يطمئن اليه المسلم ، وربما كانت هذه قضية اتفقت عليها مبادىء علم الاجتماع ، ولهذا أعلن القرآن الكريم هذا المبدأ « ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » •• وقد رأينا أن الحروب والخلافات التى تثيرها الأفراد والجماعات ويستعصى فيها الوئام والصلح ترجع عن طريق مباشر أو غير مباشر الى هذا السبب الذى ينتهى فى آخر أمره الى الدين ، والصراع الذى كان بين اليهودية والنصرانية غير منكور ولا بعيد • لذلك كله أدركت هذه الفلول المشتركة فى أطراف الجزيرة أو فى داخلها انه لا علاج لتلك العلة المستعصية الا بالدخول فى هذا الدين • وأن وجودها خارج نطاقه حكم عليها بالاذلال ، والهوان الى الأبد • وعندئذ أخذت الوفود من نجران وعبد القيس وبنى حنيفة وكندة وأزد شنوءه وهمدان وثعلبة وغسان وبنى أسد وبطون وقبائل كثيرة تتوافد عليه صلى الله عليه وسلم لتعصم دماءها من السفك ونفوسها من الازدراء ، وحياتها من الامتهان ، ومستقبلها من الضياع ، وتتعاهد على الاسلام الذى يرفع أهله من ذات الصدع الى ذات الرجع وهنالك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اطمأن كل الاطمئنان

الى أنه لا يحج مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فأعلن أنه فى هذا العام ـ العاشر ـ سيخرج الى بيت الله الحرام ، ودب حنين المصاحبة له ، الى نفوس كثير من المؤمنين الذين أرادوا أن يكون لهم شرف الارتباط به صلى الله عليه وسلم ، وخرج معه تسعون ألف أو ماية ألف • ومشوا تميد الأرض من تحتهم • وترقص النجوم من فوقهم • ويمتلىء الجـو من حولهم بالفرح والسرور • ، يتقدمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته القصواء قائلا ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » وهم من ورائه بصوت واحد يرددون قوله ، ويصيخون الى نغمته الحلوة ، ومقاطعه الرتيبة ، وموسيقاه التى تنساب فى النفوس انسياب الحياة المملوءة بالأمل والرجاء ، ولما دخل مكة وشاهد البيت قال « اللهم زده تشريفا وتعظيما ومهابة وبرا ، وطاف به سبعا واستلم الحجر الأسود وصلى ركعتين عند مقام ابراهيم ثم شرب من ماء زمزم وسعى بين الصفا والمروة سـبعا ـ كذا ـ وكان اذا صـعد الصفا والمروة يقول : « لا اله الا الله ، الله أكبر ، لا اله الا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » وفى الثامن من ذى الحجة توجه الى منى فبات بها • وفى التاسع توجه الى عرفات وخطب خطبته المشهورة التى ودع فيها هذه الأمة التى كافح من أجلها ، وحارب فى سبيلها ، وظل ثلاثا وعشرين سنة يرسم لها المستقبل الأفضل ، والسلوك الأمثل ، والحياة الأكمل ، والعيش المغمور بالسعادة ، ونص هذه الخطبة كما جاء فى كتب التاريخ والسـيرة « الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سـيئات أعمالنـا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله • وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير « أما بعد » أيها الناس اسـمعوا منى فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا •• أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد • فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ، وان ربا الجاهلية موضوع ، وان أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وان دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ، وان مآثر الجاهلية موضـوعة غير السدانة والسقاية ، والعمد قود ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية •• أيها الناس ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سـوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم •• أيها الناس ان النسىء زيادة فى الكفر يضل به

الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله . وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض منها أربعة حرم ثلاث متواليات وواحد فرد .. ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان الا هل بلغت اللهم اشهد.. أيها الناس ان لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق . ألا يؤطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين بفاحشة فان فعلن فان الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وانما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا ألا هل بلغت اللهم اشهد .. أيها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس ألا هل بلغت اللهم اشهد ، فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فانى قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لم تضلوا بعدى كتاب الله ألا هل بلغت اللهم اشهد .. أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى الا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم اشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب .. أيها الناس ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصيته ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وفى هذا اليوم نزل قوله جل شأنه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » وأدى صلى الله عليه وسلم مناسك الحج من رمى الجمار والنحر والحلق والطواف وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قفل راجعا الى المدينة . ولما بدت له من بعيد معالمها الشامخة كبر كثيرا وقال : « لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، آيبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » ... والواقع الذى لا شك فيه أن هذه الخطبة كانت وثيقة تاريخية رائعة حدد فيها النبى صلى الله عليه وسلم المعالم الصحيحة للمجتمع المتماسك القوى الذى يسوده التعاون والوفاء والحب والبر والرحمة والتعاطف والخير والسعادة والأمن والطمأنينة والاستقرار والتقدم ، وكانت الدعامة الأولى لهذا كله صون الدماء والأموال

« ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام » فان الجماعات والشعوب والأمم لا تسودها الفوضى والانحلال ، ويسيطر عليها القلق والاضطراب ، وتتحول الى أحراش وغابات تسكنها الوحوش الضارية ، والذئاب المفترسة ، الا اذا رخصت فيها الدماء على الناس الى هذا الحد الذى لا يجد فيها القاتل من يضرب على يديه ، ويحول بينه وبين سفك الدم الحرام ، ولهذا كانت الكلمة القرآنية « ولكم فى القصاص حياة تشبه الدستور العادل ، والقانون الصحيح ، والنظام الذى لابد منه ، لوجود البيئة المترابطة ، التى يجمعها الحق • ويصلها البر ، ويمسكها العدل • حتى يمكن أن تحصل على السعادة التى تنشدها ، والاستقرار الذى تطلبه ، وكذلك كانت للأموال هذه الاعتبارات ، لأن المال عصب الحياة ، فاذا لم يكن لها تلك الحرمة ، كانت الحياة جحيما ، والعيش لونا من ألوان التعاسة ان لم يكن هو التعاسة بذاتها •

وكانت الدعامة الثانية أداء الأمانة فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها » وأداء الأمانة عنوان من عناوين الثقة المتبادلة بين الأفراد والجماعات ، ووجود هذه الثقة أمر ضرورى للتكتل الأسرى والشعبى الذى لابد منه لقيام حياة اجتماعية بين الناس • والانسان مدنى بالطبع — كما يقولون — ولا يمكن لانسان أن يعامل انسانا تنعدم الثقة بينه وبينه ، وبهذا تتفكك الروابط • وتذوب الوشائج ، ولا يقوم بين الناس اجتماع ، وهنالك تتعطل المصالح • ويصيبها الشلل والموت •• وهكذا اذا مشينا مع الخطبة خطوة خطوة وجدناها تفيض بالنصح الخالص ، الذى لا يصدر الا من قلب قد امتلأ بالحب والبر ، والشفقة والعطف ، والرغبة الملحة فى الفلاح والنجاح والسداد والرشاد ، لمن يوجه اليه القول • ويخصه بالتقويم ، ويأخذ بيده الى السلوك السوى والصراط المستقيم ، فهى تعلن الحرب الساخنة على الربا وأهله لما فيه من مفاسد كيان الأمم والشعوب ، وتضر بالعلاقات القائمة بين الناس ، وتندد بالذى يتهاون فى دينه حتى بارتكاب الصغائر التى يعتاد لها • مستهينا لشأنها ، مستحقا بها ، وهى الخطوة الأولى الى جحود القلب ، وظلام البصيرة ، وقسوة الفؤاد ، والجرأة على الله ، وسوء الأدب معه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ومعظم النار من مستصغر الشرر « ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم » لا تهاون فيه ولا تغافل ولا تباطؤ ولا تراخى ولا نقص ولا زيادة كذلك • فان حصل فى دقة الامتثال والتطبيق كان ذلك هو الثغرة التى ينفذ منها الشيطان الى ضمير المؤمن ليقوده الى المعصية ثم الى الغضب عليه من الله ثم الطرد من رحمته جل وعلا •

وفى الخطبة مقـدار عظيم من الاهتمـام بالمرأة لأنهـا نصف المجتمع وبخاصة حين تكون زوجة فان وضعها يكون شائكا ، لأن حياتها مع الرجل وهى قائمة على الحب المتبادل ، والوفاء من كليهما للآخر ، والثقة المتوفرة بينهما · تحتاج الى صون حرماته ، والمحافظة على عرضه « ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم ولا يأتين بفاحشة » وهى على كل حال بالنسبة للرجل مخلوق ضعيف « وانما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا » الا أنها مع هذا الضـــعف تستطيع أن تكون شيئا ذا أهمية في ذلك النعيم الواســـع الذى ينشده الرجل من البناء بها ، والحياة معها · وهذه السعـــادة · وذلك النعيم ، لا يمكن وجودهما ، الا اذا لاحظ الرجل من جانبه هذا الوضع التركيبى لهذا المخلوق الضعيف · الوضع الذى يحتم عليـه أن يعاشرها بالمعروف « فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ، وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا واثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » ·· وليس أدل على روح الاخلاص ، وحب الخير ، والرغبة الصادقة فى الاصلاح ، من قوله صلى الله عليـــه وسلم فى أول الخطبة « اسمعوا منى فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامكم هذا » ورحمه الله صلى الله عليه وسلم فقد كان موقفه بحق موقف وداع تجلى فيه العطف والود ، وهو كما يقول عن نفسه الرحمة المهداة ، أو كما يقـــول القرآن الكريم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم فى جهاده الشاق ، وفى حياته القاسية ، وفى مقاومته للشرك انما يعمل لتمكين هذا الدين ، وسيادة هذه الشريعة ، وسعادة هذه الأمة ، فاللهم أجزه عنا أحسن الجزاء ، ورطب ألسنتنا بالصلاة والسلام عليـــه رجاء أن نؤدى له بعض ما يجب ، وأنت وحدك الذى تعين على الخير ، وتوفق للصواب ، وقلوبنـا بيديك واعتمادنا عليك ، يا نعم المولى ونعم النصير ··

أصحاب النبى

الذى يتابع أخبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم • وكيف كان أدبهم معه ، واحترامهم له • وسرورهم بـه ، وأنهم كانوا يهشون للقـائه ، ويعاشرونه بالمعروف ، ويعاملونه بالتى هى أحسن من جميل الخلال ، وعظيم الفعال ، ووقوفهم الى جانبه دون أن يتقدموا عليه ، أو يرفعوا أصواتهم لديه ، ثم يجعلونه رائدهم وقائدهم ، وأستاذهم الذى يأخذون عنه • ويستفيدون منه ، ولا غضاضة أو مضاضة فى ذلك كله • وانما هو عن رضا وارتياح • ورغبة واطمئنان ، وحب وايمان ، يدهش الدهش ، البالغ أن تكون فى آدميـة بنى آدم هذه الطهـارة ، وذلك الاخلاص والنقاء والايثار • وتلك الانسانية التى لم يشبها نفاق ، أو يدفع اليها غرض وهوى ، أو مغنم من مغانم الدنيا يصيبونها • ويحصلون عليها ، وراء العقيدة السليمة والاخلاص المحض ، والحب الربانى الخالى من الشك والذبذبة ، ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه الصورة الواضحة فى ذلك كله • فما عرف عنه أنه تجاوز حدوده معه • أو شك فى حديثه له ، أو أسـاء الأدب عليه ، أو مل وجوده الى جواره ؟ أو زهد فى فى صـحبته • وكذلك كان اخوانه من الصحابة رضـوان الله عليهم أجمعين ، يرونه صلى الله عليه وسلم مكمل وجودهم ، ومطهر نفوسهم • ومتمم دينهم ، ومقوم سننهم • ومصحح عقيدتهم • ومنير عقولهم ، وموجه قلوبهم ، ومناط فخارهم • وموئل تطلعاتهم • ولقد صح أن عمر رضى الله عنه حينما فتح الله قلبه للاسلام • وأخذ سبيله الى دار الندوة ليلتقى به صلى الله عليه وسلم هنالك ليعلن اليه أنه دخل فى دينه • وأنه سيكون من جنوده ، الذين يقفون الى جانبه ، ويدافعون عنه • خاف المسلمون — وقد رأوه مقبلا — أنه يضمر غدرا للنبى صلى الله عليه

وسلم • وأنه ما جاء الا لذلك ، وحينئذ تسابق كل واحد منهم أن يكون هو ضحية عمره ليفدى رسول الله صلى الله عليه وسلم • ولم يكن واحد منهم الا وقد أبدى هذه الرغبة وأصر عليها • وفي هذه الآونة قال لهم النبى هونوا على أنفسكم فأنا ضالته المنشودة ، ولابد من مقابلتى له ، لا تظنوا أنه ينال منى ، أو يصرعنى بقوته ، ولم يكن الا أن التقى به صلى الله عليه وسلم وجها لوجه وهزه هزة انخلعت لها مفاصله ثم قال له أما آن لك أن تسلم يا عمر وتدخل فى دين أهل النهى ، فقال له لهذا أنا جئت يا رسول الله ، فكبر المسلمون فرحا به ، وسرورا لأن الله قد هداه • وصار بعد ذلك للرسول أطوع من بنانه ، وألزم لظله • وأقرب الى خاطره • وحين وقفت قريش فى وجهه صلى الله عليه وسلم ليؤجل دخوله الى مكة فى عمرة الحديبية كان رسولها اليه عروة بن مسعود الثقفى • وكان وهو يكلم النبى صلى الله عليه وسلم يعبث بلحيته — على عادة العرب حينئذ — وكان شعبة يضرب على يده انكارا لذلك • وخوفا من أن ينال النبى بسوء ، كأى رجل مشرك لم يؤمن به ، ولما انتهى المغيرة من هذه المهمة وذهب الى قومه قال لهم « يا معشر قريش انى جئت كسرى فى ملكه • وقيصر فى ملكه • والنجاشى فى ملكه ، وانى والله ما رأيت ملكا قط فى قومه ، مثل محمد فى أصحابه • لا يتوضأ الا ابتدروا وضوءه • ولا يسقط من شعره شىء الا أخذوه ، وانهم لم يسلموه لشىء أبدا » ومعلوم أنه فى غزوة أحد حين هزم المسلمون وفر الفارون من حوله وقد وقف هو يتلقى رميات أعدائه كانوا يحيطون به احاطة السوار بالمعصم ليكونوا فداء له ، مما عساه أن يجىء اليه من عدوه ، وحين تآمر المتآمرون على قتله صلى الله عليه وسلم فى ليلة الهجرة كان على كرم الله وجهه فى مكانه فى حجرته التى ينام فيها • وعليه بردته الخضراء ، وهو يعلم أنه مقتول لا محالة ، اذ عرض نفسه لأن يكون فى مكان هذا الذى يريدون قتله ، وهو مغطى ببردته ليؤكد لهم أنه هو تلك الضالة المنشودة ، وهو بذلك يعطى صورة الفدائية الحقة من غير شك ، ولو أن رجلا غير على من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب منه فى هذا الوقت أن يمثل الدور الذى مثله على لما تردد أو توقف • ولقد كان عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين يعلن للنبى صلى الله عليه اسلامه • وهو كما يقول القرآن الكريم فى أمثاله « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر •• يضمر الحقد ، ويخفى الكراهية ، ويكن فى نفسه الكيد والغدر • ولا يفتأ عند وجود الفرصة أن يزرع الشوك فى طريق النبى صلى الله عليه وسلم هو والمسلمون معه ، وحدث يوما ما أن تنازع مهاجر مع أخيه الأنصارى واشتد بينهما الخلاف ، وقد جعل هو من ذلك سبيلا الى أن يوقظ الفتنة النائمة •

ليقول للأنصار ، ما يغريهم بالمهاجرين ثم أردف ذلك بقوله • لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » وهو من غير شــك يقصــد بالأعز نفسه ، أما الأذل فهو النبى وأصحابه • ولكنه لما عرف أن ذلك قد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذهب اليه ثم حلف أنها لم تصدر عنه • وكان الوحى قد نزل على النبى صلى الله عليه وسلم ليقول له فى أول سورة المنافقون • « اذا جاءك المنافقون قالوا نشــهد أنك لرسول الله والله يعلم انك لرســوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » وقد اســتأذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتله ، وقال يا رسول الله مرنى لأقتل رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول ، فقال له لا أحب أن يقول الناس محمد يقتل أصــحابه ، ولما بلغ ذلك ابنه عبد الله — وكان من خيار المسلمين ، شدة ايمان ، ونقاء سريرة • وحبا للنبى صلى الله عليه وسلم — قال له يا رسول الله بلغنى ما صنع أبى وتسابق الناس الى قتله • فمرنى يا رسول الله أن أقتله ، فانى أخشى ان قتله غيرى ألا تطيب نفسى بذلك • وأن تدفعنى الحمية لأقتل قاتله ، وهنالك أعود الى حظيرة الكفر ، اذ قتلت مسلما فى كافر • وحينئذ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم • طب نفسا يا عبد الله فاننا لا نقتل أباك ولا نسىء اليه • وما كان هذا الولد يريد قتل أبيه الا مرضاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم • وكأنه كان فى هذا الوقت يضع نصب عينيه قوله سبحانه « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونهــا أحب اليكم من الله ورســوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين •• ولا يكتفى بهذا القول بقوله الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يقطع الطريق عليه ويرغمه على أن يقول أنا الأذل ورسول الله صلى الله عليه وسلم الأعز ، فى مقابل تلك الكلمة التى أرسلها أبوه والتى نطق بها القرآن الكريم لئن رجعنا الى المدينــة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » وهذه أمثلة فقط لهذا الحب ، وهذا التبجيل ، وذلك الاحترام ، وهم الذين كانوا وهم يخاطبونــه يقدمون بين يدى خطابهم له كلمــة « بأبى أنت وأمى يا رسول الله » ولقد كان لهم أن يعاملوه هذه المعاملة ، ويحبوه ذلك الحب • ويتعلقوا به هــذا التعلق ، وهو الذى كان يعتز بهم • ويهش لهم ، ويأنس الى لقائهم • ويطمئن اليهم ، ويملأ بهم قلبه وخواطره ، ثم لا يسعه بعد ذلك كله الا أن يقول « أصــــحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ويخلع عليهم هــذا الرداء من الفخار والشرف ، والاجلال والتقدير ، ولقد صح أنه كان يتابع أخبارهم ، ويسأل عنهم ، ويشاطرهم فى الآمال والآلام ، وقد تفقد يوما علقمة فلم يجده ، فلما سأل عنه قالوا

له هو يارسول الله فى النزع الأخير • فبعث اليه من يلقنه الشـــهادتين فاستعصى عليه النطق بهما • فأخبروه بذلك صلى الله عليه وسلم ، فقال أله من والديه من لا يزال حيا ، فقالوا أمه • فقال أحضروها ، فلما حضرت قال لها ماذا ترين فى علقمة ، فقالت لم أنكر منه يا رسول الله الا أنه كان يقدم زوجته على ، ويصغى اليها دونى ، ويستجيب لندائها ويحسب حسابها وان كان ذلك لا ينقص منى شيئا • وهنالك قال الرسول صلى الله عليه وسلم اجمعوا لنا حطبا لنحرق علقمة جزاء غضب أمه عليه • وهنالك صاحت الأم قائلة لا تفعل يا رسول الله ، ولا أرضى لابنى وفلذة كبدي أن تأكله النار ، ولا يكون هذا على مرأى منى ومسمع ، فقال لها ان أمر ذلك اليك ، ان رضيت عنه تجا من النار ، وان ظللت على غضبك كانت له نار الدنيا ونار الآخرة ، فقالت أشهد الله ورســوله والملائكة والانس والجن والأرض والسماء أنى راضية عن ابنى علقمة ، وأطلب له من الله العفو والمغفرة • فى هذه الآونة إستجاب علقمة لمن كان يلقنه الشهادتين نطق بهما من غير تلعثم ولا لجلجة وأخبروا النبى بذلك فدعا له بالجنة •• وهكذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه من الرعاية لهم • والحدب عليهم ، والتفانى فى توجيههم للخير ، وارشادهم للأفضل ، وكانوا يرونه الأمر الذى لابد منه • ولا استغناء عنه ، وصدق الله العظيم اذ يقول « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصـــالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » وليست فى غير ذلك تكون رجولة الرجال ، وصداقة الأصدقاء وحب المحبين ، وأدب المؤمنين ، رضى الله ســبحانه وتعالى عنهم • جزاء ما كانوا عليه من خلال ، وجميل خصال ، وحسن فعال ، وصدق مقال •

كلمة الختـام

حينما جاء محمد صلى الله عليه وسلم للناس بهذا الدين الذى حمل لواءه • وأقام بناءه • اهتزت أرجاء الدنيا ، وأرهفت آذانها لتصغى الى هذا النداء الذى دعاها الى أن تتخلص من الخرافات ، وتترك الترهات ، وأن تنفض عنها غبار هذا الجهل الذى كانت ترزح تحت نيره ، وتعيش أسيرة لسلطانه • وأن تكفر بهذا الذى توارثته عن الآباء • والأجداد من الضلال الذى كانت عاكفة عليه • متمسكة به • ثم وجدت نفسها واقفة منه هذا الموقف الذى اقتضاها أن تفكر وتنظر • وتعى وتتأمل • لأن كتابه الذى جاء به ، ودينه الذى أعلنه • لم يكن يحمل الناس على القسر • ولا أن يكرههم على أن يستجيبوا لرغبته ، أو ينزلوا على ارادته • بأسلوب المتسلطين ، أو طريقـة الجبـارين ، أو نهـج المستبدين ، وهو يقول « أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » وانما كان يفتح المنافذ التى يدخل منها الهـواء النقى ، وهنالك تشعر تلك النفوس التى تعيش فى هذا الجو الخانق • أنها أمام حرية مكفولة ، وأن من حقها أن تأخذ ما تأخذ ، وتدع ما تدع • وأن هذا الدين يمتاز بالوعى والرأى ، والعقل والفكر والتأمل والانتباه ، وأنه لا يرضى لأهله بتبلد الاحساس ، وغفوة الشعور • ونوم الضمير • وانمـا هو يدعوهم دائمـا أبدا الى أن يكون لهم نظر وفقه • وصحو ويقظة ، وفى القرآن الكريم مجال واسع لذلك كله لا ينكره من كان له الف به اذ يراه ينادى بذلك • ويرغب فيه • ويحث عليـه • ويجعله كالفريضة المحتومة • أو الواجب الذى لابد منه ، وهو ربما حارب تلك العلل التى تقاومها • أو تعترضها وتقف فى سبيلها ، ولا نبالغ اذا قلنا ان الانسانية كانت تعانى من عبودية الفكر • وأغلال الجهل ، قبل أن يرسل الله اليها هذا الذى أنقذها هذا الانقاذ الذى أنصف به الحق من الباطل ، والعدل من الظلم • والهـدى من الضـلال • والحرية من

الاسترقاق ، وهي ما كانت الا في ليل قاتم • وعسف دائم ، وحكم غاشم « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » وقد أثبت التاريخ أن اليهودية والنصرانية • وقد كان من طغيانهما ما كان تقلص ظلهما • وانكمش سلطانهما ، وفترت حدتهما • وسكت صوتهما ، لأن الاسلام الذى أشاع الحرية ، وأعلن العدل ، وأيقظ العقل ، ونادى بالانصاف • وهتف بالأذان ، وشرع المساواة ، قضى على الجمود ، وحارب الجهل • وقلم أظافر الباطل • وأفهم الناس أن العبادة لله • وأن الآدمية ليست وقفا على الرؤساء ، وهنالك كان التمرد على الكنيسة • والتكذيب للرهبان ، والرفض لما يقول به الذين يمنحون صكوك الغفران • ويبيعون قراريط الجنة ، وارتفعت الأصوات التى كانت تنادى بالحركات التجديدية لتبعث العقل من غفوته ، والفكر من رقدته ، وبخاصة بعد هذه اللقاءات التى كانت مع المسلمين فى الأندلس الذى دام حكمهم له ثمانية قرون كانت مدارسهم وجامعاتهم ترسل نورها على الوافدين عليها من هؤلاء الذين أخذوا منها • وانتفعوا بها ، وكذلك كان الاحتكاك الصليبى الذى دام أكثر من قرنين كاملين ، وقد سجل مؤرخوهم ذلك ، ولم ينكروا هذا الأثر الذى كان من جرائه هذا التحرر ، أو تلك اليقظة • وهذا التمرد على ما كانوا مستغرقين فيه ، وأن الاسلام وحده هو صاحب الفضل فى أن يتخلصوا من تلك الرجعية ، وأن يعرفوا أن الآدمية تقتضيهم من الحقوق والواجبات ما يجعلهم يتخلصون من هذا الرق • وتلك العبودية ، ولا يشك أحد فى أن الاسلام الذى كانت له هذه الفاعلية فى غير أهله ، كان له مثلها أو أكثر منها فى أهله ، الذين يؤمنون به ، ويقدسون له ، ويعملون به على أنه عقيدة تصلهم بالله ، وتشفع لهم عنده ، وكان صلى الله عليه وسلم هكذا مع المسلمين يحثهم على التطلع • ويدفعهم اليه ، ويرغبهم فيه ، ويحبب اليهم النظر والاعتبار ، وأن يكون اليوم خيرا من الأمس ، ولا يخطر بذهن أحد أن هذا النشاط الذى كان يحثهم عليه ، أو يدفعهم اليه ، كان خاصا بتحصيل الرزق ، أو جمع المال ، أو تحصين الحصون ، واستكمال القوى المادية التى يتقدمون بها على غيرهم من اليهود والنصارى لتكون لهم الغلبة عليهم • أو السبق دونهم وكفى • أما الفقه فى الدين ، والعلم بكتاب الله ، فليست من هذا القبيل ، لأن طريقها الوحى الذى أكد ذلك بقوله « اليوم أكملت لكم دينكم » وليس من حق عقل أو نظر أن يكون له زيادة أو حذف أو تغيير ، أو اجتهاد أو رأى ، أو ما يشبه ذلك مما يشعر أن خللا كان باديا • لابد من العمل على تلافيه أو تداركه • ونحن نبادر بدفع هذه الشبهة بأن هذا الكلام انما يرد على الذهن اذا كان ما يجرىء به الفكر أو النظر متعارضا مع هذا الدين الذى ثبت له التمام والكمال ، فان هذه

الاضافات والحركات التى نسميها جديدا أو تجديدا من معينه ، وليست غريبة عنه ، أو بعيدة منه ، ولا زيادة فيه ، وانما هى تلتقى به بعنوان أو بآخر ، ووظيفة الفكر أو النظر جعلها ذات نسب يربطها به ، وهو القياس أو غيره من الروافد ، وفى هـذا المحيط كان الفكر والنظر ، والاجتهاد والاضافة ٠ والنبى صلى الله عليه وسلم وهو المعلم الأول لهذه الأمة لم يكن يحظر على أصحابه رضوان الله عليهم شيئا من ذلك ، وانما كان يفتح لهم الآفاق ٠ ويشجعهم على البحث والتأمل ، والنظر والاعتبار ، ويسترشد بهم ويشاورهم ، ويغريهم أن يقلبوا الأمور على وجوهها ، وكانوا يعترضون عليه ، وكان هو من ناحيته يتقبل منهم ذلك ، لأنه من غير شك المعلم والمربى الذى يود أن ينشأ تلاميذه وفيهم حرية الرأى فى فهم الأشياء ٠ وعدم أخذها دون الاذعان لها ، والاطمئنان اليها ٠ كما حدث ذلك فى أسارى بدر ، وفى مشروعية الأذان للصلاة ، وفى الصلاة على رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ٠ وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحمل لواء المعارضة ، وكان الوحى كثيرا ما يوافقه ٠ وكان ذلك ـ كما قلنا ـ من النبى صلى الله عليه وسلم تدريبا لأمته على الانطلاق والتحرر ، وأن يكون لهم مصباح من الرأى يضىء لهم الدرب فى شئون الدين والدنيا على السواء ، « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » وهو بذلك لا يطلب منهم أن يكونوا كالببغاء التى تحكى ما تسمع من غير وعى وادراك دون أن تفهم له معنى ، أو تفقه له مغزى ، وانما يطلب التدبر ، بعنوان أن الغاية من التكاليف جلب المصلحة ودرأ المفسدة ، والمجتهد لا يحيد عن هذا الغرض بحال من الأحوال ٠ وفى القرآن الكريم ما يشبه أن يكون معالم للانطلاق الى هذا التحرر من الجمود ، وذلك مثل قوله سبحانه « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » وقوله « ولكم فى القصاص حياة » وقوله « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » كما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان هـذا الدين يسر لا عسر » وقوله « لا ضرر ولا ضرار » وجاء عن الفقهاء عبارات تناقلها الناس عنهم يمكن أن تكون مبادىء كقولهم « اليقين لا يزول بالشك » أو قولهم « الأمور بمقاصدها » وقولهم « مصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الواحد » وكانت هذه كلها منارات أضاءت الطريق ، وكشفت المعالم ، على أن هذا التجديد لون من ألوان حرية الرأى التى هى مترتبة على حرية النفس التى يحارب المرء من أجلها ٠ ويموت فى سبيلها ٠ ويجب ألا ننسى ـ مع ذلك ـ أن هنالك مناطق محرمة ليس من حق الباحث أو المجتهد أن يتناولها بعض التناول أو كله برأيه ، لأنها مأخوذة على علاتها ، وذلك مثل وحدانية الله ، وارسال الرسل ، وفرضية الصلاة ، وعذاب القبر ، والايمان باليوم الآخر ، أما ماسواها من فروع المسائل التى لم تثبت بنص قاطع كعمران

الأرض ، واستغلال الطاقة ، وتخطيط المدن ، وادارة الأعمال ، مما هو خاضع للرأى والفكر • والكياسة والعقل ، فانه لا بأس أبدا لأن تكون مجالا لاختلاف وجهات النظر ، والقبول والرفض ، على ضـــوء التأمل والاعتبار ، ولا يستطيع انسان أن ينكر أن ذلك كان موجودا بين المسلمين حتى مع وجود النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو صاحب فصل الخطاب فيه ، « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى علمه » وما كن موقفهم بعد أن اختار الله رسوله صـلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى وهم ينشدون من يملأ هذا الفراغ ليسوس أمورهم ، ويرأب ما عسى أن يكون هنالك من صدع ، الا لونا من ذلك ، وصورة واضحة له ، وقد سموا هذا الرجل الذى اختاروه خليفة ، وتوالى الأمر بعده لعمر وعثمان وعلى ، فى حين أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل بهذا الأسلوب ولا نص عليه ، وانما هو تفكير المسلمين ورأيهم الذى واجهوا به الأحداث ، وقضوا به على الفتن ، وكان لكل واحد من هؤلاء كياسة وسياسة انفرد بها ، وصارت دستورا للمسلمين من بعده ، وقد جمع أبو بكر القرآن ، وقاتل المرتدين ، وجاء بعده عمر وكان له رأى ، وصدرت عنه أحكام ، وهكذا كان عثمان وعلى ، والمسلمون كلهم على طول المدى كانوا يصـادفون قضـايا لم يقفوا أمامها جامدين ، ولم يرضوا بهذه الغفوة التى تصيب المغلوبين على أمرهم ، والذى يلم بعض الالمام بهذا التراث الذى تركوه ، يرى أن القدامى منهم كانوا يسمون بالسلف ، وأن الذين جاؤا بعدهم كانوا يسمون بالخلف ، ويمتاز أولئك الخلف أو المحدثون بأنهم كانوا أصحاب اجتهـاد ورأى ، وأنهم لم يكونوا جامدين ، ولم يقفوا أمام النصوص دون أن يقلبوها على وجوهها ليعرفوا ماذا تعنى ، وقد زخرت صحائف التاريخ الاســـلامى بالطوائف والفرق ، أو الأحزاب والجمـاعات التى كانت تتبادل الآراء • وتتصارع على الأفكار • مثل المعتزلة وأهل السنة ، والجبرية وغيرهم • وربما كانت رسائل اخوان الصفا التى بين أيدينا شاهدا من هـــذه الشواهد ، ومنذ كان العصر العباسى واختلط المسلمون بالفرس ، وأخذوا عنهم الفلسفة والمنطق ، والرحى تدور على الجدل والمناظرة ، والبحث عن حقائق الأشياء • وليس بصحيح ما يقوله اقبال من أن هذه النزعة انما كان الفضل فيها لرجال التصوف الذين أوجدوها بعد أن لم تكن ، ونحن نستطيع أن نسوق الأدلة على أن هذا الرأى غير صحيح ، وأن الانسان منذ تطلع الى الوجود فكر ونظر ، وبحث وتأمل ، وحاول أن يعرف ، وأن يربط الأسباب بالمسببات • ولم يرض أن يكون متخلفا فى معنى من المعانى التى تصل به الى جديد فى علمه • وطريف فى رأيه ، وكان يعمل دائما أبدا على أن يضيف الى ما يكتسبه آخر وآخر ما دامت فيه القدرة على التحصيل ، وليس أدل على ذلك من تلك القصة الطريفة التى ذكرها القرآن الكريم على شكل حوار دار بين موسى عليه السلام والخضر رضى الله عنه ،

اذ قال له موسى « هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا قال انك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا قال ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » ومضيا بعد ذلك في طريقهما على أن موسى ملتزم بعهده الذى أخذه على نفسه ، لا يتجاوزه ولا يخيس فيه ، ولا يناقش مسألة أو يطلب عنها ايضاحا أو تعليقا الا بعد الفراغ من المسيرة ، والانتهاء من الرحلة . وحين يجيء دورها بين أخواتها من المسائل ، وكان المفروض في وعد وعد به موسى أن يفي به ، الا أننا رأيناه يتحلل منه ، ويخرج عليه ، وكان ذلك محلا للغرابة ، وسببا من أسباب الدهشة ، لأن الشأن في الكلمة أن تملك صاحبها . وأن تكون عهدا مسئولا ، ولاسيما حين تكون صادرة عن رجل لا ينزل الى مرتبة السوقة ، وهو رسول يأخذ الناس منه ، وينقلون عنه ، الا أن موسى الذى نتصوره على هذا الوجه ، طغت عليه تلك البشرية التى جعلته يخرج على التقاليد ، ويخالف الأوضاع ، طلبا للعلم ، ونزوعا الى المعرفة ، وحرصا على أن يزيل عن نفسه غشاوة الجهل ، ووصمة هذا التخلف ، الذى لا يليق بحملة المشاعل ، وطغى عليه كذلك نهمه الى الانطلاق ، وحبه للمعرفة ، وشغفه الى المزيد ، فسأل وألح في السؤال مكتفيا وهو يتجاوز الحد لما عاهد عليه صاحبه بهذا الاعتذار « لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمرى عسرا » ولم يكن هو نسيانا واحدا ، ولا اعتذرا واحدا كذلك ، وانما هو انسياق في هذا المدى ، وتكرار لتجاوز الحد ، وتكرار للاعتذار ، ويكتفى هذا المتجاوز بما يكرره « لا تؤاخذني بما نسيت » حين يقول له صاحبه « انك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » وقديما كانوا يقولون منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال .. ولما كان العقل أو الوعى ، والادراك والمعرفة ، والنظر والتأمل ، وما يرادفها من الأمور التى لا تجيء من غير احاطة واستقصاء ، وفقه وفهم ، لها هذه المكانة ، وذلك التقدير ، رأيناه جل وعلا قد جعل غرائز بنى آدم تواقة الى هذا التطلع . وذلك البحث أو الكشف . ولا ترضى بالوقوف عند حد . وكان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم داعيا الى طلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وفي الحديث كذلك ما يفيد أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع . وهنالك معنى وراء ذلك كله قلما يفطن اليه كثيرون من الناس وهو تلك السعادة التى يحس بها الطالب وهو يضيف الى رصيده جديدا من الوعى والادراك ، وهو يحلق في هذا الجو الواسع الذى يشبه جو الشعراء وهم يحلقون في ملكوت السماوات والأرض بحثا عن حكمة ضالة ، أو حقيقة ضائعة . وهكذا يعيش في هذا البرج العاجي أرباب الآراء ، وأصحاب الأفكار ،

والباحثون عن الجديد من المعاني ، أو الطريف من الأشياء ، والخير لا يواتي الا من يطلبه ، ولا يتاح الا لمن يسعى اليه ، والأئمة الذين مهدوا الطريق ، وعبدوا السبل ، كم تحملوا من ادمان السهر ، وافتراس المدر ، وكثرة السفر ، وطول النظر ، ومطاردة الضجر ، وعلى من يجعلون من نفوسهم أهدافا لهذه المهمة أن يكونوا هكذا دأبا ونصبا • وكدا وتعبا وما كان المجد فى وقت من الأوقات نكرة شائعة ، ولا طاقة ضائعة ، وانما هو انسان دخل فى التاريخ من أوسع أبوابه ، اذ وصل روحه بالحقيقة ، وقلبه بالمعرفة ، ونفسه بالطلب ، فاستطاع أن ينشر الضياء ، ويملأ مصباحه بالزيت ، ولقد كان المرجح الذى فضل الله به آدم على الملائكة وجعل له الخلافة من دونهم انما هو العلم • وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه • ولا يجد هو غضاضة فى اجابتهم لما يعرفه من ذل الجهل ، وعدم المعرفة ، وهكذا كان النزوع الى التجديد ، والميل اليه ، أو الحب له ، تسبقه هذه الارهاصات التى تبدو فى البحث والكشف وطلب المعرفة ، ومن هنا فاننا لا نتردد اذا قلنا انه كان كذلك على طول المدى • وبه انتقل العرب من عبادة الكواكب والأصنام الى عبادة اللطيف الخبير ، ويقول سبحانه « هل يستوى الذى يعلمون والذين لا يعلمون » ونحن لو تصورنا الحياة الأولى للاسلام فى بادىء أمرها حيث كان المسلمون فى قلة من العدد • وضآلة من الموارد ، وضيق من رقعة الأرض ، وخلو من العلم والمعرفة ، نستطيع أن نقول انها كانت بسيطة لا تعقيد فيها • واضحة لا يكتنفها شىء من الغموض • وأن رجلا واحدا هو النبى صلى الله عليه وسلم كان يدير شئونها ، ويسوس أمورها فى الدين والدنيا فى آن واحد ، يبصرهم بحدود الله فى الحلال والحرام • ويقود الجيوش • ويصد العدوان ، ويوطد دعائم الحق والعدل ، فلما زاد عدد المسلمين ، وفتحت الأمصار ، وزرع الأعمال بين أصحابه • فهؤلاء يكتبون له الوحى وأولئك يعلمون القرآن وآخرون للفتيا والقضـــاء ، وغيرهم للغزوات والفتوح ، وهو مع ذلك كله ربان السفينة من غير خلاف ، لكنه وهو فى هذه المنزلة من الله ومن المسلمين ، وله هذا الاتصال بالسماء • لم يستبد كل الاستبداد بالأمور ، وانما كان أصحابه من حوله جوارحه النابضة ، وشعوره الفياض • واحساسه المتيقظ ، يتلقى آراءهم ، ويحترم أفكارهم • ويقول « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وربما حوله بعضهم عن رأيه أو اجتهاده واستقبل هو ذلك بالرضا والارتياح ، والذين يقولون ان الاسلام قضايا محدودة ، ومســائل معدودة • أو أقوال متوارثة • لا يستطيعون أن ينكروا ما جد فيه من فهم ، وما أضيف اليه من علم ، وما زاد فى رصيده من رأى ، وأنه كان يتجاوب مع الحوادث • ويسابق الأيام ، ويسير مع عجلة الزمن ، من غير كساح ولا مرض ، وقد صح

أنه بعد أن اتسعت الفتوح • وانتقل من انتقل الى تلك البلاد طلبا للرزق وجريا وراء لقمة العيش ، وظل بمكة والمدينة حفظة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم • وبخاصة هؤلاء المعروفين بالفتوى ، وانقطعت صلة أهل هذه البلاد المفتوحة بهم أنهم كانوا يقتدحون الأذهان ، ويعملون الفكر ، ليصلوا الى حكم الله فى المشاكل أو المسائل • وحينئذ كان التشريع الاسلامى له اتجاهان ما كان عنهما مفر ، اتجاه أهل الحديث الذين لا يحيدون عن النص قيد أنملة ، واتجاه هؤلاء الذين لم يجدوا مندوحة عن الرأى ينتفعون به ، أو يحتكمون اليه ، وقد ألف الناس ذلك ولم يرفضوه • وهكذا كان فيما بينهم مدرستان للفتوى فى الأحكام • مدرسة أهل الحديث ، ومدرسة أهل الرأى • على أن أهل الرأى ليسوا كما يعطى ظاهر اللفظ من الهوى والميل أو الغرض دون امعان فكر وتأمل ، ونظر وتعقل • ولكن الرأى عندهم دقة فهم ، وحسن تأمل ، وعميق دراسة ، واطالة تفكير ، واجتهاد صحيح فى فهم الأمور فهما يربطها كل الربط بالكتاب والسنة ، على أن تكون الغاية من قبيل ما تعارف عليه العلماء من كونه جلب مصلحة أو درأ مفسدة ، ولا ينكر أحد على أهل الرأى أنهم كانوا كذلك ، تجديدا فى الفكر ، واثراء للفقه ، وزيادة غير منكورة فى رصيد العقل •• واذا صح هذا الحديث الذى يبالغ السيوطى فى نفى تهمة الضعف عنه • وهو أن الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد للناس أمور دينهم • فان مسألة التجديد فى الدين والرأى تكون من الأمور المسلمة التى لا يمارى فيها أحد ، لأن مدرسة أهل الرأى هذه هى تلك الصورة التى تخلف عنها الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل الاجتهاد • والثروة العظمى التى أخذها المسلمون من الكتاب والسنة لا يمارى فيها انسان ومن أجل ذلك فنحن حينما نقول ان فى شريعتنا من الخصوبة والمرونة ما يطاوعها على الاستجابة كل الاستجابة لمطالب النهوض والرقى • والتقدم والعمران • ويشهد على أنها على جانب عظيم من الثراء والغنى ، لم نكن ندعيها دعوى مجردة عن الدليل ، لأن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن أبدا تراثا باليا ، ولا مخلفات حروب فاشلة • وهى صنع الله الذى أتقن كل شىء خلقه ، هذا ولا يفوتنى وأنا أتحدث هذا الحديث عن التجديد فى الفكر الاسلامى أن أنبه الى أن ذلك لم يكن كلأ مباحا يغشاه كل ما هب ودب — كما يقولون — وانما هو عمل الخاصة من أهل العلم الذين سماهم القرآن الكريم أهل الذكر ، وسماهم أرباب المعرفة أهل الحل والعقد • ممن تساعدهم ثقافتهم العربية ، وممارستهم لقضايا الشريعة الاسلامية أن يخوضوا هذا المضمار حتى لا يكونوا وبالا علينا وعلى الناس •

د• ابراهيم على أبو الخشب

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقـــدمة	٥
مقدمة الطبعة الثانيـــة	٧
يارســول الله	١١
محمـــد	١٧
نسبه الشريف	٢١
الاعداد الالهى	٢٥
يتيم رعاه الله	٢٩
عصاميته	٣٥
اعتــكافه	٣٩
قصــة القراءة	٤٣
ما ودعك ربك	٤٧
تبت يدا أبى لهب	٥١
رجــلان	٥٥
والله يا عمـــى	٥٦
البشــارة به فى الكتب الســابقة	٦٣
صراعه مع المشركين	٦٧
المعذبون	٧٣
المســتهزئون	٧٧
التحدى الباطل	٨٣
الهجرة الى الحبشة	٨٩
الحصار الاقتصادى	٩٣

الموضوع	الصفحة
عام الحزن	٩٩
مع ثقيف بالطائف	١٠٣
الاسراء والمعراج	١٠٧
مبايعة العقبة	١١٣
هجرة الرسول	١١٩
فى الطريق الى المدينة	١٢٣
فى المدينة	١٢٧
تكوين الدولة	١٣١
غليان القدر	١٣٥
شاكى السلاح	١٣٩
شبهات الحرب	١٤٣
اليهود فى الطريق	١٤٩
قبل غزوة بدر	١٥٧
غزوة بدر الكبرى	١٦١
طرف من بدر	١٦٥
غنائم الحرب	١٦٩
حديث أحد	١٧٣
قاتل حمزة	١٧٩
بين أحد والأحزاب	١٨٣
غزوة بنى المصطلق	١٨٧
حديث الافك	١٩١
غزوة الخندق أو الأحزاب	١٩٧
قصة زينب	٢٠٣
الحديبية والرضوان	٢٠٩
بعد الحديبية	٢١٧
حديث أبى سفيان	٢٢٣
فتح مكة	٢٢٧
غزوة تبوك	٢٤٣
بعد تبوك	٢٤٧
حجة الوداع	٢٥١
أصحاب النبى	٢٥٧
كلمة الختام	٢٦١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٧٦٣/ ١٩٩٠

ISBN — 977 — 07 — 2611 — X

هذا كتاب جرى فيه القضاء على ان يكـون سيره لسيـد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم . فكان ادبا بكل مـا تحتمل ظلمة الادب من معنى : وهذا عيبه إن صح ان يكون عيبا فليقراه القارىء واضعا في نفسه هذا الاعتبار ومن العناوين الاولى .

وهـذه نبذه من هـذه الكتابـه . وهكذا جـد من البهجه والـرضا . والسـرور والفرح . والغبطـه والسعاده . والأمـل والارتياح . والحب والود . والاقبال والقبول . لينسى صلى الله عليه وسلم شدائده التي كانت : وكـروبه التي قضت . وهـو ما بين الاحتفال بشانه . والعنايه بامره . والاهتمام بشخصه ، والوعود التي تضحك في وجهه . والرعايه التي تحيط به من كل جانب في جنه عرضها كعرض السماوات والارض .

لكنه صلى الله عليه وسلم الى هذه اللحظه · كانما كان يقف وحده في الميدان

اليس هذا هو الادب بعينه . او قريبا منه . انا اقول ذلك !!

٤٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب